

ردمد ٣٥١٥-١٦٥٨
ISSN. ١٦٥٨-٣٥١٥
رقم الإيداع ١٤٢٨/٢١٩٠

حقوق الطبع محفوظة
للجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه
العام ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م



رئيس هيئة التحرير

أ.د. محمد بن عبد الرحمن الشايع.

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

هيئة التحرير

١ - أ.د. إبراهيم بن سليمان الهويمل.

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقاً.

٢ - أ.د. سليمان بن صالح القرعاوي.

الأستاذ بجامعة الملك فيصل بالأحساء.

٣ - أ.د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي.

الأستاذ بجامعة الملك سعود بالرياض.

٤ - أ.د. فهد بن عبد الرحمن الرومي.

الأستاذ بكلية المعلمين بالرياض.

٥ - أ.د. محمد بن سيدي الأمين.

الأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

مدير التحرير

عبد الله بن حمود العماج

المحاضر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

قواعد وشروط النشر

- مجلة الدراسات القرآنية مجلة دورية تصدر عن الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه. وتعنى بالبحوث العلمية، وفق الأمور الآتية:
- أن يكون البحث متسماً بالأصالة وسلامة الاتجاه.
 - أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
 - أن تتحقق له السلامة اللغوية.
 - مراعاة علامات الترقيم.
 - ألا يكون قد سبق نشره.
 - ألا يكون مستلماً من بحث أو رسالة نال بها الباحث درجة علمية.
 - توضع حواشي كل صفحة أسفلها على حدة ويكون ترقيم حواشي كل صفحة مستقلاً، وتضبط الحواشي آلياً لا يدوياً.
 - تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث.
 - توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط الملحق في مكانها المناسب.
 - ترفق جميع الصور والرسوم المتعلقة بالبحث واضحة جلية.
 - ألا تزيد صفحات البحث عن ثمانين صفحة (A٤) ولا تقل عن عشرين صفحة.
 - أن يكون خط الأصل (١٨) وخط الهامش (١٤)، ونوع الخط (Arabic Traditional).
 - تكتب الآيات القرآنية وفق المصحف الإلكتروني لمجمع الملك فهد لطباعة

المصحف الشريف .

- يرفق الباحث ثلاث نسخ مطبوعة، مع ملخص لا يزيد على صفحة واحدة.
- تُحَكَّم البحوث والدراسات المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين على الأقل.
- تُعاد البحوث معدلة على قرص حاسوبي.
- لا تعاد البحوث والدراسات إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- للمجلة الحق في نشر البحث على الموقع الإلكتروني للجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه بعد إجازته للنشر.
- أن تكون المراسلات عبر البريد الإلكتروني.
- يُعطى الباحث نسختين من المجلة وخمس مستلات من بحثه.

جميع المراسلات وطلبات الاشتراك باسم
رئيس هيئة التحرير على النحو التالي:

المملكة العربية السعودية - الرياض

ص.ب: ١٧٩٩٩ الرياض: ١١٤٩٤

هاتف وناسوخ ٢٥٨٢٧٠٥

البريد الإلكتروني: quranmag@gmail.com

عنوان الجمعية

ص - ب: ١٧٩٩٩ - الرياض - ١١٤٩٤ هاتف: ٢٥٨٢٦٩٥ - ٢٥٨٢٧٥٣

موقع الجمعية

www.alquran.org.sa

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحرير

الحمد لله جل في علاه، والصلاة والسلام على نبي الهدى مصطفىا ومجتباه، وعلى آله وأصحابه وأتباعه في سيرته وسنته وهداه.

وبعد :

ها هي مجلتكم الفتيّة «مجلة الدراسات القرآنية» الصادرة عن الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه «تبيان» تتقدم إلى قرائها في عددها الجديد - العدد الثامن - في حلّتها القشبية، ومادتها العلمية المفيدة راجية أن تكون حاملة لقراءها المتميزين، وهواتها المتخصصين ما يأملونه منها، ويرجونه فيها من مادة علمية متنوعة تخدم تطلعاتهم، وتحقق رغباتهم، وتجب على تساؤلاتهم، وتسهم - مع وصيقاتها - في إثراء المعرفة وخدمة التخصص. والمجلة تدعو الباحثين الكرام إلى العناية التامة بالموضوعات الجديدة التي تضيف للتخصص المنفعة والفائدة، وذلك بتحرير مسائله المضطربة التي تحتاج إلى المزيد من التحرير والتقرير، وكذا معالجة المسائل الشائكة، والقضايا العلمية القائمة، والاضطرابات الفكرية المعاصرة؛ ففي القرآن الكريم ما ينير الظلمة، ويحقق الرشد والهداية لهذا العالم المضطرب التي تتيه خطاه في حل مشكلاته التي تصنعها يدها، وتخطو إليها قدماءه، فقد نزل هذا القرآن العظيم بالحق لهداية الخلق، وإقامة العدل، وهو ما تنشده الإنسانية، ويهفو إليه العالم مما يوجب على المسلمين تحمل واجب إبلاغ هذا الدين للناس أجمعين.

كما نأمل من القراء الكرام طرح ما يرونه جديراً بالبحث والدراسة من الموضوعات والمسائل، وما هو أحق من غيره بالتقديم في الدراسة والمعالجة. نسأل الله للجميع التوفيق والسداد في القول والعمل والاعتقاد.

رئيس تحرير المجلة

أ. د / محمد بن عبد الرحمن الشايع

المحتويات

م	الموضوع	الصفحة
١	الدرر الحسان في حل مشكلات قوله تعالى: ﴿وَالْقَنَ﴾ (دراسة وتحقيق). د. ناصر بن محمد بن عثمان المنيع	١٣
٢	القدوة الحسنة في ضوء القرآن الكريم د. ناصر بن محمد بن عبد الله الماجد	١٠٩
٣	من وسائل علاج المشاكل الزوجية في ضوء الكتاب والسنة د. إبراهيم بن علي الحسن	٢٥١
٤	مباحث الفروق في التفسير وعلوم القرآن. د. عبد السلام بن صالح الجارالله.	٣٣٩
٥	تدبر القرآن الكريم (مفهومه - أساليبه - أسبابه - آثاره) د. فهد بن مبارك بن عبد الله الوهبي	٤٢٩

الدرر الحسان في حل مشكلات قوله تعالى:

﴿أَلَكُنْ﴾

تأليف

علي بن محسن الصّعيدي المعروف بالرّميلي (ت : بعد ١١٣٠هـ)

دراسة وتحقيق

د. ناصر بن محمد بن عثمان المنيع

د. ناصر بن محمد بن عثمان المنيع

- أستاذ مشارك بقسم الثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود.
- حصل على درجة الماجستير من كلية التربية جامعة الملك سعود بأطروحته (من فوائد أبي بكر المطرز وأماليه القديمة الغرائب الحسان - دراسة وتحقيق).
- حصل على درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى بأطروحته: (الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي - القسم الثاني - دراسة وتحقيق).

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد ،،،
فقد تفضل الله عز وجل علينا بإنزال أفضل كتبه نظماً، وأحسنها بياناً،
وأتمها شرعة، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ تنزيل من حكيم
حميد ؛ تكفل الله بحفظه وبيانه . وتم ذلك بعون الله وتوفيقه على يد صحابة
كرام وعلماء أجلاء حملوا هذا الهدف النبيل على عواتقهم، ووضعوا من
أجله علوماً منضبطة ؛ ساهمت في حفظ القرآن وضبطه ونشره، ومن هذه
العلوم علم القراءات .

إن هذا العلم من أشرف العلوم، وأكثرها ارتباطاً بالقرآن الكريم،
وذلك لتعلقه بنص القرآن وكلماته وحروفه، فمن حازه تَحَصَّلَ له ما لا
يُحْصَى من الأحكام والمعاني واللغات ؛ فهو غاية في نفسه ووسيلة إلى علوم
أخرى .

ولقد تعددت المؤلفات في علم القراءات وتنوعت ؛ فمنها الكتب
والشروح المطولة، ومنها الرسائل والأجزاء المختصرة . ومن جملة ذلك
الرسالة النفيسة التي ألفها الشيخ علي بن مُحَسَّن الصَّعِيدِي المعروف
بالرُّمَيْلِي رحمه الله (ت : بعد ١١٣٠ هـ) بعنوان "الدرر الحسان في حل
مشكلات قوله تعالى ﴿أَلَكُنْ﴾" ، والتي لا تزال مع أهميتها مخطوطة، وقد

عقدت العزم - بإذن الله - على تحقيقها وإخراجها إخراجاً علمياً يليق بقيمتها الكبيرة ؛ خاصة وقد توفرت لي نسخها الخطية، وقد قسمت البحث إلى قسمين ؛ الأول : التعريف بالمؤلف والكتاب . والثاني: تحقيق النص .

أهمية البحث .

تكمن أهمية البحث في أهمية الكتاب المحقق وقيمته العلمية ويتضح ذلك بما يأتي :

١ - ضَمَّنَ في الكتاب رسالتان نادرتان في علم القراءات ؛ الأولى :

"الإعلان في مسألة ﴿ءَأَلْتَنَ﴾" لابن الجزري رحمه الله، والثانية

:"فتح الكبير المتعال بشرح مُذهبة الإشكال عن بعض كلام ذي

الجلال" لشمس الدين البقري رحمه الله.

٢ - كتاب "الدرر الحسان في حل مشكلات قوله تعالى ﴿ءَأَلْتَنَ﴾" جمع

مصادر متعددة ومتنوعة قديمة وحديثة لبيان كيفية تلاوة بعض

الآيات .

٣ - هذا الكتاب تطرق لأبواب مهمة من أبواب التجويد والقراءات؛

مثل: الهمز والتسهيل والمد والقصر وغيرها .

٤ - أن هذا الكتاب فَصَّلَ على وجه الخصوص - في حكم تلاوة كلمة

شريفة في آيتين كريمتين هما قوله تعالى ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ﴾

﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾^(١)، وقوله تعالى فيها ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ

(١) سورة يونس آية رقم ٥١ .

عَصِيَّتْ ^(١)، كما فصل في غيرها من كلمات القرآن .

٥ - مؤلف الكتاب عالم محقق مشارك في جملة من العلوم والمعارف ومنها علم القراءات.

أهداف البحث .

١ - إخراج كتاب "الدرر الحسان في حلّ مشكلات قوله تعالى

﴿أَلَكُنْ﴾" إخراجاً علمياً وفق قواعد التحقيق العلمي المتبعة .

٢ - خدمة النص بالتعليق والتوضيح عند الحاجة بما يقرب الكتاب إلى القارئ الكريم .

٣ - التعريف بمؤلف الكتاب، وتسليط الضوء على حياته ومؤلفاته .

٤ - دراسة الكتاب، وبيان مزاياه، ومنهج مؤلفه فيه .

إجراءات البحث والتحقيق .

١ - التعريف بالمؤلف وبحياته، ثم التعريف بالكتاب ونسخه، وإثبات نسبته إلى مؤلفه .

٢ - نسخ المخطوط من النسخة (أ)، ثم مطابقتها بالنسختين

(ب) و(ج)، واختيار الصحيح، وإثباته في المتن، والإشارة في

الهامش إلى ما في النسختين .

٣ - تحرير النص بكتابته حسب القواعد الإملائية الحديثة مع استخدام

علامات الترقيم حسبما تقتضيه الحاجة .

(١) سورة يونس آية رقم ٩١ .

- ٤- كتابة الآيات بالرسم العثماني الموافق لقراءة حفص، ووضع الآيات القرآنية بين قوسين هكذا ﴿...﴾ مع الإشارة في الهامش إلى رقم الآية واسم السورة .
- ٥- ضبط ما يحتاج إلى ضبط من كلمات النص؛ مع إصلاح ما يقع فيه من أخطاء نحوية .
- ٦- ضبط الأبيات الشعرية بالشكل، وتخرجها من مظانها من الدواوين أو المنظومات، وإكمال البيت من الحاشية إذا لزم الأمر .
- ٧- التعريف بأعلام الكتاب تعريفا موجزا .
- ٨- تخريج القراءات من مصادرها ومظانها .
- ٩- الاستدراك على المؤلف في بعض آرائه في مسائل القراءات .
- ١٠ - الإشارة في الهامش إلى المصادر التي نقل منها المؤلف، وذلك بذكر الجزء والصفحة.
- ١١- شرح الألفاظ الغريبة في الكتاب والتعريف بمصطلحات القراء .
- ١٢ - ختم البحث بمجموعة من الفهارس العلمية المتنوعة .

القسم الأول : التعريف بالمؤلف والكتاب،
وفيه مبحثان:

المبحث الأول : ترجمة المصنف .

المبحث الثاني : دراسة الكتاب .

المبحث الأول : ترجمة المصنف .

وفيه ستة مطالب :

المطلب الأول : اسمه ونسبه وكنيته .

المطلب الثاني : مولده .

المطلب الثالث : شيوخه وتلامذته .

المطلب الرابع : ثناء العلماء عليه .

المطلب الخامس : مؤلفاته .

المطلب السادس : وفاته .

المطلب الأول^(١) : اسمه ونسبه وكنيته .

هو علي بن محسن الصَّعِيدِي^(٢) الشاذلي ، الوفائي^(٣) ، المالكي ، الأزهري ، المعروف بالرُّمَيْلِي^(٤) .

وكنيته : أبو الصلاح . ولقبه : نور الدين .

المطلب الثاني : مولده .

لم أجد في المصادر التي بين يدي تاريخاً لمولده ؛ لكن بالنظر إلى تاريخ وفاة من عرفت من شيوخه يمكن القول بأنه ولد في حدود سنة (١٠٦٥هـ - ١٠٧٥هـ) .

المطلب الثالث : شيوخه وتلامذته .

لم تذكر المصادر التي اطلعت عليها أساء شيوخه ، لكنني وقفت على :

١ - محمد بن عمر بن قاسم البَقْرِي الشناوي رحمه الله ولد سنة

(١) مصادر ترجمته : هدية العارفين (٥/٧٦٥)، إيضاح المكنون (٣/٣٦٥) (٤/٦٩٨)، الحلقات المضئيات للسيد بن أحمد (١/٢٧٤) الأعلام للزركلي (٤/٣٢٣)، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (٢/٤٩٠)

(٢) الصعدي نسبة إلى الصعيد بمصر، بلاد مشهورة واسعة فيها عدة مدن .

(٣) الشاذلية : نسبة إلى طريقة من طرق الصوفية تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي . والوفائية : شعبة متفرعة عنها تنسب إلى أبي الفضل محمد بن وفاء. انظر الطرق الصوفية، عامر النجار (ص ١٦٤) المذاهب الصوفية ومدارسها، عبدالحكيم قاسم (ص ١٨، ١٩٥) فضائح الصوفية، عبدالرحمن عبدالخالق (ص ٤٩-٥٠)، أضواء على الطرق الصوفية، عبدالله إبراهيم (ص ١٣٧)

(٤) لعلها نسبة إلى موضع بمصر يسمى : رُمَيْلَة . انظر معجم البلدان (٣/٧٣) تاج العروس للزبيدي (٢٩/١٠٥)

(١٨٠ هـ)^(١)، من شيوخه: عبدالرحمن اليميني وغيره، ومن تلاميذه: الرُّمَيْلي، والمنجرة، وعبدالخالق المنوفي وغيرهم، ومن مؤلفاته: "القواعد المقررة"، و"الفوائد المحررة"، و"غنية الطالبين ومنية الراغبين"، وكلها في القراءات. توفي سنة (١١١ هـ)^(٢).

٢ - علي بن علي نور الدين أبو الضياء الشَّبرَامَلْسِي رحمه الله^(٣). ولد سنة (٩٩٧ هـ)، تعلَّم وعلم بالأزهر، فقيه شافعي مصري، وصنف كتباً منها "حاشية على المواهب اللدنية للقسطلاني". توفي سنة (١٠٨٧ هـ)^(٤).

أما تلامذته؛ فمنهم:

١ - أحمد بن مصطفى بن أحمد الزبيري المالكي الإسكندري رحمه الله. أخذ عن الرُّمَيْلي، وإبراهيم البلقطني، وأحمد الكبنكسي وغيرهم.

(١) قال الرُّمَيْلي ~: "مما قرأت به على شَيْخِي الإمام العالم العلامة مفيد الطالبين، وعمدة السالكين، صوفي أهل زمانه، وَوَحِيد عصره وَأَوَانه: محمد بن قاسم البَقْرِي الشافعي الأزهري الأشعري". انظر (ص ٣٢)

(٢) هدية العارفين (٦/ ٦١٢)، الأعلام ذكره في موضعين (٦/ ٣١٧) و(٧/ ٧)، هداية القارئ إلى تجويد كلام البارئ عبدالفتاح المصري (ص ٧١٧) انظر مقدمة كتاب غنية الطالبين للمحقق محمد معاذ مصطفى (ص ١٣-١٤)

(٣) ليس لدي دلالة أكيدة على أنه من شيوخه؛ لكن قد نقل الرُّمَيْلي عنه في هذا الكتاب، وهو معاصر له ومن بلده. قال الرُّمَيْلي: "قد نَظَم العلامة الشيخ علي الشبراملسي ما يتعلق بمذهب ورش في ﴿أَلْفَن﴾...". انظر (ص ٤٩)

(٤) خلاصة الأثر (٢/ ١٩٨)، الأعلام (٤/ ٣١٤)، هداية القارئ إلى تجويد كلام البارئ لعبدالفتاح المرصفي (ص ٧٨٣)

توفي سنة (١١٦٢هـ) ^(١).

٢- محفوظ الفوي رحمه الله، المقرئ برواق بني معمر بالجامع الأزهر.
أخذ عن الرُّمَيْلي، ومحمد بن يوسف، وأخذ عنه عبد الرحمن
الأجهوري، وعلي البدري. توفي سنة (١١٧٨هـ) ^(٢).

٣- محمد بن حسن بن محمد جمال الدين السِّمنودي الأزهري الشافعي
المعروف بالْمُنِير رحمه الله. ولد سنة (١٠٩٩هـ) أخذ عن الرُّمَيْلي،
ومحمد عقيلة، والصدّيق، وأخذ عنه إسماعيل المحلي، ومحمد
الكبير، والشنواني، ومن مؤلفاته: "رسالة في أصول القراءات"،
"رسالة في رواية حفص"، "شرح الدرة". توفي سنة (١١٩٩هـ) ^(٣).

المطلب الرابع: ثناء العلماء عليه .

قال الزركلي: "من فضلاء المالكية" ^(٤).

قال عمر رضا كحالة: "فاضل، مشارك في بعض العلوم" ^(٥).

المطلب الخامس: مؤلفاته .

١- تعطير الأنفاس بمناقب سيدي أبي الحسن الشاذلي وسيدي
العباس.

نسبه إلى الرُّمَيْلي رحمه الله كل من: إسماعيل باشا ^(١)، والزركلي ^(٢)،

(١) عجائب الآثار (٢٤٨/١)، معجم المؤلفين (٣٠٨/١)

(٢) عجائب الآثار (٣٢٨/١)، الحلقات المضيئات (٢٥٧/١)

(٣) هدية العارفين (٦٣١/١)، الأعلام (٩٢/٦)، معجم المؤلفين (٢٣٢/٣)

(٤) الأعلام للزركلي (٣٢٣/٤)

(٥) معجم المؤلفين (٤٩٠/٢)

وعمر كحالة^(٣) .

وموضوع الكتاب كما هو واضح من عنوانه في مناقب أبي الحسن الشاذلي، وقد قسمه إلى: مقدمة، وأربعة أبواب، وخاتمة . وهو لا يزال مخطوطاً^(٤) .

٢- المنح الإلهية بشرح الدرة المضية في علم القراءات الثلاثة المرضية .
نسب هذا الكتاب له السيد بن أحمد^(٥) . والكتاب ما زال مخطوطاً^(٦) .

٣- نيل المرام بوقف حمزة وهشام^(٧) .

٤- الدرر الحسان في حل مشكلات قوله تعالى ﴿لَقَدْ﴾ . وسيأتي الكلام عليه مفصلاً في المبحث الثاني .

(١) هدية العارفين (٥/ ٧٦٥)

(٢) الأعلام للزركلي (٤/ ٣٢٣)

(٣) معجم المؤلفين (٢/ ٤٩٠)

(٤) يوجد منه نسخة خطية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية برقم (١٣٢١)

(٥) الحلقات المضيئات (١/ ٢٧٤)

(٦) له ثلاث نسخ خطية، انظر الفهرس الشامل - قسم القراءات - (٢/ ٥٦٨)

(٧) حقق وقدم رسالة ماجستير لكلية التربية الأقسام الأدبية الرياض - السعودية بتحقيق الباحثة سميرة الناصر .

المطلب السادس : وفاته .

اتفق أكثر من ترجم له على أن وفاته كانت بعد سنة (١١٣٠ هـ)^(١) .
وذكر عمر كحالة أنه توفي في العام نفسه أي سنة (١١٣٠ هـ)^(٢)، ولعله
قال ذلك من باب الاختصار .

(١) هدية العارفين (٥/ ٧٦٥)، الأعلام للزركلي (٤/ ٣٢٣)، الحلقات المضيئات (١/ ٢٧٤)

(٢) معجم المؤلفين (٢/ ٤٩٠)

المبحث الثاني : دراسة الكتاب،

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : إثبات نسبة الكتاب إلى مؤلفه .

المطلب الثاني : تحقيق اسم الكتاب .

المطلب الثالث : منهج المؤلف في كتابه .

المطلب الرابع : مصادر الكتاب .

المطلب الخامس : وصف النسخ الخطية .

المطلب الأول : إثبات نسبة الكتاب إلى مؤلفه .

كتاب " الدرر الحسان في حل مشكلات قوله تعالى ﴿أَلْقَنَ﴾ " ثابت النسبة إلى علي بن محسن الصعيدي الرُّمَيْلي رحمه الله بأدلة ؛ منها ما يأتي:

١ - نسبه إليه كل من : عمر رضا كحالة ^(١) ، و السيد بن أحمد ^(٢) ، و إسماعيل باشا . وقال -زيادة في إثبات النسبة- : "أولها: الحمد لله الذي خص أوليائه بحفظ كتابه المصون... " ^(٣) . وهذه هي بداية الكتاب ^(٤) .

٢ - وجود اسم المؤلف كاملا على صفحة العنوان في النسختين الخطيتين ^(٥) .

٣ - وجود اسم المؤلف كاملا في بداية الكتاب المخطوط ؛ حيث يقول المؤلف بعد المقدمة : "فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه : أبو الصَّلاح عليُّ نور الدين بن محسن الصَّعيدي المالكي الوفائي الأزهري : سألني بعض إخواني أن أجمع رسالةً في بعض مشكلات... " ^(٦) .

٤ - ذَكَرَ الكتاب بعضُ أصحاب الفهارس منسوباً إلى علي بن محسن الرُّمَيْلي رحمه الله ^(٧) .

(١) معجم المؤلفين (٢/ ٤٩٠)

(٢) الحلقات المضيئات للسيد بن أحمد (١/ ٢٧٤)

(٣) إيضاح المكنون (٣/ ٤٦٥)

(٤) انظر (ص ٣١)

(٥) انظر (ص ٣٠)

(٦) انظر (ص ٣١)

(٧) فهرسة المكتبة الأزهرية (١/ ٨٢) وفيه : تلميذ الشيخ البكري ومن رجال القرن الثاني عشر

- ولا يفوتني في هذا المقام أن أثبت نسبة كتاب (الإعلان عن مسألة ﴿ءَالْفَنَ﴾) إلى الإمام ابن الجزري رحمه الله بأدلة منها ما يأتي :
- ١ - أشار ابن الجزري رحمه الله في كتابه المشهور "النشر في القراءات العشر" - باب قواعد مهمة في المد- إلى هذا الكتاب حيث قال :
المسألة السابعة ؛ تحرير المسائل كلمة ﴿ءَالْفَنَ﴾ ... ولي فيها إملاء قديم لم أبلغ فيه هذا التحقيق " (١) .
 - ٢ - ذكر الكتاب الرُّمَيْلي الصعيدي رحمه الله في كتابه (الدرر الحسان في حلّ مشكلات قوله تعالى ﴿ءَالْفَنَ﴾) منسوباً إلى ابن الجزري رحمه الله حيث قال : "قال الشيخ العالم العلامة محمد بن الجزري في رسالته المسماة بـ ((الإعلان في مسألة ﴿ءَالْفَنَ﴾)) : كان الأصل فيها... " (٢) .
 - ٣ - وجود اسم المؤلف على صفحة العنوان في النسخة الخطية .
 - ٤ - وجود اسمه كاملاً في بداية الكتاب المخطوط حيث جاء فيه ما نصه : "بسم الله الرحمن الرحيم قال شيخنا، وسيدنا؛ الحاذق، الماهر، العلامة: شمس الملة والدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد الجزري الشافعي رحمة الله تعالى عليه: أما بعد؛ حمداً لله فاتح المغلقات... فهذه ((الإعلان في مسألة ﴿ءَالْفَنَ﴾)) إذ كانت مسألة صعبة المسلك.. " (٣) .

= الهجري . وانظر الفهرس الشامل -مخطوطات التجويد- (٢/٤٣٧)

(١) النشر (١/٣٥٩) .

(٢) انظر (ص ٣٢) .

(٣) نسخة (ج) وانظر (ص ٣٢) .

٥- ذَكَرَ الكتاب بعضُ أصحاب الفهارس والرسائل العلمية التي درست حياة ابن الجزري رحمه الله ومؤلفاته ونسبوه إليه ^(١).

(١) انظر: الفهرس الشامل - التجويد - (٢/ ٤٣٧)، وفهرست مخطوطات مكتبة الجامع بصنعاء (١/ ٧٤)، و"الإمام شمس الدين ابن الجزري فهرس مؤلفاته ومن ترجم له" محمد مطيع (ص ٣٢)، والنشر في القراءات العشر، دراسة وتحقيق محمد بن محفوظ الشنقيطي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى (ص ٣٠)، و"منهج ابن الجزري في كتابه النشر مع تحقيق قسم الأصول" سالم محمد الشنقيطي، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (ص ١٠٢)، و"الإمام ابن الجزري وجهوده في علوم القراءات"، عزيزة اليوسف، رسالة دكتوراه جامعة الملك سعود (ص ٢٦٢)، "الإمام ابن الجزري وأثره في علم القراءات" رسالة دكتوراه، رابح دفرو، الجزائر (ص ١٨٦)

المطلب الثاني : تحقيق اسم الكتاب .

اسم الكتاب هو: (الدرر الحسان في حَلِّ مشكلات قوله تعالى ﴿ءَالْفَن﴾) كما سماه به مؤلفه حيث قال: "... وسميتها ((الدرر الحسان في حَلِّ مشكلات قوله تعالى ﴿ءَالْفَن﴾))" ^(١)، وكذا ورد في "هدية العارفين" ^(٢). مع التنبيه أنه قد ورد كذا في النسخة الأولى، وأما في النسخة الثانية فورد: ((الدرر الحسان في مشكلات قوله تعالى ﴿ءَالْفَن﴾)) أي بدون لفظ (حَلِّ) ^(٣). وسماه إسماعيل باشا - في موضع آخر - وعمر رضا كحالة بـ "الدرر الحسان في حَلِّ مشكل قوله تعالى ﴿ءَالْفَن﴾" ^(٤). بلفظ "مشكل" بدلا من "مشكلات".

أما كتاب ابن الجزري رحمه الله فاسمه هو: ((الإعلان عن مسألة ﴿ءَالْفَن﴾)). وقد ورد هذا العنوان في بداية المخطوط يقول ابن الجزري رحمه الله: "فهذه ((الإعلان في مسألة ﴿ءَالْفَن﴾)) إذ كانت مسألة صعبة المسلك..." ^(٥). وكذا سمي الكتاب بهذا العنوان الرَّمِيْلِي الصعدي رحمه الله؛ حيث قال: "... في رسالته المسماة بـ ((الإعلان في مسألة

(١) انظر (ص ٣٢)

(٢) (٥/ ٧٦٥)، وانظر فهرسة المكتبة الأزهرية (١/ ٨٢)

(٣) انظر (ص ٣٢)

(٤) هدية العارفين (٤/ ٦٩٨)، معجم المؤلفين (٢/ ٤٩٠)

(٥) انظر (ص ٣٢)

﴿أَلَيْسَ﴾^(١).

وقد ورد عند بعض أصحاب الفهارس والرسائل العلمية التي درست حياة ابن الجزري رحمه الله ومؤلفاته باسم: (مسألة ﴿أَلَيْسَ﴾)^(٢).

(١) انظر (ص ٣٢)

(٢) الفهرس الشامل - التنجويد - (١/١٦٦)، فهرست مخطوطات مكتبة الجامع الكبير بصنعاء (١/٧٤)، شيخ القراء الإمام ابن الجزري محمد مطيع (ص ٣١)، الإمام ابن الجزري وجهوده في علوم القراءات عزيزة اليوسف - رسالة دكتوراه جامعة الملك سعود (ص ٢٦٢)، الإمام ابن الجزري وأثره في علم القراءات رسالة دكتوراه رابح دفرو - الجزائر (ص ١٨٦)

المطلب الثالث : منهج المؤلف في كتابه .

لقد ورد لفظ ﴿ءَالْتَنَ﴾ في موضعين من القرآن الكريم، وهي لفظة اجتمعت فيها أحكام متعددة متداخلة، ففسر أداؤها وشق فهمها ؛ خاصة إذا جاءت مع مد البدل وأحكامه الثلاثة^(١)، وحكم النقل لورش وأبي جعفر، وأحكام العارض للسكون لجميع القراء . قال أبو الحسن الصفاقسي: "وفي هذه الكلمة على رواية الأزرق صعوبة وغموض، لاسيما إن ركبت مع (آمتهم)، ولهذا زلت فيها أقدام كثير من فحول الرجال فضلا عن غيرهم"^(٢) .

وخلاصة ما يكون عليه هذا اللفظ أن ورشا قرأ بإبدال همزة الوصل ألفاً وبتسهيلها؛ لوقوعها بين همزة الاستفهام واللام الساكنة كبقية القراء العشرة؛ إلا أنه قرأ بنقل حركة الهمزة الثانية إلى اللام، أي حرك اللام بالفتح وحذف الهمزة على قاعدته في باب نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها . ثم تنازع أهل الأداء في مقدار المد الأول؛ لتحرك اللام ؛ فاختلفوا في ذلك وما يتفرع عليه اختلافا كبيرا في أوجه متعددة . وكل هذه الأوجه تناولها وفصلها الرَّمَلِيُّ رحمه الله، وقبله ابن الجزري رحمه الله في رسالته : (الإعلان في مسألة الآن)، وفي كتابه "النشر"^(٣)، وبيننا ما تجوز به

(١) وهي : القصر والتوسط والإشباع .

(٢) غيث النفع (٢/ ٦٩١)

(٣) انظر النشر (١/ ٣٥٧-٣٥٩). وقد اهتم بعض العلماء -غير ابن الجزري والرميلي- بهذه اللفظة

القراءة وما به تمتنع.

وقد ابتدأ الرَّمِيلِي رحمه الله كتابه بذكر سبب تأليفه له، وهو سؤال بعض إخوانه وأحبابه له أن يكتب رسالة في بيان مذاهب القراء في تلاوة قوله تعالى ﴿ءَأْتَيْنَا﴾ وفي غيرها من الآيات. حيث قال: "سألني بعض إخواني أن أجمع رسالة في بعض مشكلات قوله تعالى في سورة يونس ﴿أَتَمُّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَأْمَنُكُمْ بِهِ ءَأْتَيْنَا وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾^(١)، وقوله تعالى فيها أيضا ﴿ءَأْتَيْنَا وَقَدْ عَصَيْتَ﴾^(٢)، وما فيهما من الأوجه للقراء السبعة والعشرة، وكذلك آيات الاستفهام في بعض سور القرآن ..."^(٣).

وقد قرأت الكتاب كثيراً، ووجدت الرَّمِيلِي رحمه الله قد أحاط بجمل مسائل قوله تعالى ﴿ءَأْتَيْنَا﴾، وتميز عرضه بتوجيه الأقوال وحسن ترتيبها،

= ؛ فكتبوا حولها، وحرروا أوجه القراءة بها، وأفردوها بالتأليف، قال ابن الجزري: "ولغيري عليها أيضا كلام مفرد بها". النشر (١/٣٥٩) ومن هؤلاء: محمد بن محمد المغربي السوسي، له منظومة بعنوان "غاية البيان في خفي لفظة (الآن)"، ومنها نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية برقم (٧٧). انظر غيث النفع في القراءات السبع (١/٧٦) (٢/٦٩٢-٦٩٥)، والشيخ حسن الكتبي له منظومة فيها أيضا. انظر مختصر بلوغ الأمانة (ص ٣٣). وكذلك شرح مذاهب القراء في كيفية نطقها شرحا موسعا أبو الحسن الصفاقسي في "غيث النفع" (٢/٦٩١-٧٠٠)، وكذلك صنع الإمام المتولي في منظومتيه (الآن) الكبرى و(الآن) المختصرة. انظر الإمام المتولي وجهوده في علم القراءات (ص ٢٠٩-٢١٣)

(١) آية رقم ٥١.

(٢) آية رقم ٩١.

(٣) (ص ٣١-٣٢)

واهتم ببيان سبب اختلاف القراء.

وقد فصل المؤلف على وجه الخصوص في بيان جميع أوجه الآية التي وردت فيها الكلمة للقراء وصلا ووقفا من طريق العشرة الكبرى (طَيِّبَةُ النُّشْرِ)، والصغرى (الشَّاطِئَةُ وَالذُّرَّةُ)، وهذا ما يندر التفصيل فيه، وهي ميزة عند المؤلف .

ومما يميز الكتاب أن المؤلف قد جمع بين ما أورده ابن الجزري في كتابه "النشر في القراءات العشر" مع ما ذكره في رسالته "الإعلان عن مسألة ﴿ءَالَفَنَ﴾"، وذلك أن ما فيه الرسالة كان قد كتبه ابن الجزري في وقت متقدم ؛ فحرر، وعدل، وفصل أكثر في كتاب "النشر" يقول : "فخذ تحرير هذه المسألة بجميع أوجهها وطرقها وتقديراتها، وما يجوز فيها، وما يتمتع ؛ فلست تراه في غير ما ذكرت لك، ولي فيها إملاء قديم لم أبلغ فيه هذا التحقيق، ولغيري عليها أيضا كلام مفرد بها ؛ فلا يعول على خلاف ما ذكرت هنا" ^(١) . فجاء الرُّمَيْلِي ؛ فمزج بترتيب بديع بين ما في الكتابين، واستدرك بما في "النشر" ما ليس في رسالة (الإعلان عن مسألة ﴿ءَالَفَنَ﴾) .

كما ضمن الرُّمَيْلِي رأْيَ واختيار شيخه العلامة شمس الدين البقري في هذه المسألة، وذلك بطريقتين :

الأولى : من خلال قراءة رسالة الرُّمَيْلِي "الدرر الحسان" عليه وإقرارها،

(١) النشر (١/٣٥٩)

قال: "وقد قرأتها على شيخنا - حفظه الله تعالى - ؛ فاستحسنها" ^(١).
الثانية : من خلال تضمين كتاب البكري الموسوم بـ "فتح الكبير المتعال بشرح مُذهبة الإشكال عن بعض كلام ذي الجلال" فيها .
ومما يلاحظ على منهجية المؤلف أني رأيته في بعض المواطن يذكر جميع الأوجه في الآية دون تمييز بين الطرق، وهذا لا إشكال فيه لو كانت الطرق متفقة ؛ لكن الذي استوقفني وجود بعض الأوجه الممنوعة من الطرق الأخرى وقد تركها دون تمييز، ومن ذلك عندما ذكر أن لورش على التوسط في (آمتهم) مد وتوسط وقصر في الألف الواقعة بعد همزة الاستفهام في ﴿ءَاكُنْ﴾ . والتوسط في ألف ﴿ءَاكُنْ﴾ غير وارد من طريق الشاطبية ؛ بل الواردُ فيها وجهها المد والقصر دون التوسط . والتوسط وجه محتمل من غير هذا الطريق كما ذكر ذلك عندما نقل قول الجزري : (توسطه ولا أعلمه عن أحد بالنص) ^(٢) . ومثل هذا يقال حين قال: (وذلك أن لك في مد الألف بعد همزة الاستفهام المد والتوسط والقصر) ^(٣)، فالتوسط غير وارد من طريق الصغرى . فهل أراد المؤلف الجمع بين الكبرى والصغرى، وهل يصح هذا الأسلوب ؛ مع أن المؤلف قد يفصل في بعض المواضع بين ما جاء من طريق (الشاطبية) و(الدُّرَّة) وما جاء من طريق (طَبَّية النشر) ^(٤) .

(١) (ص ٦٥)

(٢) (ص ٤٣)

(٣) (ص ٤٦)

(٤) انظر مثلاً (ص ٤٨)

ومما يجب التنبيه عليه أن المؤلف لم يقتصر على شرح مذاهب القراء في كيفية نطق قوله تعالى ﴿ءَالْكَنْ﴾ ؛ بل عرض اختلافهم في آيات أخرى وهي :

١ - قوله تعالى ﴿قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ﴾ [الأنعام ١٤٣، ١٤٤].

٢ - قوله تعالى ﴿بِهِ السَّحَرُ﴾ [يونس ٨١].

٣ - آيات الاستفهام المتكرر.

٤ - قوله تعالى ﴿هَآأَنْتُمْ﴾ [آل عمران ٦٦ وغيرها].

٥ - أحكام (سَوَاءَات) [الأعراف ٢٠ وغيرها].

٦ - قوله تعالى ﴿وَالَّتِي﴾ [الأحزاب ٤، والمجادلة ٢].

المطلب الرابع : مصادر الكتاب .

اعتمد الرُّمَيْلي رحمه الله في كتابه (الدرر الحسان في حل مشكلات قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ﴾) على ثلاثة مصادر أساسية هي :

أولاً : الإعلان في مسألة ﴿أَلَيْسَ﴾ .

وهي رسالة قصيرة لابن الجزري رحمه الله ضمنها الرُّمَيْلي رحمه الله كاملة في كتابه حيث قال : "قال الشيخ العالم العلامة محمد بن الجزري في رسالته المسماة بـ ((الإعلان في مسألة ﴿أَلَيْسَ﴾)) : كان الأصل فيها...^(١) . وقال في نهاية النقل : "... ويحتمله كلام صاحب ((العنوان)) أيضاً. انتهى كلام الشمس بن الجزري رحمه الله تعالى"^(٢) .

ثانياً : النشر في القراءات العشر .

يذكر الرُّمَيْلي رحمه الله في نهاية بعض الفقرات قوله : (انتهى من "النشر")^(٣) أو (ذكره في "النشر")^(٤) .

ثالثاً : فتح الكبير المتعال بشرح مُذهبة الإشكال عن بعض كلام ذي الجلال^(٥) لمحمد بن القاسم البقري الشافعي رحمه الله .

(١) انظر (ص ٣١)

(٢) انظر (ص ٤٤)

(٣) انظر (ص ٥٩)

(٤) انظر (ص ٥٦)

(٥) في الأعلام (٧/٧) ورد الكتاب باسم : (فتح الكبير المتعال في حل بعض مشكلات الآيات) .

وهي رسالة لطيفة أثنى الرُّمَيْلي رحمه الله عليها، وبين مدى استفادته ونقله منها ؛ حيث قال : "مما قرأت به على شيخني الإمام... محمد بن قاسم البَقْرِي الشافعي الأزهري الأشعري... ولقد أجاد شيخنا... في رسالته المسماة بـ ((فتح الكبير المتعال بشرح مُذهِبة الإشكال عن بعض كلام ذي الجلال)). فأوضح مشكلات هذه الآية الشريفة... فهي رسالة جليّة المقدار ؛ لم يُسَبَقْ إلى مثلها في قطر من الأقطار ... وها أنا أعترف من بعض بحرهِ ... وأخذت بعضاً من فوائد هذه الرسالة العظيمة، والدرّة الغويصة اليتيمة" ^(١).

كما أن من مصادر هذا الكتاب والكتب الثلاثة ما يأتي :

١- التذكرة في القراءات الثمان، لابن غلبون رحمه الله (ت : ٣٩٩هـ) ^(٢).

٢- الهادي، لأبي عبدالله بن سفيان رحمه الله (ت : ٤١٥هـ) ^(٣).

٣- الهداية وشرحها، للمهدوي رحمه الله (ت : ٤٣٠هـ) ^(٤).

(١) انظر (ص ٤٤-٤٥)

(٢) طبع الكتاب بتحقيق أيمن بن رشدي سويد في جدة، وأصله رسالة ماجستير في جامعة أم القرى (١٤١٠هـ).

(٣) حققه الدكتور يحيى الغوثاني، رسالة دكتوراه في جامعة أم درمان بالسودان . وسيرى النور قريباً بإذن الله، وله صورة في مركز الملك فيصل برقم (٨٦٥٠).

(٤) (شرح الهداية) حقق مرتين من قبل حازم بن سعيد حيدر، وطبع في مكتبة الرشد في الرياض، وقد طبع طبعة جديدة في دار عمار في عمان . وحقق في جامعة بغداد كلية الآداب من قبل الدكتور سالم قدوري الحمد .

٤ - التبصرة في القراءات السبع، لمكي بن أبي طالب رحمه الله (ت ٤٣٧هـ) ^(١).

٥ - التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني رحمه الله (ت: ٤٤٤هـ) ^(٢).

٦ - التذكار في القراءات العشر، لأبي الفتح عبدالواحد بن شيطا رحمه الله (ت: ٤٤٥هـ).

٧ - الوجيز في شرح قراءات القراء الثمانية أئمة الأمصار الخمسة، لأبي علي الحسن الأهوازي رحمه الله (ت: ٤٤٦هـ) ^(٣).

٨ - العنوان في القراءات السبع، لأبي الطاهر إسماعيل بن طاهر بن خلف رحمه الله (٤٥٥هـ) ^(٤).

٩ - الكامل في القراءات الخمسين، لأبي القاسم الهذلي رحمه الله (ت: ٤٦٥هـ).

(١) حقق الكتاب وطبع أكثر من مرة، والطبعة الأولى بتحقيق محمد محيي الدين رمضان، ونسخة حققت في الهند.

(٢) حقق هذا الكتاب عدة مرات، أولها بعناية المستشرق أوتوبريلز، وطبع في مطبعة الدولة في إستنبول سنة ١٩٣٠م لجمعية المستشرقين الألمانية. وحقق أيضا في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، رسالة ماجستير مقدمة من الطالب خلف الشغلي.

(٣) حقق من قبل دريد حسن أحمد، رسالة ماجستير في جامعة بغداد، وطبع في دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٤) مطبوع بتحقيق الدكتور زهير زاهد، ونشر في مكتبة عالم الكتب. وقد حقق في رسالة ماجستير في جامعة أم القرى للطالب عبدالمهيمن طحان (١٤٠٢هـ).

١٠ - الكافي في القراءات السبع، لأبي عبدالله بن شريح رحمه الله (ت: ٤٧٦هـ) ^(١) .

١١ - المستير في القراءات العشر، لأبي طاهر أحمد بن علي بن سوار رحمه الله (ت: ٤٩٦هـ) ^(٢) .

١٢ - تلخيص العبارات بلطف الإشارات في القراءات السبع، لابن بليمة رحمه الله (ت ٥١٤هـ) ^(٣) .

١٣ - التجريد لبغية المريد في القراءات السبع، لأبي القاسم عبدالرحمن بن أبي بكر المعروف بابن الفحام رحمه الله (ت: ٥١٦هـ) ^(٤) .

١٤ - إرشاد المبتدي وتذكرة المنتهي، لأبي العز القلانسي رحمه الله (ت: ٥٢١هـ) ^(٥) .

١٥ - المبهج في القراءات الثمان وقراءة الأعمش وابن مئصن واختيار

(١) مطبوع ، وقد حقق في رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، للطالب سالم غرم الله الزهراني (١٤١٩هـ)، وحققته أيضاً إيمان صالح مهدي عباس، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٤١٧-١٩٩٦ .

(٢) حققه عمار الددو، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٩م . وصدر عن دار البحوث للدراسات الإسلامية بدبي للمحقق نفسه . وحققه أحمد طاهر أويس، رسالة ماجستير، في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

(٣) مطبوع بتحقيق سبيع حمزة حاكمي .

(٤) تحقيق الدكتور ضاري إبراهيم العاصي، وطبع في دار عمار في عمان، وحقق في رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية لطالب مسعود أحمد إلياس (١٤٠٨هـ) .

(٥) حقق في جامعة أم القرى، رسالة ماجستير، للطالب عمر حمدان الكبسي (١٤٠٣هـ) وطبع للمحقق نفسه .

خلف واليزيدي، لأبي محمد سبط ابن الخياط رحمه الله
(ت: ٥٤١هـ) ^(١).

١٦ - حرز الأمانى ووجه التهاني المعروفة بـ "الشاطبية". تأليف
القاسم بن فيره بن خلف الشاطبي رحمه الله (ت: ٥٩٠هـ) ^(٢).

١٧ - كتاب الإعلان، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل الصفراوي
رحمه الله (ت: ٦٣٦هـ) ^(٣).

١٨ - فتح الوصيد شرح القصيد، للسخاوي (ت: ٦٤٣هـ) ^(٤).

١٩ - شرح الشاطبية للجعبري رحمه الله (ت: ٧٣٢هـ). واسمه كنز
المعاني ^(٥).

٢٠ - إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة،
للبقاقي رحمه الله (ت: ٨٤٩هـ) ^(٦).

(١) حقق في جامعة الإمام محمد بن سعود، رسالة دكتوراه، عبدالعزيز السبر (١٤٠٢هـ). وكذلك

حقق في جامعة أم القرى، رسالة دكتوراه، للطالبة وفاء قزمار (١٤٠٥هـ).

(٢) حققت مرارا وطبعت، ومن أفضل النسخ المطبوعة منها حاليا تلك التي اعتنى بها الشيخ المقرئ
محمد تميم الزعبي.

(٣) حقق في الجامعة الإسلامية من قبل الطالب سناء أحسن أندونيسي.

(٤) طبع الكتاب بتحقيق كل من الدكتور مولاي محمد الإدريسي الظاهري، وأصله رسالة دكتوراه،
كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط. وطبعه أيضا الدكتور أحمد عدنان الزعبي، وأصله
رسالة دكتوراه في جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، السودان.

(٥) انظر "الجعبري ومنهجه في كنز المعاني شرح حرز الأمانى ووجه التهاني مع تحقيق نموذج من
الكنز" للأستاذ أحمد اليزيدي.

(٦) طبع بتحقيق أحمد بكري، دار عمار للنشر والتوزيع، وطبع بتحقيق الدكتور فرحات عياش، دار
المطبوعات الجامعية، الجزائر.

المطلب الخامس : وصف النسخ الخطية .

استطعت -والله الحمد- الحصول على نسختين خطيتين لهذا الكتاب ؛ كما حصلت على النسخة الوحيدة لكتاب ابن الجزري "الإعلان في مسألة ﴿مُؤْتَنَ﴾" وإليك بيان وتفصيل هذه النسخ .

النسخة الأولى : ورمزت لها بحرف (أ) .

مكان الحفظ : مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - قسم المخطوطات برقم (٨٢) - قراءات .

عدد الأوراق : (١٧) ورقة .

عدد الأسطر : (١٧) سطرا .

نوع الخط : نسخي، وقد كتب النص بالمداد الأسود، وخطوط التنبيه بالمداد الأحمر، وكذلك بعض الكلمات .

الناسخ : عبدالرحمن بن سليم .

تاريخ النسخ : (١٢٦٤هـ) .

بداية المخطوط : الحمد لله الذي خص أوليائه بحفظ كتابه ...

ونهاية المخطوط : صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين كلما ذكرك الذاكرون .

قيمة النسخة : نقلت هذه النسخة من نسخة بخط مؤلفها وقوبلت عليها كما صرح بذلك كاتبها في نهاية المخطوط .

والنسخة يلحظ عليها أنها نسخة مصححة، وربما أكثر من مرة، وفيها

إشارات في المتن والهامش بالتعديل أو الكشط أو التصحيح، وستلاحظ ذلك جليا بإذن الله عند بيان الفروق بين النسختين في قسم التحقيق .

النسخة الثانية : ورمزت لها بحرف (ب) .

مكان الحفظ : في المكتبة الأزهرية ضمن مجموع برقم [٣٩] (٢٨٠١) ^(١)، وفي خزانة تطوان بالمملكة المغربية برقم (٣٢٨ / ١٨٥) ^(٢) . ولها صورة في الخزانة الحسنية بالرباط .

عدد الأوراق : (٧) ورقات . نسخة ضمن مجموع (٣٣-٣٩)

عدد الأسطر : (٢٣) سطرا .

نوع الخط : خط بقلم معتاد أشبه بالخط المغربي ؛ له اصطلاحاته مثل وضع نقطة واحدة تحت حرف الفاء، ونقطة واحدة فوق حرف القاف .

الناسخ : أحمد بن مسعود الكنسوسي الشويشي .

تاريخ النسخ : التاسع من شهر جمادى الأولى سنة (١١٢٠هـ) .

بداية المخطوط : الحمد لله الذي خص أوليائه بحفظ كتابه ...

نهاية المخطوط : ... صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين كلما ذكره الذاكرون وغفل عنه ذكره الغافلون .

قيمة النسخ : هي نسخة قديمة مصححة كتبها أحد تلاميذ المؤلف في زمنه، وعلى هوامشها تعليقات وتصحيحات .

النسخة الثالثة : نسخة كتاب (الإعلان عن مسألة الآن) لابن الجزري رحمه

(١) فهرس المكتبة الأزهرية (٨٢ / ١)

(٢) الفهرس الشامل - مخطوطات التجويد - (٤٣٧ / ٢)

الله، ورمزت لها بحرف (ج) .
مكان الحفظ : في الجامع الكبير في صنعاء برقم (١٥٤٩) ^(١) .
عدد الأوراق : (٤) ورقات .
عدد الأسطر : (١٤) سطرا .
نوع الخط : فارسي غير مشكول .
الناسخ : غير مذكور .
تاريخ النسخ : (١٠٢٤هـ) في البلد الحرام في رباط ربيع .
بداية المخطوط : قال شيخنا وسيدنا الحاذق الماهر العلامة محرر عقود
جواهر و أسرار السبع المثاني وشرح...
نهاية المخطوط : في اليوم التاسع شهر المحرم الحرام في البلد الحرام سنة
أربع وعشرين بعد الألف المبارك في رباط ربيع والحمد لله رب العالمين ...
قيمة هذه النسخة : هي نسخة عزيزة فريدة وحيدة فيما أعلم، وخطها سيئ
وصعب القراءة .

(١) الفهرس الشامل - مخطوطات التجويد - (١/١٦٦) فهرسة مخطوطات مكتبة الجامع الكبير
بصنعاء (٧٤/١)، شيخ القراء الإمام ابن الجزري محمد مطيع (ص ٣١)، الإمام ابن الجزري
وجهوده في علوم القراءات عزيزة اليوسف، رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود (ص ٢٦٢)،
الإمام ابن الجزري وأثره في علم القراءات، رسالة دكتوراه، رابح دفرو، الجزائر (ص ١٨٦)

صورة للصفحة الأولى من النسخة (أ)



صورة للصفحة الأولى من النسخة (ب)

صورة للصفحة الأولى من النسخة (ج)

القسم الثاني : النص المحقق

الدرر الحسان في حلّ مشكلات قوله تعالى ﴿أَلَكُنْ﴾
جمع الفقير الحقير أبي الصلاح علي نور الدين بن محسن الصعيدي
المالكي الوفائي الأزهري عفا الله عنه آمين آمين ^(١).

(١) صفحة العنوان في نسخة (أ) .

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين^(١)،

/ [أ(١/١)] [ب(١/٣٣)] الحمد لله الذي خصَّ أوليائه بحفظ كتابه المصون،
ورفع عنوان شرفهم ؛ فهم^(٢) بذكره مشغلون، وأتحفهم بعلم القراءات ؛
فهم بتيسير^(٣) طيبة نشره موفقون، وأسعدهم بحفظ كتابه ؛ فهم له مرتلون
مجودون ؛ ففازوا بحفظه ؛ فرفع قدرهم، وعلى غيرهم متشفرون ؛ فسعدوا
دنيا وأخرى، وفي الجنة يَرَقُونَ وَيَقْرُونَ^(٤)، وآمنهم من مكره ؛ فهم في حرز
أمانيه آمنون، نحمده على ما أولانا من النعم ؛ فنحن عنها بلسان الحمد
مقصرون، ونشكره شكر قوم غَدَّوا في مزيد أنعامه يرتقون^(٥)، ونشهد أن لا
إله إلا الله وحده لا شريك له^(٦) ؛ شهادة ندخرها ليوم لا ينفع فيه مال ولا
بنون، ونشهد أن سيدنا محمدا الذي أنزل عليه القرآن ؛ فأعجز الفصحاء
والبغاء، وتركهم في أمرهم متحIRON ؛ فسُعد به قوم فهم في القيامة
السابقون الأولون صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وذريته ما صاح طائر
فوق أعلى / [أ(١/١)] الغصون .

وبعد

(١) في (ب) : بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله .

(٢) (فهم) ليست في (ب) .

(٣) في (أ) : بتيسير .

(٤) في (ب) : ويقرؤون .

(٥) في (ب) : يرتعون .

(٦) (لا شريك له) غير واضحة في (ب) وكتبت بوضوح في هامشها .

فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه أبو الصَّلاح عليُّ نور الدين بن مُحسن الصَّعيدي المالكي الوفاي الأزهري : سألني بعض إخواني أن أجمع رسالةً في بعض مشكلات قوله تعالى في سورة يونس ﴿ أَتَمَرُ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ءَاكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ^(١)، وقوله تعالى فيها أيضاً ﴿ ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ ﴾ ^(٢)، وما فيها من الأوجه للقراء السبعة والعشرة، وكذلك آيات الاستفهام في بعض سور القرآن مما قرأت به على شيعي ^(٣) الإمام العالم العلامة مُفيد الطالبين، وعمدة السالكين، صوفي أهل زمانه، ووحيد عصره وأوانه : محمد بن قاسم البَقري الشافعي الأزهري الأشعري ^(٤) حفظه الله تعالى على المسلمين، ونفعنا ببركاته ^(٥) وبركات علومه في الدنيا والدين، وسميتها "الدرر الحسان في حلّ" ^(٦) مشكلات قوله تعالى ﴿ ءَاكُنْ ﴾ .

فأقول وبالله المستعان وعليه المعول والتكلان : مقدمة في تعريف همزة الاستفهام الدَّاخلة على قوله تعالى ﴿ ءَاكُنْ ﴾ .

(١) آية رقم ٥١ .

(٢) آية رقم ٩١ .

(٣) في (ب) : الشيخ .

(٤) سبقت ترجمته في مطلب : شيوخه من المبحث الأول : ترجمة المصنف (ص ٧) .

(٥) المؤلف عفا الله عنه ذو نزعة صوفية كما قدمت في ترجمته ؛ لكن ينبغي الحذر و التحرز من هذه العبارات ونحوها ؛ لأن فيها تعلق بالصالحين وتبرك بهم وهذا قد يكون وسيلة من وسائل الشرك .

(٦) (حل) ليست في (ب) .

قال الشيخ العالم العلامة محمد بن الجزري / [أ(٢/١)] في رسالته المسماة بـ "الإعلان في مسألة ﴿ءَأَلْتَنَ﴾" ^(١) : [ب(٣٣/ب)] كان الأصل فيها (أالأن) بهمزة قطع مفتوحة بعدها ألف ^(٢) وصل بعدها لام ساكنة بعدها همزة مفتوحة بعدها نون ^(٣).

وقد اختلف أهل الأداء ^(٤) في كيفية تخفيف ^(٥) همزة الوصل بعد إجماعهم على عدم ^(٦) حذفها للالتباس بالخبر، وعلى عدم تحقيقها ؛ لأنها همزة وصل ^(٧) ؛ فمن أهل الأداء من خففها بأن جعلها بَيْنَ بَيْنَ ^(٨) ؛ لانفتاحها

(١) ورد في بداية نسخة (ج) ما نصه :

((بسم الله الرحمن الرحيم قال شيخنا وسيدنا الحاذق الماهر العلامة محرر عقود جواهر و أسرار السبع المثاني وشرح (...)) ألفاظ أرباب الدقائق (...)) شمس الملة والدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد الجزري الشافعي رحمة الله تعالى عليه أما بعد : حمدا لله فاتح المغلقات ومانح أسرار العضلات والصلاة والسلام على نبيه محمد كاشف المشكلات وعالي (...)) أظلم الجهالات، فهذه ((الإعلان في مسألة الآن)) إذ كانت مسألة صعبة المسلك وعرة المدرس، وقع لغالب متأخري أهل الأداء فيها الغلط وعظم بعد (...)) لها الفرط فأقول وبالله أستعين)).

(٢) (ألف) من (أ) وألحقت فوق السطر في (ب)

(٣) في (ج) : كان الأصل فيها (أن) بهمزة قطع مفتوحة بعد ألف بعدها نون .

(٤) أهل الأداء : أئمة نقل القرآن الكريم وقراءاته وحذاقهم .

إبراز المعاني (ص ١٥١) مختصر العبارات (ص ٣٣)

(٥) في (ب) : تحقيق .

(٦) (عدم) من (أ) و(ب) وألحقت فوق السطر في (ج) .

(٧) في (ج) : قطع . وضرب عليها وكتب بعدها : وصل .

(٨) بين بين : نطق الهمزة بينها وبين حرف من جنس حركتها، فتجعل الهمزة المفتوحة بين الهمزة المفتوحة والألف وتجعل المكسورة بين الهمزة المحققة والياء الممدودة وتجعل المضمومة بين

وانفتاح ما قبلها قياساً على تخفيف ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾^(١)، وهذا مذهب أبي الطاهر إسماعيل بن طاهر^(٢) بن خلف^(٣) صاحب "العنوان"^(٤)؛ لم يذكر^(٥) غيره، وأحد الوجهين في "الكامل" و"التيسير"^(٦) و"الشاطبية"، وهو اختيار أبي عمرو عثمان بن سعيد^(٧) الداني^(٨)، قال: وهو الأوجه عندنا في تسهيل^(٩) هذه الهمزة؛ لقيامها في الشعر مقام

= الهمزة والواو الممدودة .

مختصر العبارات (ص ٣٨)

(١) سورة البقرة آية رقم ٦ .

(٢) (بن طاهر) ليست في (ج) .

(٣) إسماعيل بن خلف بن سعيد بن عمران أبو طاهر النحوي المقرئ الأنصاري .

مؤلف كتاب "العنوان" و"الاكتفاء" وغيرهما . توفي سنة (٤٥٥هـ)

معرفة القراء الكبار (٤٢٣/١) غاية النهاية (١٦٤/١) بغية الوعاة (٤٤٨/١) مقدمة

تحقيق "العنوان في القراءات السبع" الأستاذ عبدالمهيمن طحان (ص ٦٠-٧٦)

(٤) العنوان في القراءات السبع (ص ٤٦)

(٥) كذا في (ج) . وأما في (أ) و(ب) : لم يذكره .

(٦) التيسير في القراءات السبع (ص ١٤٩)

(٧) (عثمان بن سعيد) من (أ) و(ب) وألحق فوق السطر في (ج) .

(٨) عثمان بن سعيد بن عثمان أبو عمرو الداني .

ولد سنة (٣٧١هـ)، قرأ على طاهر بن غلبون وأبي الفتح فارس بن أحمد، له كتب كثيرة قيمة منها

: "جامع البيان" و"التيسير" و"المقنع" . توفي سنة (٤٤٤هـ)

معرفة القراء الكبار (٤٠٦/١) غاية النهاية (٥٠٣/١) شجرة النور الزكية (ص ١١٥) مقدمة

كتاب جامع البيان (٦/١-٣٨)

(٩) التسهيل : هو النطق بالهمزة بين همزة وحرف مد، أي جعل حرف مخرجه بين مخرج الهمزة

المحققة ومخرج حرف المد المجانس لحركتها ؛ فتجعل المفتوحة بين الهمزة المحققة والألف،

=

المتحركة، ولو كانت مبدلة من همزة ؛ لقامت فيه مقام الساكن المحض، ولو كان كذلك لانكسر هذا البيت، وهو ما أنشده ابن الأنباري ^(١) :

أَلْحَقْ إِنْ دَارَ الرَّبَابُ تَبَاعَدَتْ أَوْ انْبَتَّ ^(٢) حَبْلٌ إِنْ قَلْبُكَ طَائِرٌ

وقال آخر ^(٣) :

أَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا ابْتَغِيهِ أَمِ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَتَغَيَّنِي

/ [أ(٢/ب)] وأنشد قطرب ^(٤) جميل ^(١) :

= وتجعل المكسورة بين الهمزة والياء الممدودة، وتجعل المضمومة بين الهمزة والواو الممدودة .

إبراز المعاني (ص ١٤٦) مختصر العبارات (ص ٤٢)

ولعل المقصود بالتسهيل هنا التسهيل اللغوي الذي هو مطلق التغير وهو وارد عند علماء القراءات، ويعبر عنه أيضا كما عبر به المؤلف (تخفيف همزة الوصل) فيكون اختيار أبي عمرو الداني تخفيفها بجعلها (بين ين) الذي هو التسهيل اصطلاحا . انظر الإضاءة في أصول القراء للشيوخ علي الضباع (ص ٢٩)

(١) كتب في هامش (ج) : هو أبو بكر بن الأنباري (...) من كبار النحويين .

محمد بن القاسم بن محمد أبو بكر الأنباري البغدادي .

ولد سنة (٢٧١هـ)، روى القراءة عن إدريس بن عبد الكريم، وسمع من عبد الكريم الشذائي، له "كتاب الوقف والابتداء" وغيره . توفي سنة (٢٣٨هـ) .

تاريخ بغداد (٣/ ١٨١) معرفة القراء الكبار (١/ ٢٨٠) غاية النهاية (٢/ ٢٣٠)

والبيت لعمر بن أبي ربيعة وهو في ديوانه (ص ١٠٩) وانظر الكتاب لسيبويه (٣/ ١٣٦) شرح التسهيل (٣/ ٤٦٧) النشر (١/ ٣٧٧) .

(٢) في (ب) : أو أن نبت . وفي (ج) : أنبت .

(٣) في (ب) : الآخر . والبيت للمثقب العبدي انظر ديوانه (ص ٢١٣) . و "تأويل مشكل القرآن" (ص ١٧٦)

(٤) محمد بن المستنير النحوي أبو علي البصري .

أخذ عن سيبويه وغيره، ويقال : إنه هو الذي لقبه قطربا ؛ لمباكرته إياه في الأسحار . قال =

فقلت لها : جودي فقالت مُجِيبَةً أَلْجُدُّ هَذَا مِنْكَ أَمْ أَنْتَ هَازِلٌ
ومنهم من خففها بالبدل ^(٢) ؛ فأبدلها ألفاً محضة ؛ لأنها واجبة التخفيف
فتخفيفه ^(٣) بالبدل، وإنما خففت ^(٤) المفتوحة بعد فتح بالبدل جوازاً كـ
﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾ .

والبدل مذهب الأكثرين من النحاة وأهل الأداء، وهو الذي قرأنا
به من طريق ابنِ غَلْبُون ^(٥)، ومكي ^(٦) صاحب

- = الخطيب : وكان موثقاً فيما يحكيه . توفي سنة (٢٠٦هـ) .
- تاريخ بغداد (٣/ ٢٩٨) لسان الميزان (٥/ ٣٧٨) بغية الوعاة (١/ ٢٤٢) وانظر مقدمة كتاب
الأضداد لقرب للدكتور حنا حداد (ص ١٧-٥٥)
- (١) جميل بن عبدالله بن معمر بن صباح أبو عمرو العذري .
شاعر أموي ، من أشهر شعراء الغزل، وكان عفيفاً، حياً، ديناً . توفي سنة (٨٢هـ) وقيل بعدها .
الشعر والشعراء (١/ ٤٣٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨١) خزنة الأدب (١/ ٣٩٧)
والبيت في ديوانه (ص ١١٦)
- (٢) البدل : إقامة الألف والياء والواو مقام الهمزة عوضاً عنها .
مختصر العبارات (ص ٣٧)
- (٣) في (ج) : بتخفيفها .
- (٤) كذا في جميع النسخ . ولعل المقصود (كما خففت...) لأن المذهب في المفتوحتين : البدل
والتسهيل ؛ فيكون وجه البدل جائز، وهذا خاص لورش من طريق الشاطبية ولبعض القراء ؛
لوجود الوجه الآخر وهو التسهيل .
- (٥) طاهر بن عبد المنعم بن عبيد الله بن غَلْبُون بن مبارك أبو الحسن الحلبي .
أخذ القراءة عن والده، وقرأ عليه أبو عمرو الداني، ألف كتاب "التذكرة في القراءات الثمان" .
توفي سنة (٣٩٩هـ) .
- معرفة القراء الكبار (١/ ٣٦٩) غاية النهاية (١/ ٣٣٩) مقدمة كتاب "التذكرة في القراءات
الثمان" للأستاذ أيمن سويد (ص ٢٩-٧٠)
- (٦) مكي بن أبي طالب بن حموش بن محمد أبو محمد القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي .

=

"التبصرة" ^(١)، وأبي العباس المهدي ^(٢) صاحب "الهداية" ^(٣)، وأبي عبدالله بن سفيان ^(٤) صاحب "الهادي"، وأبي عبدالله بن شريح ^(٥) صاحب "الكافي" ^(٦)، وأبي القاسم بن القاسم ^(٧) بن الفحام ^(٨) صاحب

= ولد سنة (٣٥٥هـ). قرأ على طاهر بن غلبون وأبيه، له كتب كثيرة منها "التبصرة في القراءات السبع"، و"الكشف عن وجوه علل القراءات"، و"الهداية في معاني القرآن". توفي سنة (٤٣٧هـ).

معرفة القراء (٣٩٤ / ١) غاية النهاية (٣٠٩ / ٢)

(١) التبصرة في القراءات السبع (ص ٢٥٨، ٢٧٦)

(٢) أحمد بن عمار أبو العباس المهدي .

الإمام العلامة، قرأ على محمد بن سفيان وغيره، له مؤلفات كثيرة منها "الهداية في القراءات السبع"، و"التفصيل"، و"التحصيل". توفي سنة (٤٣٠هـ).

معرفة القراء الكبار (٣٩٩ / ١) غاية النهاية (٩٢ / ١) مقدمة كتاب "شرح الهداية" للدكتور حازم حيدر (١٠٨-٥٥ / ١)

(٣) شرح الهداية (٣٤، ٣٩ / ١)

(٤) محمد بن سفيان أبو عبدالله القيرواني .

الفقيه المالكي، عرض الروايات على أبي الطيب بن غلبون، له كتاب "الهادي". توفي عام (٤١٥هـ).

معرفة القراء الكبار (٣٨٠ / ١) غاية النهاية (١٤٧ / ٢) شذرات الذهب (٨٠ / ٥)

(٥) محمد بن شريح بن أحمد بن محمد الرعيني أبو عبدالله الأشبيلي .

ولد سنة (٣٩٢هـ)، سمع وروى كثيراً . قال ابن بشكوال : وكان من جملة المقرئين وخيارهم ؛ ثقة في روايته . له كتاب "الكافي في القراءات السبع". توفي في شوال سنة (٤٧٦هـ).

الصلة لابن بشكوال (١٥٣ / ٢) سير أعلام النبلاء (٥٥٤ / ١٨) غاية النهاية (١٥٣ / ٢) مقدمة تحقيق كتاب الكافي في القراءات السبع سالم الزهراني (ص ٣٨-٨٦)

(٦) الكافي في القراءات السبع (ص ٢١٠، ٢٣٢)

(٧) (بن القاسم) ليست في (ج) .

(٨) عبدالرحمن بن عتيق بن خلف أبو القاسم بن الفحام الصقلي .

=

"التجريد" ^(١)، والعراقيين قاطبة، وهو الوجه الثاني في "الكامل"، و"التيسير" ^(٢)، و"الشاطبية" ^(٣)، فمن لم ينقل ^(٤) حركة الهمزة بعد اللام إلى اللام الساكنة قبلها مدَّ ^(٥) على ^(٦) الألف بعد الهمزة الأولى مدّاً مشبعاً ^(٧)؛ لالتقاء الساكنين كفوائح السور، ومن نقل ^(٨) كورش ^(٩)، وقالون ^(١٠)، وأبي

- = ولد سنة (٤٢٥هـ) تقريباً، مؤلف كتاب "التجريد". توفي سنة (٥٣٦هـ).
سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٨٧) معرفة القراء الكبار (١/ ٤٧٢) غاية النهاية (١/ ٣٧٤) مقدمة تحقيق كتاب التجريد د. ضاري العاصي (ص ١١-٢٣)
- (١) التجريد لبغية المريد (ص ١٣٧)
(٢) التيسير في القراءات السبع (ص ١٤٨، ٣١٠)
(٣) الوافي شرح الشاطبية (ص ٨٨)
(٤) في (ج): فمن ينقل .
(٥) المد: إطالة الصوت بأحد حروف المد ملاقة الهمز أو السكون .
رياضة اللسان (ص ٧٤) مختصر العبارات (ص ١٠٦)
(٦) كذا في جميع النسخ، ولعل كلمة (على) مقحمة، والمعنى بدونها أوضح؛ فالمذهب لمن ينقل حركة الهمزة بعد اللام إلى اللام الساكنة قبلها مدَّ الألف بعد الهمزة الأولى مدّاً مشبعاً .
(٧) الإشباع: إتمام الحكم المطلوب في المدود الفرعية الزائدة على مقدار المد الطبيعي .
مرشد القارئ (ص ٢٧٧) مختصر العبارات (ص ٢٤)
(٨) النقل: تحويل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها مع حذف الهمزة .
إفادات العطار (ص ١٣٦) إبراز المعاني (ص ٤٢) مختصر العبارات (ص ١٢٥)
(٩) عثمان بن سعيد أبو سعيد القرشي مولاهم المصري .
الملقب بورش . ولد سنة (١١٠هـ) يروي عن نافع بن أبي نعيم . توفي بمصر سنة (١٩٧هـ) .
سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٩٥) معرفة القراء الكبار (١/ ١٥٢) غاية النهاية (١/ ٥٠٢)
(١٠) عيسى بن ميناء بن وردان بن عيسى الزرقني أبو موسى المديني .
قارئ أهل المدينة في زمانه ونحوهم، ولقب قالون لجودة قراءته . توفي سنة (٢٢٠هـ)

=

جعفر^(١) فلا يخلو إما أن يعتد^(٢) بالعارض^(٣) أو لا ؛ فإن لم يعتد بحركتها وقدر^(٤) سكونها إذ^(٥) النقل عارض وجب حينئذ مد الألف بعد همزة / [أ(٣/١)] الاستفهام مداً مشبعاً كما يجب مدها حالة عدم النقل^(٦)، وإن اعتد بحركتها قصرَ. وهذان الوجهان نص عليهما أبو الحسن / [ب(٣٤/١)] طاهر بن غلبون وغيره في ﴿لَمْ أَحَسِبْ﴾^(٧) حالة النقل، وفي ﴿لَمْ اللَّهُ﴾^(٨) حالة الوصل^(٩)، وذلك أصل مطرد عند القراء .

= سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٢٦) معرفة القراء الكبار (١/ ١٥٥) غاية النهاية (١/ ٦١٥)

(١) يزيد بن القعقاع أبو جعفر المخزومي المدني .

أحد القراء العشرة، تابعي مشهور، عرض القرآن على ابن عباس وأبي هريرة . توفي سنة (١٣٠هـ)

معرفة القراء الكبار (١/ ٧٢) غاية النهاية (٢/ ٣٨٢)

(٢) في (ب) : أما يعتد .

(٣) في (أ) : عن العارض . وكأنها عدلت إلى : بالعارض .

العارض : لغة : الشيء يحول دون شيء آخر . واصطلاحاً : ما يكون محمولا على الشيء خارجاً عنه، فالوضع الطارئ أو الحادث للكلمة أو العبارة أو التركيب يسمى عارضاً . الأصل والعارض في أحكام التجويد والقراءات د. حاتم التميمي (ص ١١)

(٤) في (ج) : بقدر .

(٥) في (أ) : إذا .

(٦) كذا في (ج)، وأما في (أ) و (ب) : حالة النقل . وما أثبت هو الصحيح يدل على ذلك ما ذكره أنفا في مذهب من لم ينقل .

(٧) سورة العنكبوت آية رقم ١- ٢ . وفي (ج) زيادة : (الناس) .

(٨) سورة آل عمران آية رقم ١- ٢ .

(٩) التذكرة في القراءات الثمان (١/ ٧١)

إذا علم ذلك ؛ فإن لورش مذهبا آخر يختص به في المد بعد الهمز، وذلك المقصود من ذكر هذه المسألة، فتقول ^(١) الأئمة الذين ^(٢) نقلوا عن ورش من باب ﴿ءَامَنَ﴾ ^(٣) و ﴿ءَاوَزَ﴾ ^(٤) وشبهه لا يخلو عندهم حرف المد الأول من ﴿ءَاكُنَ﴾ إما أن يكون واجب البدل أو جائزُهُ، فمن كان عنده جائز البدل كصاحب "التيسير" ^(٥) و "الشاطبية" فلا يجوز أن يلحق عنده بباب ﴿ءَامَنَ﴾ و ﴿ءَاوَزَ﴾ ؛ لأنه ^(٦) واجب البدل ^(٧) ؛ بل بباب ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ و ﴿ءَالِدُ﴾ ^(٨)، فإنه جائز البدل ؛ لثبوت التسهيل عندهم في القراءة الأخرى؛ فإن نظرنا إلى ما كان في الأصل قبل النقل مددناهم ^(٩) مدداً مشبعاً مثل : ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ و ﴿ءَأَنْتَ﴾ ^(١٠) حالة البدل أيضاً، وأما من كان عنده واجب البدل كما هو مذهب / [أ(٣/ب)] الجمهور من أهل الأداء فلا يجوز ^(١١) أن

(١) في (ب) : فيقول .

(٢) (الذين) ليست في (ج) .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٣ وغيرها .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٧٤ .

(٥) التيسير في القراءات السبع (ص ١٤٩)

(٦) في (ج) : فإنه .

(٧) (أو جائزه ... البدل) من (أ) و(ب) وألحقت في هامش (ج) .

(٨) سورة هود آية رقم ٧٢ .

(٩) في (ب) و(ج) : مددنا .

(١٠) سورة المائدة ١١٦ والأنبياء آية رقم ٦٢ .

(١١) في (ج) زيادة : أيضاً .

تلتحق^(١) عندهم بباب ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿ءَاذَرَ﴾ إلا على تقدير اعتدادهم بالعارض، وذلك بعد^(٢) أصل لورش ينبغي أن يُعرف، وهو أن مذهبه أن حرف المد الواقع بعد الهمزة إذا وقع بعده^(٣) همزة أو ساكن مد لأجل الهمزة والساكن ؛ لأنه أقوى ؛ فيُلغى الأضعف، وهو مده لأجل الهمزة قبله؛ لأن مد حرف المد للهمزة قبله ضعيف ومده للهمزة^(٤) بعده أو للساكن قوي، وإذا اجتمع معنا سببان ضعيف وقوي روعي الأقوى وأُلغى الأضعف، ولذلك لم يكن لورش في: ﴿ءَامِنَ﴾^(٥)، و﴿رءَا أَيَّدِيهِمْ﴾^(٦)، و﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ﴾^(٧) ونحوه ثلاثة أوجه؛ بل وجهٌ واحدٌ، وهو المد مراعاة للهمزة والساكن الذي بعد حرف المد، وله إذا وقف على ﴿رءَا﴾ و﴿وَجَاءُوا﴾ الثلاثة الأوجه التي له ؛ لزوال الهمزة التي بعدها.

فإذا عُلِمَ ذلك ؛ فإن لم يعتد بالعارض في ﴿ءَلَكُنْ﴾ وهو نقل الحركة يمد لورش مدّاً مشبعاً من / [أ(٤)/أ] أجل سكون اللام^(٨) ؛ لأن حركتها عارضة،

(١) في (أ) و(ج) : يلحق .

(٢) في (ج) زيادة : تقدير .

(٣) في (ب) : بعد .

(٤) قبله ضعيف ومده للهمزة) ليست في (ج).

(٥) سورة الأنعام آية رقم ٢ .

(٦) سورة هود آية رقم ٧٠ .

(٧) سورة يوسف آية رقم ١٦ .

(٨) في (ج) : الهمزة . وضرب عليها وكتب : اللام .

فهي على هذا التقدير مثل : ﴿أَيِّمِينَ الْبَيْتَ﴾، و﴿أَلَذَّكَرَيْنِ﴾^(١)، و﴿إِلَهِ اللَّهِ أَذُنُ﴾^(٢)، وإن اعتدنا بالعارض وإلى ما آل إليه اللفظ يكون فيه ثلاثة أوجه : فيشبعه مَنْ مذهب الإشباع، ويوسطه مَنْ مذهب التوسط، ويقصره مَنْ مذهب القصر^(٣)؛ هذا حكم الألف التي قبل اللام .

وأما الألف التي بعد اللام ؛ فإن من نقل عن ورش مد ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿ءَاذَرَ﴾ فيها على ثلاثة أقسام^(٤) : منهم من أطلق فيها المد كسائر الباب، ولم يفرق بينهما وبين غيرهما كمكي^(٥) صاحب "التبصرة"^(٦)؛ فإنه استثنى ﴿عَادَا الْأَوَّلَى﴾^(٧) / [ب(٣٤/ب)]، ولم يستثن ﴿ءَاكُنَ﴾ ومذهب الإشباع^(٨)، وكأبي عمرو الداني صاحب "التيسير"^(٩)؛ فإنه لم يستثنه مع استثنائه ﴿إِسْرَئِيلَ﴾ وغيره^(١٠)، ومذهب التوسط، ومنهم من استثناه كما استثنى غيره كأبي

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٤٣ و ١٤٤

(٢) سورة يونس آية رقم ٥٩

(٣) القصر : ترك الزيادة في المد .

إبراز المعاني (ص ١١٣) مختصر العبارات (ص ٩٧)

(٤) في (ج) : أوجه . وضرب عليها وكتب : أقسام .

(٥) في هامش (ب) : فمكي .

(٦) التبصرة في القراءات السبع (ص ٢٥٩)

(٧) سورة النجم آية رقم ٥٠ .

(٨) في (ج) : إشباع المد .

(٩) التيسير في القراءات السبع (ص ١٤٨)

(١٠) أبو عمرو لم يستثنها في "التيسير" ؛ لكنه استثناه في "الجامع في القراءات السبع" (٢/ ٤٨٠) .

عبدالله بن سفيان صاحب "الهادي"، وأبي عبدالله بن شريح صاحب "الكافي" ^(١)، وأبي العباس المهدي صاحب "الهداية" ^(٢)، ومنهم / [أ(٤) ب] من لم يستثنه ولا استثنى شيئاً من الباب؛ فما أجمع على استثنائه كـ ﴿الْقُرْآنُ﴾ و﴿مَسْئُولًا﴾ ^(٣) مما اختلف فيه كـ ﴿أَلَكُنْ﴾ و﴿عَادًا الْأُولَى﴾ ^(٤) كأبي الطاهر صاحب "العنوان" ^(٥)، والأهوازي ^(٦)، وابن الفحام صاحب "التجريد" ^(٧)، وأبي الحسن بن بليّمة ^(٨) صاحب

= وقد ذكر ابن الجزري أن أبا عمرو نص على الخلاف فيها في كتابه "الإيجاز" و"المفردات" النشر (٣٤١/١).

(١) الكافي في القراءات السبع (ص ٢١١)

(٢) شرح الهداية (١/٣٩)

(٣) سورة الإسراء آية رقم ٣٤ وغيرها .

(٤) الجملة غير واضحة، ولعل المراد أن منهم من لم يستثنه ولا استثنى شيئاً من الباب مما أجمع على استثنائه ولا مما اختلف فيه .

(٥) العنوان في القراءات السبع (ص ٤٣)

(٦) الحسن بن علي بن إبراهيم بن يزداد بن هرمز أبو علي الأهوازي .

ولد سنة (٣٦٢هـ) بالأهواز، قرأ على ابن شنبوذ وابن مجاهد، قرأ عليه أبو القاسم الهذلي . توفي سنة (٤٤٦هـ)

سير أعلام النبلاء (١٨/١٣) معرفة القراء الكبار (١/٤٠٢) غاية النهاية (١/٢٢٠) لسان الميزان (٢/٢٣٧) مقدمة كتاب الوجيز في شرح قراءات القراءة الثمانية أئمة الأمصار الخمسة للدكتور دريد حسن (ص ١١-٤١)

انظر الوجيز (ص ٩٨)

(٧) التجريد لبغية المريد (ص ١٣٨)

(٨) الحسن بن خلف بن عبدالله بن بليّمة أبو علي الأهوازي الملي القيراني .

ولد سنة (٤٢٧هـ)، قرأ على أبي معشر الطبري وغيره، له كتاب "تلخيص العبارات" . توفي سنة (٥١٤هـ) .

=

"التلخيص" ^(١)؛ فيحتمل لهم وجهان أن يكون ^(٢) مستثنى ^(٣) عندهم كما استثناه غيرهم، وأن لا يكون ^(٤) مستثنى عندهم ^(٥) كمن لم يستثنه. فإذا جعلناه غير مستثنى أشبعه من مذهبه الإشباع كصاحب "العنوان" و"التجريد" ووسطه من مذهبه التوسط كالأهوازي، وابن بليمة.

فحينئذ يكون حاصل ما يظهر لورش في هذه الكلمة على تقدير جواز البدل كما هو مذهب الشاطبي ^(٦)، والداني ^(٧)، ومن وافقهما، وعلى تقدير وجوب البدل على مذهب غيرهم إن لم يعتد ^(٨) بعارض في المذهبين ستة أوجه : أحدها ^(٩) : مد الأول والثاني مداً مشبعاً، وهذا الوجه طريق الشاطبي ^(١٠)،

= معرفة القراء الكبار (١/٤٦٩) غاية النهاية (١/٢١١) شذرات الذهب (٦/٦٨) مقدمة تحقيق

كتاب "تلخيص العبارات" لسبيع حاكمي (ص ٦-٧)

(١) تلخيص العبارات (ص ٢٧، ٢٨)

(٢) في (أ) : يكو. وفي (ج) : أن أن يكون.

(٣) في (ب) كتبت هكذا : مستثناً.

(٤) كذا في (ج). وأما في (أ) و(ب) : وأن يكون.

(٥) عندهم) ليست في (ب).

(٦) القاسم بن فيزّه بن خلف أبو القاسم الشاطبي الرعيني الضرير.

الإمام الكبير. ولد سنة (٥٣٨هـ)، نظم قصيدته اللامية في القراءات، والرائية في الرسم. توفي سنة (٥٩٠هـ).

معرفة القراء الكبار (٢/٥٧٣) غاية النهاية (٢/٢٠) شذرات الذهب (٦/٤٩٤)

(٧) التيسير في القراءات السبع (ص ٣١٠)

(٨) في (ج) : إن يعتد.

(٩) (أحدها) ليست في (ج).

(١٠) الوافي شرح الشاطبية (ص ٧٥)

ومكي^(١)، ويحتمل لصاحب "التجريد"^(٢)، ولا يجوز أن يكون لصاحب "العنوان" / [أ/هـ] لأن مذهبه تسهيل الأول^(٣).

الثاني: مد الأول وتوسط^(٤) الثاني طريق "التيسير"^(٥) و"الشاطبية"^(٦)، ويحتمل الأهوازي^(٧)، وابن بَلِّيمَة^(٨).

الثالث: مد الأول وقصر الثاني طريق الشاطبي أيضا^(٩)، وطريق ابن سفيان، وابن شَرِيح^(١٠)، والمهدوي^(١١)، ويحتمل الأهوازي^(١٢)، وابن بَلِّيمَة^(١٣)، وصاحب "التجريد"^(١٤).

فهذه ثلاثة أوجه مع مد الأول على تقدير جواز البدل ووجوبه نظرا للأصل وعدمه للاعتداد بالعارض.

(١) التبصرة في القراءات السبع (ص ٢٦٧)

(٢) التجريد لبغية المريد (ص ١٣٨)

(٣) العنوان في القراءات السبع (ص ٤٦). وفي (ج): الأولى.

(٤) في (ج): توسط.

(٥) التيسير في القراءات السبع (ص ١٤٩)

(٦) في (ج): طريق الشاطبية والتيسير.

(٧) الوجيز في شرح قراءات القرأة الثمانية (ص ٩٨). وفي (ج): للأهوازي.

(٨) تلخيص العبارات (ص ٢٨)

(٩) الوافي شرح الشاطبية (ص ٧٥)

(١٠) الكافي في القراءات السبع (ص ٢٢١)

(١١) شرح الهداية (٣٩/١)

(١٢) الوجيز في شرح قراءات القرأة الثمانية (ص ٩٩). وفي (ج): للأهوازي.

(١٣) تلخيص العبارات (ص ٢٨)

(١٤) التجريد لبغية المريد (ص ١٣٨) (ص ٢٣٧)

ويجوز لهم ^(١) ثلاثة أخرى عن ورش مع القصر في الأول على تقدير جواز البدل ووجوبه اعتدادا بالعارض ؛ فكل ^(٢) من مد الأول قصره مع ما له في الثاني ^(٣) .

وهذه الستة أوجه تجوز لقالون وأبي جعفر في الوقف ^(٤) ، ويظهر لورش على تقدير وجوب البدل مع الاعتداد بالعارض ثلاثة أوجه :

الأول : مدهما طريق مكّي ^(٥) ، ويحتمل لصاحب "التجريد" ^(٦) . والثاني : قصرهما طريق أبي الحسن بن غلبون ^(٧) ، ويندرج في الستة المتقدمة ^(٨) .

الثالث في اللفظ وهو التاسع / [أ/هـ/ب] في الحكم، والسابع في الواقع / [ب/هـ/أ] : توسطهما ولا أعلمه ^(٩) مذهب أحد بالنص، وإنما يحتمله ^(١٠) عبارة الأهوازي ^(١١) ، وابن بليمة ^(١٢) كما يحتمل عبارتهما الثامن

(١) في (ج) : وتحويزهم .

(٢) في (ج) : وكل .

(٣) يظهر لي - والله أعلم - أن هذا ليس على إطلاقه ؛ فالمعروف من طريق الشاطبية أنه إذا قصر في الأول، فليس له في الثاني إلا القصر .

(٤) في (ج) زيادة : ولحمة إذا وقفت كالنقل لمن مذهبه ذلك عنه .

(٥) التبصرة في القراءات (ص ٢٧٧)

(٦) التجريد لبغية المريد (ص ١٣٨)

(٧) التذكرة في القراءات الثمان (١/ ١٠٩)

(٨) في (ج) : ويتحد هذان الوجهان في الستة المتقدمة .

(٩) في (ج) : أعلم .

(١٠) في (ج) : تحتمله .

(١١) الوجيز في شرح قراءات القرأة الثانية (ص ٩٩)

(١٢) تلخيص العبارات (ص ٢٨)

في اللفظ : وهو توسط ^(١) الأول وقصر الثاني ؛ فإن قُرئَ لهما بهذا قُرئَ لهما بما قبله، وإن مُنِعَ هذا مُنِعَ ما قبله . ويبقى في القسمة العقلية تاسع ^(٢) : وهو توسط الأول وإشباع الثاني، وهذا الوجه لا أعلمه مذهب أحد بنص ولا احتمال، وكتاب الله مُنَزَه عن ذلك، والله أعلم .

فهذه الأوجه مع البديل، وأما مع التسهيل ؛ فيظهر لورش ثلاثة أوجه: المد، والتوسط، والقصر ؛ فالمد من ظاهر كلام ^(٣) الشاطبي، ويحتمله كلام صاحب "العنوان"، والتوسط طريق التيسير، وظاهر كلام الشاطبي ^(٤)، والقصر طريق ابن غلبون إن أخذ له بالتسهيل، ولم أره ذكره في كتاب "التذكرة"، ولا نقله عنه ^(٥) أحد بالتصريح، وهو ظاهر ^(٦) كلام الشاطبي، ويحتمله كلام صاحب "العنوان" ^(٧) أيضا ^(٨) . انتهى كلام الشمس ابن

(١) في (ج) : توسط . وكتب قبلها : توسطهما . وضرب عليها .

(٢) كتب قبلها في (أ) : سا . وضرب عليها

(٣) (كلام) كررت في (أ) . وضرب على الأولى .

(٤) (ويحتمله ... الشاطبي) من (ب) و(ج) وألحقت في هامش (أ) .

(٥) في (ب) : عن .

(٦) في (ج) : ومعنى ظاهر .

(٧) العنوان في القراءات السبع (ص ٤٣، ٤٦)

(٨) ورد في نهاية نسخة (ج) ما نصه :

فهذا ما تيسر إملأؤه في هذه المسألة، وفيما ذكرناه كفاية ومتسع وغنى إن شاء الله تعالى ؛ فليأخذ (...) بما ينشرح له صدره ويثلج له قلبه، وتطهر إليه نفسه قال صلى الله عليه وسلم : "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" . وقال صلى الله عليه وسلم : "استفت قلبك، وإن أفتاك الناس أو أفتوك" . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . غفر الله لكايتها ولقارئها (...)

الجزري رحمه الله تعالى .

ولقد أجاد شيخنا حفظه الله تعالى على المسلمين، وأدام النفع بعلومه وبركاته / [أ(٦/١)] في الدنيا والدين في رسالته المسماة بـ "فتح الكبير المتعال بشرح مذهب الإشكال عن بعض كلام ذي الجلال". فأوضح مشكلات هذه الآية الشريفة ونظمها بقلب فكره، وشرحها بجوهر ذهنه. فهي رسالة جليلة المقدار ؛ لم يُسبق إلى مثلها في قطر من الأقطار أدام الله عليه جزيل الإنعام، وبوآه على صنيعة دار السلام، وها أنا أعترف من بعض بحره معترفا بتقصير اللسان ؛ لأنني لست من أهل هذا الميدان الذي تجول فيه فحول الفرسان ؛ لكن لما أمدني الشيخ حفظه الله تعالى بنظره ؛ فحلت عليّ بركة من بركته ؛ فصرت ببحر عرفانه أسبح^(١)، وبفيض إمداداته^(٢) أتفتح ؛ وأخذت بعضاً من فوائد هذه الرسالة العظيمة، والدرة الغويصة اليتيمة ؛ فأقول وبالله المستعان وعليه المعول والتكلان :

قال الشيخ حفظه الله تعالى: إذا عرفت ذلك فاعلم أن نافعاً^(٣) قرأ

= والحمد لله رب العالمين في اليوم التاسع شهر المحرم الحرام في البلد الحرام سنة أربع وعشرين بعد الألف المبارك في رباط ربيع والحمد لله رب العالمين .

(١) في (أ) : أسبح .

(٢) في (أ) : امتداداته .

(٣) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم أبو رويم الليثي المدني.

أحد القراء السبعة، وإمام أهل المدينة في القراءة في عصره، قرأ على أبي جعفر وقرأ عليه قالون وورش، توفي سنة (١٦٩هـ)

وفيات الأعيان (٥/ ٣٦٨) معرفة القراء الكبار (١/ ١٠٧) غاية النهاية (٢/ ٣٣٠)

بالنقل في ﴿أَلَفْنَ﴾ بالمد والقصر / [أ(ب) / ب]، فالمد على أنه لم يعتد بالعارض،
والقصر على أنه اعتد به لكون السكون زال بالنقل، وعنه تسهيل همزة
الوصل من غير إدخال ^(١)؛ هذا كله ^(٢) على قصر ﴿أَمَنْتُمْ﴾ لورش.

أما قالون فليس له إلا ذلك / [ب(٣٥)ب] على قصر المنفصل ومده .

ثم على التوسط في ﴿أَمَنْتُمْ﴾ لورش تأتي ستة أوجه : التوسط والمد
والقصر في ألف ^(٣) (لان) ^(٤)، وكذلك الثلاثة في اللام ^(٥)، ثم بوجهي
التسهيل، وهما التوسط والقصر.

وعلى مد ﴿أَمَنْتُمْ﴾ تأتي عليه بالمد في الألف بعد همزة الاستفهام، والمد
والقصر في ألف (لا)، ثم تأتي بالقصر في الألف الكائنة بعد ^(٦) الهمزة

(١) الإدخال : مجال الألف بين همزتين التقتا لمن له الفصل بينهما .

التمهيد في علم التجويد (ص ٦٧) مختصر العبارات (ص ٧٨)

(٢) في (أ) : هذه الكلمة كله . وعدلت (هذه) إلى (هذا) وضرب على (الكلمة) .

(٣) كتبت في (أ) : الألف . وعدلت بمسح (لا) إلى : ألف .

(٤) كذا في (أ) و(ب) . وهذا يعني أن المراد الألف التي بعد اللام (لان) . ولعل الأقرب أن تكون

الألف التي قبل اللام (ءالان) ؛ لأنها لو كانت ألف (لان) لكانت هي اللام التي ذكرها بعد :

(وكذلك الثلاثة باللام)، وعبر عنها باللام تجوزا لأنه لا يُمد إلا حرف مد واللام ليست كذلك .

(٥) الأوجه الثلاثة وهي : التوسط والمد والقصر في ألف (ءالان) مع الثلاثة في اللام تحتاج إلى تحرير

أكثر فلم تتفق جميع الطرق على ذلك، وهناك خلاف فيما إذا كانت معتدا بالعارض أم لا كما نقل

المؤلف عن ابن الجزري آنفا (ص ٤٢)

(٦) في (ب) : بعده .

المذكورة والمد في ألف^(١) (لان) وقصره. فيحصل أربعة أوجه، ثم تأتي بتسهيل همزة الوصل الكائنة بعد همزة الاستفهام والمد والقصر في ألف^(٢) (لان) ؛ هذا إذا ركبت ﴿ءَالْفَنَ﴾ مع ﴿ءَامَنُكُمْ﴾.

وأما إذا وقفت على ﴿يَدِ﴾؛ فلك في ﴿ءَالْفَنَ﴾ على وجه الإبدال ستة أوجه، وذلك أن لك^(٣) في مد الألف بعد همزة الاستفهام المد والتوسط^(٤) / [أ(٧/أ)] والقصر. وعلى المد يأتي في ﴿ءَالْفَنَ﴾ هذه الثلاثة، وعلى التوسط يأتي في ﴿ءَالْفَنَ﴾ توسط وقصر، وعلى القصر القصر لا غير؛ فهذه ستة أوجه. وإن^(٥) أسهلت همزة الوصل تأتي بثلاثة أوجه وهي: المد، والتوسط، والقصر في ألف ﴿ءَالْفَنَ﴾؛ فجملة الأوجه بأوجه التسهيل تسعة.

وأما إذا وقفت على^(٦) ﴿ءَالْفَنَ﴾ أي على نونها؛ فتأتي بثلاثة أوجه في همزة الاستفهام: المد والتوسط والقصر، وتأتي على مد الألف الكائنة بعد همزة الاستفهام بالمد والتوسط والقصر في ﴿ءَالْفَنَ﴾، وعلى التوسط في

(١) كتبت في (أ): الألف. وعدلت بمسح (لأ) إلى: ألف.

(٢) كتبت في (أ): الألف. وعدلت بمسح (لأ) إلى: ألف.

(٣) كتبت في (أ): ذلك. وعدلت إلى: لك.

(٤) التوسط في الألف التي بعد همزة الاستفهام ليس من طريق الشاطبية، وعليه لا يترتب توسط وقصر في ألف (لان).

(٥) في (ب): وإذ.

(٦) (على) من (أ). وألحقت في هامش (ب)

(٧) في (ب): تأتي.

الألف تأتي بالأوجه المذكورة، وكذا على القصر فالجمله بتسعة أوجه، ثم تأتي بأوجه التسهيل الثلاثة؛ فالجمله اثنا عشر وجهاً .
قال ^(١) ذلك محمد بن أسد ^(٢) تلميذ الشمس ابن الجزري : وهذا لا يتأتى إلا إذا وقفت على الهاء من ﴿يَهْ﴾ وابتدأت ^(٣) بـ ﴿أَلْقَنَ﴾ . فإن الشمس ابن الجزري نظم بيتين فيما يتعلق بقطع ﴿أَلْقَنَ﴾ عما قبلها ؛ فقال ^(٤)
/ [أ(٧/ب):

للأزرق ^(٥) في الآن ستة أوجه على وجه إبدالٍ لدى وصلها تجر ^(٦)
فمداً وثلاث ثانياً ثم وسطن به وبقصر ثم بالقصر مع قصر

(١) في (أ) : قاله .

(٢) كذا في النسختين . ولم أجد من تلاميذ ابن الجزري من اسمه : محمد بن أسد، ولعل الصواب :

أحمد بن أسد، انظر "غيث النفع" (١/٢٤٢) وهو :

أحمد بن أسد بن عبد الواحد بن أحمد الأميوطي الإسكندري شهاب الدين أبو العباس الشافعي .
ولد سنة (٨٠٨هـ)، شاعر، مشارك في بعض العلوم . له من المؤلفات "شرح حرز الأمان"، و
"أرجوزة الذيل المترف من الأشرف إلى الأشرف في التاريخ" . توفي سنة (٨٨٢هـ) .

الضوء اللامع (١/١٨٩) هدية العارفين (٤/١٢٢) معجم المؤلفين (١/١٠٢)

(٣) في (ب) : وابتديت .

(٤) النشر (١/٣٥٩) وفيه : وصله .

(٥) في (ب) : للأزرق .

يوسف بن عمرو بن يسار الأزرق أبو يعقوب المدني ثم المصري .

لزم ورشا مدة طويلة، وأتقن عنه الأداء . توفي في حدود سنة (٢٤٠هـ)

معرفة القراءة الكبار (١/١٨٦) غاية النهاية (٢/٤٠٣)

(٦) في (أ) : تجري .

ونظمها الشيخ محمد شمس^(١) الدين القباقي^(٢) في بيتين من بحر الرجز؛ فقال^(٣):

وإنَّ يَصْلُ مُبْدَلًا^(٤) الآن ومُدَّ لَأَزْرَقَ^(٥) الأولى ثلث الأخرى وَعَدَّ
توسيط^(٦) كل منهما وقَصْرَه والسَّادُسُ التوسيط^(٧) فالقصرُ له
/ [ب(٣٦/أ)] انتهى .

ووافق^(٨) نافعاً من طريق (الدُّرَّة) ابن وردان^(٩) عن أبي جعفر^(١٠)، وليس

(١) في (أ) زيادة : نظم . وضرب عليها .

(٢) محمد بن خليل بن أبي بكر شمس الدين المعروف بابن القباقي .

ولد سنة (٧٧٨هـ) . ولد وتعلم في حلب، عالم بالقراءات، له كتب كثيرة منها "إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز" . توفي في بيت المقدس سنة (٨٤٩هـ) .

شذرات الذهب (٧/ ٢٦٥) الأعلام (٦/ ١١٧) مقدمة كتاب "إيضاح الرموز" للدكتور أحمد شكري (ص ١٣- ٣٦)

(٣) إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز (ص ١٢٢) وفيه : وإن تصل .

(٤) في (ب) : منه . وكتب في الهامش : مبدلاً .

(٥) في (ب) : لأزراق .

(٦) في (أ) : توسط . لكن وضع نقطتين تحت السطر بين السين والطاء .

(٧) في (أ) : التوسط . لكن وضع نقطتين تحت السطر بين السين والطاء .

(٨) في (ب) : وافف . وصححت في الهامش وكتب : ووافق .

(٩) عيسى بن وردان أبو الحارث المدني.

إمام مقرئ حاذق، وراو محقق ضابط، عرض على نافع . قال الداني : هو من جلة أصحاب نافع وقدمائهم، وقد شاركه في الإسناد . مات في حدود (١٦٠هـ) .

معرفة القراء الكبار (١/ ١١١) غاية النهاية (١/ ٦١٦)

(١٠) الإيضاح شرح الإمام الزبيدي على متن الدُّرَّة (ص ١٣٩)

في طريق (طَيِّبَةُ النَشْرِ) من خالف في ذلك ؛ بل هم على أصولهم، وأما حمزة
فله السكت ^(١) وعدمه على التحقيق، وكذا الوجهان على التسهيل، وإذا
وقف فهو على أصله من الوقف بالنقل والسكت، وكذا على وجه التسهيل
النقل والسكت .

وأما إذا أردت أن تقف له بأوجه الوقف الجارية بين القراء؛ فله في ذلك اثنا
عشر وجهاً ^(٢)، وهي أوجه النقل : المد، والتوسط، والقصر، وأوجه
السكت/ [أ(١/٨)] الثلاثة، وكذا أوجه التسهيل الثلاثة، وأوجه السكت على
التسهيل الثلاثة أيضاً؛ فافهم ذلك ؛ فقل من يتنبه لذلك.
ووافقه في السكت من طريق (طَيِّبَةُ النَشْرِ) ابن ذكوان ^(٣)، وحفص ^(٤)،

(١) السكت : قطع الصوت زمناً دون زمن الوقف عادة من غير تنفس .

النشر (١/٢٠٦) مختصر العبارات (ص ٧١) .

(٢) الذي يظهر أن حمزة وقفاً خمسة عشر وجهاً، وذلك لأن من مذهبه وقفاً النقل ؛ فإذا نقل حركة
المهمزة إلى الساكن قبلها وهو اللام ؛ فتتحرك اللام بحركة عارضة ؛ فإذا اعتدنا بالعارض يكون
له في الألف التي بعد همزة الاستفهام بدل مع القصر اعتداداً بالعارض مع أوجه المد العارض
وهي المد والتوسط والقصر ؛ فهذه ثلاثة أوجه بالإضافة إلى الاثني عشر وجهاً التي سيذكرها
المؤلف ؛ فيكون المجموع خمسة عشر وجهاً . انظر غيث النفع للصفاسي (٢/٦٩٤) البسط في
القراءات العشر، سمر العشا (ص ٣٢٨) .

(٣) عبدالله بن أحمد بن بشر بن ذكوان أبو عمرو الدمشقي .

ولد سنة (١٧٣هـ) روى عنه القراءة هارون بن موسى الأخفش . له كتاب "أقسام القرآن"
وغيره . توفي سنة (٢٩٢هـ) .

معرفة القراء الكبار (١/١٩٨) غاية النهاية (١/٤٠٤) شذرات الذهب (٣/١٩٢)

(٤) حفص بن سليمان بن المغيرة أبو عمرو الأسدي الكوفي .

ولد سنة (٩٠هـ)، كان صاحب عاصم وربييه، نزل بغداد وأقرأ بها، وغلبيت قراءته على

وإدريس^(١) عن خلف^(٢) في اختياره، وهم على أصولهم من تحقيق وتسهيل^(٣).

وقد نظم العلامة الشيخ علي الشَّبرَاملسي^(٤) ما^(٥) يتعلق بمذهب ورش في ﴿أَلَفَنَ﴾؛ فقال^(٦):

للأزرق^(٧) في آمتهم حيث ركبت مع الآن بالإبدال وجهان مع عشر

= الأمصار. توفي سنة (١٨٠هـ).

معرفة القراءة الكبار (١٤٠/١) غاية النهاية (٢٤٥/١)

(١) إدريس بن عبد الكريم الحداد أبو الحسن البغدادي .

قرأ على خلف بن هشام، روى عنه ابن مجاهد وابن شنبوذ . توفي سنة (٢٩٢هـ) .

سير أعلام النبلاء (٤٤/١٤) معرفة القراءة الكبار (٢٥٤/١)

(٢) خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف أبو محمد البزار المقرئ البغدادي .

ولد سنة (١٥٠هـ) قرأ على جماعة أشهرهم سليم عن حمزة، وأخذ حرف نافع عن إبي إسحاق

المسيبي، قرأ عليه الحلواني والكسائي وغيرهما . توفي سنة (٢٢٩هـ) .

سير أعلام النبلاء (٥٧٦/١٠) معرفة القراءة الكبار (٢٠٨/١) غاية النهاية (٢٧٣/١)

(٣) الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر والكشف عن علل القراءات وتوجيهها لمحمد سالم

محيسن (ص ٢٣٩)

(٤) علي بن علي نور الدين أبو الضياء الشَّبرَاملسي .

ولد عام (٩٩٧هـ)، تعلَّم وعلم بالأزهر، فقيه شافعي مصري، والشَّبرَاملسي نسبة إلى شبراملس

قرية بالغريرة بمصر . وصنف كتباً منها : "حاشية على المواهب اللدنية للقسطاني"، و"حاشية

على شرح المقدمة الجزرية في التجويد" . توفي سنة (١٠٨٧هـ) .

خلاصة الأثر (١٣٤/٢) الأعلام (٣١٤/٤) معجم المؤلفين (٤٧٨/٢) .

(٥) (ما) كررت في (ب)

(٦) ذكر هذه الأبيات البنا في "إنحاف فضلاء البشر" (١١٣/٢) وقال : ونظمها شيخنا . ولم يسمه .

(٧) في (ب) : للأزراق . وفيها زيادة : الآن . وضرب عليها .

فإن تقصر آمتتم فمد واقصر^(١) لأول مدى لان والثاني بالقصر وإن وسطت فالثاني^(٢) أقصر^(٣) ووسطن مع المد والتوسيط والقصر ذا^(٤) ادر ومع مدها مد فقصر وعكسه وقصرهما والمد ذا ظاهر النشر إلا أنه رحمه الله اقتصر في النظم على الاثني عشر وجهها، وترك باقي الأوجه؛ أي أوجه التسهيل الخمسة^(٥).

والحاصل أنك إذا أردت الجمع لقوله تعالى ﴿أَتَمُّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِئِهِ ءَلْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِئِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ / [أ(٨/ب)] وركبت ﴿ءَامَنُكُمْ﴾ مع ﴿ءَلْتَنَ﴾ فتبتدئ لقالون بالقصر^(٦) في ﴿بِئِهِ﴾ وعدم الصلة^(٧)، وثلاثة أوجه في ﴿ءَلْتَنَ﴾ المد والقصر والتسهيل، ثم تعطف عليه أبا عمرو^(٨) بالبدل والتسهيل، ويندرج

(١) في (أ) : فمد أو قصر .

(٢) (فالثاني) من (أ) وألحقت في هامش (ب) .

(٣) في (ب) : فاقصر .

(٤) في (أ) : إذا .

(٥) في (أ) زيادة : . اهـ يتولف . و(أي أوجه التسهيل الخمسة) ليست في (ب) .

(٦) (بالقصر) ليست في (ب) .

(٧) الصلة : النطق بهاء الضمير المكني بها عن المفرد الغائب موصولة بحرف مد لفظي يناسب حركتها، فيوصل ضمها يواو ويوصل كسرهما يياء.

الإضاءة في بيان أصول القراءة (ص ١٧) مختصر العبارات (ص ٧٨)

(٨) زَبَّان على الصحيح ابن العلاء بن عمار أبو عمرو والمازني البصري .

أحد القراء السبعة . ولد سنة (٦٨هـ) . قرأ على الحسن البصري وعاصم وابن كثير وغيرهم، روى عنه يونس بن حبيب وخلق كثير . توفي سنة (١٥٤هـ) .

مشاهير علماء الأمصار (ص ١٥٣) معرفة القراء الكبار (١٠٠ / ١) غاية النهاية (١ / ٥٠٢)

معه يعقوب ^(١) إن كنت تقرأ من طريق (الدُّرَّة)، ثم تأتي بالمد في ﴿يَوْمَ﴾ وعدم الصلة، وعليه الأوجه الثلاثة في ﴿ءَالْفَنَ﴾، وتعطف عليه أبا عمرو كما تقدم، ويندرج مع أبي عمرو ابن عامر ^(٢) وعاصم ^(٣) إن كنت تقرأ بمرتبين، وإلا فتأتي بالمد لابن عامر وغيره بعد مد ورش، ثم تأتي بالمد ^(٤) في ﴿يَوْمَ﴾ لورش، وعليه ثلاثة أوجه: المد والقصر والتسهيل، وتعطف عليه حمزة بمد البدل والسكت، ثم بالتسهيل والسكت، ثم تأتي بالصلة مع عدم / [ب(٣٦)ب] المد، وعليها الأوجه الثلاثة المذكورة كما تقدم، ثم تعطف عليه ابن كثير ^(٥) بالبدل والتسهيل، ويندرج مع قالون ابن وَرْدَان إن كنت

(١) يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي مولا هم أبو محمد البصري .

ولد سنة (١١٧هـ) . أحد القراء العشرة، وإمام أهل البصرة ومقرؤها . توفي سنة (٢٠٥هـ) .

سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٦٩) معرفة القراء الكبار (١/ ١٥٧) غاية النهاية (٢/ ٢٨٦)

(٢) عبدالله بن عامر بن يزيد بن تميم أبو عمران - على الأشهر - الشامي .

ولد سنة (٢١هـ)، أحد القراء السبعة، انتهت إليه رئاسة الإقراء في الشام، وتولى القضاء بدمشق

. توفي سنة (١١٨هـ) .

سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٩٢) معرفة القراء الكبار (١/ ٨٢) غاية النهاية (١/ ٤٢٣)

(٣) عاصم بن بهدلة أبي النجود الأسدي مولا هم أبو بكر الكوفي .

أحد القراء السبعة، تصدر للإقراء، وقرأ عليه خلق كثير، جمع بين الفصاحة والإتقان والتجويد

. توفي سنة (١٢٧هـ)

سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٥٦) معرفة القراء الكبار (١/ ٨٨) غاية النهاية (١/ ٣٤٦)

(٤) كتب قبلها في (أ): في المد ثم ضرب عليها .

(٥) عبدالله بن كثير بن المطلب القرشي من بني عبدالدار أبو معبد المكي .

ولد سنة (٤٥هـ) . أدرك غير واحد من الصحابة، إمام أهل مكة في القراءة في عصره، قرأ عليه

تقرأ من طريق (الدَّرَّة)، ويندرج / [أ(٩/أ)] ابن جهماز^(١) مع ابن كثير، ثم تأتي^(٢) بالمد على الصلة، وعليه الأوجه الثلاثة المتقدمة، ثم تأتي لورش بالتوسط في ﴿ءَامَنْتُمْ﴾ وعليه ثمانية أوجه في ﴿ءَالْقَنَ﴾ وهي: المد في الهمز، والتوسط والقصر في اللام. والتوسط في الهمز، والتوسط والقصر في اللام^(٣). والقصر في الهمز، والتوسط والقصر في اللام. والتسهيل في الهمز^(٤)، والتوسط والقصر في اللام.

ثم تأتي له بالمد الطويل في ﴿ءَامَنْتُمْ﴾، وعليه ستة أوجه في ﴿ءَالْقَنَ﴾ وهي: المد في الهمز، والمد والقصر في اللام. والقصر في الهمز، والمد والقصر في اللام^(٥). والتسهيل في الهمز، والمد والقصر في اللام. وكذا إذا أردت جمع قوله تعالى ﴿ءَالْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ فتبتدئ لقالون بالأوجه الثلاثة المذكورة، وهي: المد، والقصر، والتسهيل.

وأما ورش فله فيها تسعة أوجه وهي: المد في الهمز، والمد والتوسط

= أبو عمرو بن العلاء وغيره. توفي سنة (١٢٠هـ)

وفيات الأعيان (٣/ ٤١) معرفة القراء الكبار (١/ ٨٦) غاية النهاية (١/ ٤٤٣)

(١) سليمان بن مسلم بن جهماز الزهري أبو الربيع المدني.

مقري، ضابط، جليل، قرأ على أبي جعفر يزيد بن القعقاع. توفي سنة (١٧٠هـ)

الأنساب (١/ ٤٨٠) غاية النهاية (١/ ٣١٥)

(٢) تأتي ليست في (ب).

(٣) في (ب) زيادة: ثم تأتي بالمد الطويل. وضرب عليها.

(٤) في (أ) في المواضع الثلاثة: الهمة. ومسحت التاء المربوطة.

(٥) والقصر في الهمز والمد والقصر في اللام ليست في (ب).

والقصر في اللام . والتوسط في الهمز، والتوسط والقصر في اللام^(١) / [أ(٩/ب)] والقصر في الهمز واللام . والتسهيل في الهمز^(٢)، والمد والتوسط والقصر في اللام . انتهى^(٣) .

وأما قوله تعالى ﴿قُلْ أَذْكُرِينَ﴾ في موضعي الأنعام، وقوله تعالى ﴿قُلْ أَذْكُرِينَ﴾ في موضع يونس، وقوله تعالى ﴿أَصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ﴾ في سورة النمل^(٤)، فلجميع القراء فيهن البدل والتسهيل^(٥) .

وأما قوله تعالى ﴿بِالسَّحْرِ﴾ في سورة يونس^(٦)؛ فقرأه أبو عمرو وأبو جعفر بالاستفهام فلهما فيه البدل والتسهيل، وقرأه الباقر بالإخبار^(٧) . والمد على وجه البدل بقدر ثلاث ألفات، وحكى السخاوي^(٨) بقدر

(١) (والتوسط في الهمز والتوسط والقصر في اللام) من (أ)، وألحقت في هامش (ب) .

(٢) في (أ) : الهمز . لكن كتبت التاء المربوطة فوق السطر .

(٣) انظر غيث النفع (٢/ ٦٩٥-٧٠٠) مختصر بلوغ الأمانة (ص ٥٤) إرشاد المريد (ص ٨٧)

(٤) آية رقم ٥٩ .

(٥) النشر (١/ ٣٧٧)

(٦) آية رقم ٨١ .

(٧) المبسوط في القراءات (ص ٢٠٦) إرشاد المبتدي (ص ٣٦٥) النشر (١/ ٣٨٧) (٢/ ٢٨٦)

(٨) علي بن محمد بن عبد الصمد أبو الحسن الهمداني السخاوي .

ولد سنة (٥٥٥٨هـ) بسخا بمصر . قرأ على أبي القاسم الشاطبي وغيره، وقرأ عليه أبو شامة، شرح "الشاطبية"، وسماها "فتح الوصيد"، وشر الرائية وسماها "الوسيلة إلى شرح العقيلة" . توفي سنة (٦٤٣هـ) .

معرفة القراء الكبار (٢/ ٦٣١) البداية والنهاية (١٣/ ١٧٠) غاية النهاية (١/ ٥٦٨) مقدمة

كتاب فتح الوصيد للدكتور مولاي الإدريسي (١/ ٢٣-٨٩) .

أَلْفَيْنَ^(١)، والوجهان صحيحان، والأكثر يقولون يمد بقدر ثلاث ألفات انتهى .

وأما آيات الاستفهام^(٢) المكرر^(٣)، والمراد أن تتقدم همزة الاستفهام على (أئذا) و(أئنا)^(٤)، وتقديم (أئذا) وتأخير (أئنا) التي تصاحبها همزة الاستفهام وهو الأكثر، وقد تُقدم (أئنا) على (أئذا)، وذلك في قوله تعالى سورة النازعات / [أ(١٠/١)] ﴿إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَاوِرَةِ إِذْ ذَا كُنَّا عِظَمًا﴾^(٥)، وتكون أئنا مع مثلها، وذلك في سورة العنكبوت في قوله تعالى^(٦) ﴿إِنَّا لَنَكُونُ لَنَأْتُونَ أَلْفَ حِشَّةٍ﴾^(٧)، وبعدها [ب(٣٧/١)] ﴿إِنَّا لَنَكُونُ لَنَأْتُونَ أَلْفَ حِشَّةٍ﴾^(٨). ولم يقع لفظ (أئذا) مع نظيرتها في موضع أبدا .

وقد وقع في أحد عشر موضعاً في تسع سور، وهو على حكم التكرار اثنان وعشرون؛ ففي سورة الرعد ﴿إِذْ ذَا كُنَّا تَرْبَاً إِذْ نَا لَفَى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٩) وفي

(١) فتح الوصيد (٣١١ / ٢)

(٢) في (ب) : الاستفهامات . وعدلت إلى : الاستفهام .

(٣) الاستفهام المكرر: أن تجتمع همزتان في كلمة وبعدها كلمة أخرى ذات همزتين .

النشر (٣٧١ / ١) مختصر العبارات (ص ٢٢)

(٤) في (ب) : أو (أئنا) .

(٥) آية رقم ١٠-١١ . و(عظاما) ليست في (ب).

(٦) في (ب) زيادة : في سورة . وضرب عليها .

(٧) آية رقم ٢٨ .

(٨) آية رقم ٢٩ .

(٩) آية رقم ٥ .

سورة الإسراء موضعان الأول : ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾^(١)، والثاني لفظه كلفظه^(٢)، وفي المؤمنين ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾^(٣)، وفي النمل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَهْنًا لَمُخْرَجُونَ﴾^(٤)، وفي العنكبوت ﴿وَلَوْ طَآئِفًا لِّقَوْمٍ هَاهُنَا إِنَّا لَنَآتُونَكَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ أَفَبِعَيْنِكُمْ لَتَأْتُوكَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾^(٥)، [أ(١٠/ب)] وفي سورة السجدة ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٦)، وفي الصافات^(٧) موضعان الأول : ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾^(٨)، والثاني : ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَدِينُونَ﴾^(٩)، وفي الواقعة ﴿وَكَاْنُوا يَقُولُوكَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾^(١٠)، وفي النازعات ﴿إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي

(١) آية رقم ٤٩. وفي (ب) : (... أننا لفي خلق جديد). وعدلت إلى (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا).

(٢) آية رقم ٩٨.

(٣) آية رقم ٨٢.

(٤) آية رقم ٦٧.

(٥) آية رقم ٢٨-٢٩.

(٦) آية رقم ١٠.

(٧) في (ب) : الصف. وعدلت إلى الصافات.

(٨) آية رقم ١٦.

(٩) آية رقم ٥٣. وفي (ب) خطأ في الآية : (أئذا كنا ..) وضرب على كلمة (كنا).

(١٠) آية رقم ٤٧.

لِلْحَافِرَةِ أَهَذَا كُنَّا عِظَمًا نَحْرَةً؛ فهذه جملة المواضع.

إذا علمت هذا فاعلم أن نافعاً والكسائي^(١) يقرءان بهمزيين^(٢) في الموضع الأول من أحد الاستفهامين، وفي الثاني بهمزة واحدة؛ إلا أن نافعاً خالف قاعدته في النمل والعنكبوت؛ فقرأ بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني. والكسائي خالف قاعدته في العنكبوت؛ فقرأ بالاستفهام في الأول والثاني.

وقرأ ابن عامر بالإخبار في الأول/[أ(١١/أ)] والاستفهام في الثاني فيما تقدم ذكره، وخالف قاعدته في النمل والنازعات؛ فاستفهم في الأول وأخبر في الثاني، وزاد في الثاني من استفهامي النمل هو والكسائي نوناً، وأما في سورة الواقعة فاستفهم فيهما معاً.

وقرأ حفص وابن كثير بالإخبار في الأول من استفهامي العنكبوت؛ فتحصل أن الذين يقرءون بالإخبار في الأول من العنكبوت هم نافع وابن كثير وابن عامر وحفص.

وقرأ باقي القراء بالاستفهام في جميع المواضع التي تقدم ذكرها، وكل منهم

(١) علي بن حمزة بن عبدالله أبو الحسن الأسدي الكوفي.

ولد في حدود سنة (١٢٠هـ). أحد القراء السبعة، وإمام الكوفيين في النحو واللغة، أخذ القراءة عن حمزة أبي بكر بن عياش، ألف كتباً منها "القراءات". أخذ عنه خلف وغيره. توفي سنة (١٨٩هـ).

معرفة القراء الكبار (١/١٢٠) غاية النهاية (١/٥٣٥) بغية الوعاة (٢/١٦٢)

(٢) في (ب): يقرءون بالهمزتين. وفي (أ): يقرءان بمد همزتين. وفيها إشارة إلى حذف كلمة: بمد.

على أصله من : إسهال، وتحقيق^(١)، وإدخال وعدمه ؛ إلا أن أكثر الطرق عن هشام^(٢) على الفصل بالألف مع التحقيق في هذا^(٣) الباب أعني الاستفهام، وبذلك قطع صاحب "التيسير"^(٤) و"الشاطبية"^(٥) وسائر المغاربة، وأكثر المشاركة كابن شَيْطَا^(٦)، وابن سَوَّار^(٧)، وأبي العز^(٨)،

(١) التحقيق : النطق بالهمزة على صورتها كاملة الصفات من مخرجها الذي هو أقصى الحلق .

الإضاءة في بيان أصول القراءة (ص ٢٨) مختصر العبارات (ص ٤٣)

(٢) هشام بن عمار بن نصير السلمي وقيل الظفري أبو الوليد الشامي .

ولد سنة (١٥٣هـ)، روى القراءة عن أبي عبيد والحلواني، إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم . توفي سنة (٢٤٥هـ) .

سير أعلام النبلاء (١١/ ٤٢٠) معرفة القراء الكبار (١/ ١٩٥) غاية النهاية (٢/ ٣٥٥)

(٣) في (أ) : فهذا . وعدلت إلى : في هذا .

(٤) التيسير في القراءات السبع (ص ٣٢٦-٣٢٨)

(٥) الوافي شرح الشاطبية (ص ٢٩٨) .

(٦) عبدالواحد بن الحسين بن أحمد بن شَيْطَا أبو الفتح البغدادي .

ولد سنة (٣٧٠هـ) . أخذ عن أبي طاهر بن سَوَّار، له كتاب "التذكار في القراءات العشر" . توفي سنة (٤٠٥هـ) .

تاريخ بغداد (١١/ ١٦) معرفة القراء الكبار (١/ ٤١٥) غاية النهاية (١/ ٤٧٣)

(٧) أحمد بن علي بن عبيدالله بن سَوَّار أبو طاهر البغدادي .

ولد سنة (٤١٢هـ) . قرأ على أبي الفتح بن شَيْطَا، وقرأ عليه سبط بن الخياط وغيره . مؤلف كتاب "المستنير في العشرة" . توفي سنة (٤٩٦هـ) .

معرفة القراء الكبار (١/ ٤٤٨) غاية النهاية (١/ ٨٦) مقدمة كتاب المستنير في القراءات العشر للدكتور (١/ ٢٣-٤٨)

انظر المستنير في القراءات العشر (٢/ ٢٢٦-٢٢٧)

(٨) محمد بن الحسين بن بندار القلانسي أبو العز الواسطي .

والهمداني^(١) وغيرهم/ [أ(١١/ب)].

وذهب آخرون إلى إجراء الخلاف عنه في ذلك كما هو مذهبه في سائر هذا
الضرب منهم أبو محمد سبط الخياط^(٢)، والهندلي^(٣)، والصفراوي^(٤)

= ولد سنة (٤٣٥هـ)، شيخ العراق، ومقرئ القراء بواسط، صاحب التصانيف المفيدة، ومنها
"إرشاد المبتدي". توفي في شوال سنة (٥٢١هـ).

سير أعلام النبلاء (١٩/٤٩٦) معرفة القراء الكبار (١/٤٧٣) غاية النهاية (٢/١٢٨) مقدمة
تحقيق كتاب إرشاد المبتدي للدكتور عمر الكبيسي (ص ٥٥-٦٥)
انظر إرشاد المبتدي (ص ٣٨٩).

(١) كذا في "النشر". وفي (أ) كأنها كتبت: الهمدان. وليست في (ب) كما سيأتي.

المنتجب بن أبي العز بن رشيد منتجب الدين أبو يوسف الهمداني.

إمام كامل علامة، قال الذهبي: كان رأساً في القراءات والعربية صالحاً متواضعاً صوفياً. له
شرح للشاطبية سماه "الدرة الفريدة". توفي في ربيع الأول سنة (٦٤٣هـ).

معرفة القراء الكبار (٢/٦٣٧) غاية النهاية (٢/٣١٠) الأعلام (٧/٢٩٠)

(٢) عبدالله بن علي بن أحمد سبط أبي منصور الخياط أبو محمد البغدادي المقرئ النحوي.

ولد سنة (٤٦٤هـ). قرأ على القلانسي وابن سوار، له كتاب "المبهج" و"الروضة". توفي سنة
(٥٤١هـ).

نزهة الألباء (ص ٢٩٨) معرفة القراء الكبار (١/٤٩٤) غاية النهاية (١/٤٣٤) انظر مقدمة
كتاب المبهج للدكتور وفاء عبدالله (ص ١٦٣-٢٠٦)

انظر المبهج في القراءات الثمان وقراءة الأعمش وابن محيصن واختيار خلف واليزيدي (ص ٥٦٦)

(٣) يوسف بن علي بن جبارة أبو القاسم الهندلي.

ولد سنة (٣٩٠هـ). قرأ على الكارزيني وغيره. له كتاب "الكامل في القراءات الخمسين".
توفي سنة (٤٦٥هـ).

الصلة لابن بشكوال (٣/٩٧٥) معرفة القراء الكبار (١/٤٢٩) غاية النهاية (٢/٣٩٧)

(٤) عبد الرحمن بن عبد المجيد بن إسماعيل أبو القاسم الصفراوي الإسكندري.

الأستاذ المقرئ المكث. ولد سنة (٥٤٤هـ). كان إماماً كبيراً؛ مفتياً على مذهب مالك. ومن
=

وغيرهم، وهو الظاهر قياساً؛ ذكره في "النشر" ^(١)، وذكر الوجهين في "الطَّيِّبَةُ" ^(٢) انتهى ^(٣).

وأما من طريق (الدُّرَّة) فأبو جعفر يخبر في الأول من أحد الاستفهامين، ويستفهم في الثاني في جميع المواضع، وخالف في سورة والصفات فاستفهم في الأول وأخبر في الثاني، وأما [ب (٣٧/ب)] الموضع الثاني منها فهو فيه على قاعدته، وكذلك خالف في سورة الواقعة فاستفهم في الأول وأخبر في الثاني ^(٤).

وأما يعقوب فإنه يستفهم في الأول ويخبر ^(٥) في الثاني كنافع، وعكس أبي جعفر، وخالف في العنكبوت؛ فأخبر في الأول واستفهم في الثاني، ووافق أصله في النمل فاستفهم فيهما ^(٦).

وأما خلف فهو على أصله يقرأ بالاستفهام في جميع ما تقدم ذكره. انتهى ^(٧).
وأما قوله تعالى ﴿هَآئِنْتُمْ﴾ / [أ (١٢/أ)] فقد وقع منها موضعان بآل عمران،

= مؤلفاته "الإعلان"، و"التقريب والبيان في معرفة شواذ القرآن". توفي سنة (٦٣٦ هـ).

معرفة القراء الكبار (٢/٦٢٥) غاية النهاية (١/٣٧٣) معجم المؤلفين (٢/٩٧)

(١) النشر (١/٣٧٢-٣٧٤)

(٢) (إلا أن أكثر الطرق... الطيبة) ليست في (ب).

(٣) الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر (ص ١٩٦-١٩٩)

(٤) في (أ) : الثانية .

(٥) في (ب) : وأخبر . وعدلت إلى : ويخبر .

(٦) (ووافق أصله في النمل فاستفهم فيهما) ليست في (ب) .

(٧) الإيضاح شرح الإمام الزبيدي على متن الدُّرَّة (ص ١٢٨)

وهما قوله تعالى ﴿هَآتَيْتُمْ هَؤُلَاءَ حَبْجَتُمْ﴾^(١)، ﴿هَآتَيْتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّوهُمْ﴾^(٢)، وموضع بالنساء، وهو قوله تعالى ﴿هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾^(٣)، وموضع بالقتال وهو قول تعالى ﴿هَآتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِئَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٤)، والحكم فيها أنك تسهل همزة (أنتم) لنافع وأبي عمرو، وأدخل لقالون وأبي عمرو ألفا بين الهاء والهمزة، وورث قرأ بعدم^(٥) الإدخال .

وله وجهٌ ثان، وهو إبدال الهمزة ألفاً، والمد عليها بقدر ثلاث ألفات، وحكى السخاوي أَلْفَيْنِ، ويسمى المد : مداً كلمياً مخففاً^(٦). والقولان جاريان أيضاً في كل مثقل، وقد قُرئ بهما؛ إلا أن أكثر أهل الأداء على المد بقدر ثلاث ألفات، وبه قرأنا على شيخنا، وأخبر أنه قرأ به على أشياخه^(٧) كذلك، وما ذُكِرَ عن قالون وأبي عمرو من إدخال الألف بين الهاء والهمزة جارٍ على أن الهاء مبدلة من همزة الاستفهام / [أ(١٢)ب] كقولهم^(٨) : (أَرَقَّتْ الْمَاءُ

(١) آية رقم ٦٦ .

(٢) آية رقم ١١٩ . وكتب في (أ) زيادة : ولا تحبونهم .

(٣) آية رقم ١٠٩ .

(٤) آية رقم ٣٨ .

(٥) في (أ) : بعد .

(٦) المد الكلمى المخفف : أن يقع بعد حرف المد ساكنٌ سكوناً لازماً للزوم سببه في الحالين وصلاً ووقفاً . فإن كان ما بعده في الكلمة غير مشدد سمي المد اللازم الكلمى المخفف .

النشر (١/ ٣١٤) مختصر العبارات (ص ١١٥)

(٧) في (ب) : شيخه . وضرب عليها وكتب بعدها : أشياخه .

(٨) في (أ) زيادة : في .

هَرَقْتُهُ).

وحكي عنهما وجه ثان أن الهاء للتنبيه فيه القصر والمد ؛ فيدخل القصر في وجه الإدخال المتقدم ؛ فيكون من وجهين، ويكون المد على قاعدة من يمد^(١) قدر ألف ونصف وألفين.

وابن كثير والباقون يقرؤون بتحقيق الهمزة إلا أن قُبِّلَا^(٢) يقرأ (هأنتم) من غير إدخال على وزن (فَعَلْتُمْ)، والباقون يقرؤون بالإدخال على وزن (فَاعَلْتُمْ) .

وما ثبت من كون الهاء مبدلة من همزة الاستفهام ؛ أو أنها [ب(٣٨/أ)] للتنبيه ثابت للكوفيين وابن عامر ؛ إلا أن كونها مبدلة^(٣) من همزة الاستفهام أكثر في الأداء عنهم، وكل من الكوفيين وابن عامر شيخا كان أو راويا إذا جعلت هاء^(٤) للتنبيه يمد على قاعدته .

أما ورش وقُبِّلَ فنقل عنها إبدالها من همزة الاستفهام .

(١) في (أ) : مد .

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن سعيد المخزومي مولا هم .

ولد سنة (١٩٥هـ) . ولقب بَقْبُل ؛ لأنه كان من قوم يقال لهم القنابلة، وكان إماماً في القراءة، متقناً، ضابطاً . انتهت إليه رئاسة الإقراء بالحجاز، ورحل إليه الناس من الأقطار . توفي سنة (٢٩١هـ) .

معرفة القراءة الكبار (١/ ٢٣٠) غاية النهاية (٢/ ١٦٥) إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢١)

(٣) (مبدلة) ليست في (ب) .

(٤) في (ب) : جعلتها .

وأما البَرْي^(١) فيقرأ بالقصر على قاعدته سواء قيل: إنها مبدلة من همزة / [أ(١٣/أ)] الاستفهام أو أنها للتنبيه، ومن روى عنه^(٢) التسهيل؛ فهو بين الهمزة والألف؛ لكون الهمزة مفتوحا. والله أعلم.

وأما من طريق (الدُّرَّة) فأبو جعفر على أصله مثل قالون، وخالف يعقوب أصله فقرأ بالتحقيق، وكذلك خلف على أصله في التحقيق. انتهى^(٣).

وتقدم أنا قلنا: إن ورشا يقرأ بعدم الإدخال، وله وجه ثان؛ وهو إبدال الهمزة ألفا، والمد عليها بقدر ثلاث ألفات هو مذهب (الشاطبية) و(الدُّرَّة).

وأما من طريق (طَيِّبَةُ النُّشْرِ)؛ فروى عنه بعض أهل الأداء إثبات الألف كقراءة أبي عمرو وأبي جعفر وقالون؛ إلا أنه يمد مشبعا على أصله، وهو الذي في "التبصرة"^(٤)، و"الكافي"^(٥)، و"العنوان"^(٦)، و"التجريد"^(٧)،

(١) أحمد بن محمد بن عبد الله القاسم بن أبي بَرَّة البَرْي أبو الحسن المكي.

ولد سنة (١٧٠هـ). انتهت إليه رئاسة الإقراء بمكة، أستاذ محقق، وضابط متقن. توفي سنة (٢٥٠هـ).

سير أعلام النبلاء (١٢/٥٠) معرفة القراء الكبار (١/١٧٣) غاية النهاية (١/١١٩)

(٢) في (ب): ومن روى فيها.

(٣) الإيضاح شرح الإمام الزبيدي على متن الدُّرَّة (ص ١٣٦-١٣٧)

(٤) التبصرة في القراءات السبع (ص ٤٦٠)

(٥) الكافي في القراءات السبع (ص ٣٣٦)

(٦) العنوان في القراءات السبع (ص ٧٩)

(٧) التجريد لبغية المريد (ص ٢٠٣)

و"التلخيص"^(١)، و"التذكرة"^(٢)، وعليه جمهور المصريين والمغاربة، انتهى من "النشر"^(٣).

فيصير له من طريق (الطَّيِّبَة) ثلاثة أوجه : القصر، والإدخال، والبدل، وهذه الثلاثة للأزرق . وأما الأصبهاني^(٤) / [أ(١٣)ب] فله وجهان : القصر والإدخال فقط^(٥).

وأما قُنْبُل فزيد له من هذه الطريقة أيضا^(٦) الإثبات؛ فيصير له من طريق ابن سَنَبُود^(٧) الإثبات، ومن طريق ابن مجاهد^(٨) القصر، والله أعلم .

(١) تلخيص العبارات (ص ٢٦، ٧٦)

(٢) التذكرة في القراءات الثمان (٢/ ٢٨٩)

(٣) (١/ ٤٠٠) . و(قراءة أبي عمرو ... النشر) ليست في (ب) .

(٤) محمد بن عبد الرحيم بن شبيب بن يزيد الأسدي أبو بكر الأصبهاني .

كان إماماً في رواية ورش، ضابطاً لها مع الثقة والعدالة، رحل فيها، وقرأ على جماعة من أصحاب ورش وأصحاب أصحابه . توفي (٢٩٦هـ) .

معرفة القراء الكبار (١/ ٢٣٢) غاية النهاية (٢/ ١٦٩) القول الأصدق في بيان ما خالف فيه الأصبهاني الأزرق لعلي بن محمد الضباع (ص ٥-٦)

(٥) القول الأصدق في بيان ما خالف فيه الأصبهاني الأزرق (ص ١٨-١٩)

(٦) (أيضا) ليست في (ب) .

(٧) محمد بن أيوب بن الصلت بن سَنَبُود أبو الحسن البغدادي .

سمع من ابن واصل، قرأ عليه أبو بكر بن مقسم، وأبو بكر الشاذلي . توفي سنة (٣٢٨هـ) .

سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٦٤) معرفة القراء الكبار (١/ ٢٧٦) غاية النهاية (٢/ ٥٦)

(٨) أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي أبو بكر البغدادي .

ولد سنة (٢٤٥هـ) ببغداد، قرأ على قُنْبُل وغيره، وهو أول من سبع السبعة ؛ فصنف كتاب "السبعة" . وقرأ عليه أبو بكر الشاذلي وغيره . توفي سنة (٣٢٤هـ) .

فإذا أردت الجمع لهذه الآية ؛ فإنك تبتدئ لقالون بالقصر في ﴿هَاتُتُمْ﴾ بالتسهيل وإثباته قدر ألف مداً طبيعياً^(١)، وبعدم الصلة، وبالقصر في المنفصل من ﴿هَوَلَاءَ﴾، ويندرج معه أبو عمرو^(٢). ثم بالمد في المنفصل من ﴿هَوَلَاءَ﴾. ثم بالصلة أيضاً على قصر ﴿هَاتُتُمْ﴾، ثم تأتي عليها بالقصر والمد في ﴿هَوَلَاءَ﴾، ويندرج معه في الصلة أبو جعفر إن كنت تقرأ من طريق الدرّة). ثم تأتي بالمد في ﴿هَاتُتُمْ﴾ مع عدم الصلة والمد^(٣) أيضاً في المنفصل من ﴿هَوَلَاءَ﴾. ويندرج معه أبو عمرو. ثم تأتي بالصلة ؛ فيتم لقالون ستة أوجه .

ثم تأتي بورش بالقصر في ﴿هَاتُتُمْ﴾ بالتسهيل من غير إدخال . ثم بمد البدل . ثم تأتي بالبزّي / [أ(١٤/١)] بالصلة مع التحقيق والإدخال . ثم بقُنْبَل أيضاً بالتحقيق وبعدم الإدخال . ثم تأتي بابن عامر بالقصر في ﴿هَاتُتُمْ﴾ ؛ إلا أنه يثبت قدر ألف مداً طبيعياً كما تقدم لقالون وأبي عمرو بالتحقيق أيضاً . ثم بعاصم . ثم بحمزة^(٤) على قصر ابن عامر . وتعطف على ابن عامر

= تاريخ بغداد (٤٤ / ٥) معرفة القراء الكبار (١ / ٢٦٩) غاية النهاية (١ / ١٣٩)

(١) في (أ) : طبعياً .

(٢) في (أ) : أبوا .

(٣) في (ب) : وبالمد .

(٤) حمزة بن حبيب بن عمار الزيات أبو عمار الكوفي التيمي .

ولد سنة (٨٠ هـ) . وأدرك الصحابة في السن ؛ فيحتمل أن يكون رأى بعضهم . قرأ القرآن على

جماعة منهم الأعمش وحران بن أعين وغيرهما، وقرأ عليه جمع منهم الكسائي وسليم بن عيسى

=

يعقوب إن كنت تقرأ من طريق الدرة . ثم تأتي بالمد لابن عامر على قاعدته . ثم لعاصم . ثم لحمزة ؛ فهذه طريق السبع .
وأما جمعها من طريق (طَيِّبَة^(١) النشر)^(٢) ؛ فإنك لما تأتي بالأوجه المتقدمة لقالون وأبي عمرو - يندرج معها الأصبهاني في وجه الإدخال^(٣) - تأتي للأصبهاني بالقصر والتسهيل في ﴿هَآأَنُتُمْ﴾ ، وبالقصر في المنفصل من^(٤) ﴿هُؤَلَاءَ﴾ ، ثم بـمده . ثم بالمد للأزرق . ثم بوجه الإدخال للأصبهاني ثم بالقصر والمد في المنفصل^(٥) . ثم بالمد للأزرق^(٦) ، في ﴿هَآأَنُتُمْ﴾ مدّاً مشبعاً مع التسهيل، ويجوز القصر ؛ لأنه بعد همز مغير بالتسهيل كما ذكره في "النشر"^(٧) . ثم تأتي للأزرق بوجه البدل في / [ب(٣٨/ب)] ﴿هَآأَنُتُمْ﴾ / [أ(١٤/ب)] ثم بالبزّي^(٨) ، ويندرج معه قُنْبُل في الإدخال من هذه الطريق .

= . توفي سنة (١٥٦هـ) .

سير أعلام النبلاء (٧/ ٩٠) معرفة القراء الكبار (١/ ١١١) غاية النهاية (١/ ٢٦١)

(١) في (ب) : الطيبة . وعدلت إلى : طيبة .

(٢) الهادي في شرح طَيِّبَة النشر محمد محسن (ص ٢٣١)

(٣) يندرج معها الأصبهاني في وجه الإدخال) ليست في (ب) .

(٤) في (أ) : ثم .

(٥) القول الأصديق (ص ١٩) . و (ثم بوجه الإدخال للأصبهاني ثم بالقصر والمد في المنفصل)

ليست في (أ) .

(٦) في (ب) في الموضعين : للأزرق .

(٧) (١/ ٤٠١) . و(في ﴿هَآأَنُتُمْ﴾ ... "النشر") ليست في (ب) .

(٨) في (أ) : بالبزّي .

ثم تأتي ^(١) بالوجه الثاني لِقُنْبُل وهو عدم الإدخال . ثم تأتي بابن عامر كما تقدم ؛ إلا أنك تقدم الحُلُواني ^(٢) بالقصر في المنفصل من ﴿هَوَلَاءَ﴾ . ثم بالمد لهشام . ثم بالمد للأخفش ^(٣) ، ويندرج معه حمزة . ثم لعاصم . ثم بالسكت لحمزة في المنفصل ، وبعده في المتصل . ثم بالسكت فيهما معا ^(٤) . ثم بالمد ليعقوب ؛ لأن له المد من هذه الطريق ^(٥) . ثم تأتي بالمد لابن عامر في ﴿هَاتَأْتُمْ﴾ . ثم للأخفش . ثم لعاصم . ثم بالسكت لحمزة في ﴿هَاتَأْتُمْ﴾ ، وفي المنفصل من ﴿هَوَلَاءَ﴾ ، وبعده في المتصل . ثم بالسكت فيهم جميعا . ثم بالمد ليعقوب ؛ فهذا حاصل هذه الآية ، والله أعلم .

وأما قوله تعالى: ﴿سَوَاءَاتٍ﴾ ^(٦) على مذهب ورش ؛ فقد تقرر في مذهب

(١) (تأتي) ليست في (ب) .

(٢) في (ب) : الداجوني .

أحمد بن يزيد بن أزداذ أبو الحسن الحُلُواني .

قرأ على هشام وقالون . توفي سنة (٢٥٠هـ)

معرفة القراء الكبار (١/ ٢٢٢) غاية النهاية (١/ ١٤٩)

(٣) هارون بن موسى بن شريك الأخفش التغلبي أبو عبدالله الدمشقي .

شيخ المقرئين بدمشق في زمانه ، وكان ثقة مُعَمَّرًا . توفي في صفر سنة (٢٩٢هـ) .

معرفة القراء الكبار (١/ ٢٤٨) غاية النهاية (٢/ ٣٤٧)

(٤) (فيهما معا) ليست في (ب) .

(٥) في (ب) : الطريق .

(٦) وردت الكلمة في القرآن بالألفاظ الآتية : (سَوَاءَاتُهُمَا) الأعراف [٢٢] طه [١٢١] .

و(سَوَاءَاتُهُمَا) (الأعراف [٢٠، ٢٧] . و(سَوَاءَاتِكُمْ) الأعراف [٢٦]

الشاطبية أن كل واوٍ أو ياءٍ وقعتا بين فتح وهمزة لورش فيهما وجهان :
التوسط والمد كـ (سَوَاءٌ) ^(١) و(شيء) ومنه هذا اللفظ ^(٢) .

وقد ذكر الشاطبي رحمه الله ^(٣) ما يؤخذ منه أن ^(٤) / [أ(١٥/أ)]

في ﴿سَوَاءَاتٍ﴾ تسعة أوجهٍ لورش، وذلك أنه ذكر أن حُرْفَ المد إذا تأخر
عن ^(٥) الهمز لورش فيه : القصر والتوسط والمد ؛ أشار إلى ذلك بقوله :

وَمَا بَعْدَ هَمْزٍ ثَابِتٍ أَوْ مُغِيرٍ فَقَصَّرُ وَقَدْ يُرَوَّى لَوَرْشٍ مُطَوَّلًا
وَوَسَطَهُ قَوْمٌ ^(٦)

فدخل في عموم ذلك ﴿سَوَاءَاتٍ﴾ .

وذكر في آخر الباب في واوها خلافا له، والخلاف دائرٌ بين التوسط والمد
والقصر الذي لغيره من القراء ؛ فإذا نظرت إلى ذلك حصل على
المد في الواو ثلاثة في الهمز، وعلى التوسط والقصر كذلك ؛ فتصير
تسعة أوجه مشى على ذلك الجعبري ^(٧)، وجماعة من شراح

(١) في (أ) : كـ (سواء) .

(٢) فتح الوصيد (٢/ ٢٨٢) .

(٣) في (ب) زيادة : تعالى .

(٤) (أن) كررت في (أ) .

(٥) في (أ) : عنه .

(٦) ... كَأَمَّنَ هَؤُلَاءِ آلَهُ آتَى لِلْإِيمَانِ مَثَلًا . الوافي شرح الشاطبية (ص ٧٥)

(٧) إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل أبو محمد الجعبري .

ولد سنة (٦٤٠هـ)، شرح الشاطبية والرائية . توفي سنة (٧٣٢هـ) .

الشاطبية^(١)، والذي حرره^(٢) الشمس ابن الجزري رحمه الله تعالى أن من مدَّ الهمز المبدل قصر واو ﴿سَوَّاتٍ﴾، ومن وسط واوها وسط الهمز المبدل لا غير، ومن قصر واوها قرأ بالأوجه الثلاثة المتقدمة في الهمز المبدل / [أ(١٥)ب]؛ فحصل من ذلك أربعة أوجه، وقد نظمها من البحر الطويل فقال^(٣) :

وسوءات قصر الواو والهمز ثلثاً^(٤) ووسطهما فالكل أربعة فادري
/ [ب(٣٩)أ] ونظمها العلامة محمد بن القباقي رحمه الله تعالى فقال^(٥) :
والهمز ثلث مع قصر الواو في سوءات والرابع وسطهما^(٦)
وإذا اجتمع معها ما فيه^(٧) مد بدل كقوله تعالى : ﴿يَنْبَغِيءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ

= معرفة القراء الكبار (٧٤٣/٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣٩٨/٩) غاية النهاية (٢١/١) وانظر كتاب "الجعبري ومنهجه في (كتر المعاني في شرح حرز الأمانى)" للأستاذ أحمد البيدي (١٦٠-٢٥/١)

انظر كتر المعاني (٣٥٢/٢)

(١) سراج القارئ لابن القاحص (ص ٦٣) الفريدة البارزية في حل القصيدة الشاطبية لابن البارزي (ص ١٤٨) الوافي شرح الشاطبية (ص ٨٣)

(٢) في (ب) : حرر .

(٣) النشر (٣٤٧/١)

(٤) في (ب) كتبت هكذا : ثَلَسَ .

(٥) إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز (ص ١٢٥)

(٦) كذا في (ب) . وأما في (أ) : وسطنهما .

(٧) في (ب) : معها مد فيه .

لِكَاسٍ يُورَى سَوَاءٌ تَكُمُ وَرِدْشًا^(١)؛ فإنك تأتي على قصر ﴿ءَادَمَ﴾ بقصر الواو، وعليه القصر في الهمز، وتأتي على توسط ﴿ءَادَمَ﴾ بالتوسط^(٢) في الواو والهمز، وبقصر الواو وتوسط الهمز فقط، وتأتي على المد الطويل في ﴿ءَادَمَ﴾ بقصر الواو والمد في الهمزة، فعلى التأمل تجد الأوجه الأربعة ثابتة سواء أفردت أو جمعت مع ما فيه مد بدل والله أعلم.

وأما قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ﴾ في موضع الأحزاب^(٣)، وموضع المجادلة^(٤) وموضع الطلاق^(٥)؛ فقرأ قالون وقُنبِل بتحقيق الهمزة / [أ(١٦)/أ] وبحذف الياء، وقرأ ورش بالتسهيل والبزّي وأبو عمرو بتسهيل الهمزة من طريق العراقيين، وأبدلها ياء ساكنة من طريق المغاربة والمصريين، ويجوز لورش وأبي عمرو والبزّي حالة التسهيل المد والقصر كما قال الشاطبي:

وإن حَرَفٌ مَدٌّ قَبْلَ هَمْزٍ مُغَيَّرٍ^(٦) يَجُزُّ قَصْرُهُ..... إلخ^(٧).

وإذا وقفوا يقفون بياء ساكنة ويقف قالون وقُنبِل بهمزة ساكنة. وأما على

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٦.

(٢) في (أ): التوسط.

(٣) آية رقم ٤.

(٤) آية رقم ٢.

(٥) آية رقم ٤.

(٦) في (أ): مغر.

(٧) ... والمد ما زال أعَدَلَا. الوافي في شرح الشاطبية (ص ٩٤)

قراءة ابن عامر ^(١) والكوفيين الآتية ؛ فالوقف ^(٢) لهم كالوصل إلا حمزة ؛ فإنه يسهل الهمزة بين يين مع المد والقصر على قاعدته في الهمز المتوسط . انتهى .

وقرأ ابن عامر والكوفيون بياء ساكنة بعد الهمزة ، وأما من طريق (الدُّرَّة) ؛ فأبو جعفر كورش في الوجهين ، ويعقوب كقالون وخلف على أصله ^(٣) . وفي هذا القدر كفاية ، والله الحمد والمنة على هذه النعمة ، والمسؤول ممن اطلع على هذه الرسالة إذا نظر عيباً أن يصلحه [أ(١٦/أ)] ، وأن يدرأ بالحسنة السيئة . فقلَّ أن يسلم المرء من هفوة أو زلة خصوصاً فهمي القاصر ^(٤) وذهنِي الفاتر .

وقد قرأتها على شيخنا - حفظه الله تعالى - ؛ فاستحسنها ، وأسأل الله العظيم أن ينفعني بعلمه والمسلمين ، وأن يجعل قراءتنا خالصة لوجهه الكريم ، وأن يميّتنا على حفظ كتابه ، وأن يجعلنا من العاملين به ^(٥) ، ومن جملة أحبابه ، وأعوذ به من علم لا ينفع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن / [ب(٣٩/ب)] قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، وأن يغفر لي ولوالدي ولمشاغبي ولجميع المسلمين ، ولمن قرأ في هذه الرسالة ، ودعا ^(٦) بالمغفرة ، وأن لا ينساني من

(١) (ابن عامر) من (أ) ، وألحقت في هامش (ب) .

(٢) في (أ) : قالوقف . وفيها إشارة لحذف إحدى نقطتي القاف .

(٣) الإيضاح شرح الإمام الزبيدي على متن الدُّرَّة (ص ١٣٧)

(٤) في (ب) : القصير .

(٥) (به) ليست في (أ) .

(٦) في (ب) : ودعالي .

صالح دعائه في خلواته وجلواته، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين كلما ذكره ^(١) الذاكرون / [أ(١٧/أ)] وغفل عن ذكره الغافلون .

على يد جامعها عفا الله تعالى عنه؛ تحريرا في يوم الأحد ثامن شهر ربيع الأول من شهور سنة ^(٢) اثنين ومائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .
تمت بعون الله وحسن توفيقه ^(٣) .

(١) في (أ) : ذكرك .

(٢) (سنة) ليست في (أ) .

(٣) (تمت بعون الله وحسن توفيقه) ليست في (ب) .

ورد في نهاية نسخة (أ) ما يأتي : نقلت هذه من خط مؤلفها وقوبلت عليها في تاريخه أدناه .
وفي آخرها ورد أيضا : وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة يوم الثلاثاء المبارك أربعة عشر يوما في جماد آخر سنة ألف ومائتين وأربعة وستين، على يد كاتبه عبدالرحمن سليم، غفر الله لوالديه ولمن قرأ فيها وللمسلمين أجمعين
وورد في نهاية نسخة (ب) ما يأتي : انتهى ما في الأصل من خط مؤلفها نفعا الله به ويعلموه آمين، بحمد الله تعالى، وحسن عونه على يدي كاتبه لنفسه ولمن شاء الله بعده أحمد بن مسعود الكنسوسي الشويشي، كان ... بتاريخ بعد الظهر من يوم الجمعة التاسع من شهر الله جمادى الأولى سنة عشرين ومائة وألف وصل الله على سيدي محمد وآله وصحبه وسلم تسليما وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين الجامع الأزهر بمصر المحروسة عمرها الله .

فهرس المراجع والمصادر

- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، للبناء، تحقيق شعبان محمد إسماعيل، علم الكتب، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- أضواء على الطرق الصوفية في القارة الأفريقية، عبدالله عبدالرزاق إبراهيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .
- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ، لبنان، الطبعة السابعة، ١٩٨٦هـ .
- إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة، شمس الدين القباقي، تحقيق أحمد بكري، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٣م .
- الإيضاح شرح الإمام الزبيدي على متن الدرّة، للزبيدي، تحقيق عبدالرزاق موسى، دار ابن القيم، الرياض، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م .
- التبصرة في القراءات، مكّي بن أبي طالب، تحقيق غوث الندوي، الدار الهندية، بومباي، الهند، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢هـ .
- التجريد لبغية المريد في القراءات السبع، لابن الفحام، تحقيق ضاري العاصي ، دار عمار، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
- التذكرة في القراءات الثمان، لابن غلبون، تحقيق أيمن رشدي سويد،

- الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .
- تلخيص العبارات للطيف الإشارات في القراءات السبع، لابن بَلِّمَة ، تحقيق سبيع حاكمي، دار القبلة، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .
- التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني، تحقيق حاتم الضامن، مكتبة الصحابة، الشارقة، الإمارات، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .
- الحلقات المضيئات من سلسلة أسانيد القراءات، للسيد بن أحمد بن عبد الرحيم، طبع على نفقة الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن ببيشة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
- ديوان جميل بثينة، دار صادر، بيروت ، لبنان .
- ديوان المثقب العبدى، تحقيق حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مصر، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق شعيب الارنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت ، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- شرح الهداية، لأبي العباس المهدي، تحقيق حازم حيدر، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ .
- الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها، لعامر النجار، دار

- المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة السادسة .
- العنوان في القراءات السبع، لأبي طاهر إسماعيل بن خلف، تحقيق زهير اهد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
 - غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري، عني نبشره بيرجشتراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢،
 - غنية الطالبين ومنية الراغبين، لشمس الدين البقري، تحقيق محمد معاذ مصطفى، دار الأعلام، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .
 - فتح الوصيد في شرح القصيد، للسخاوي، تحقيق مولاي الأديسي، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .
 - فضائح الصوفية، لعبدالرحمن عبدالخالق، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦هـ .
 - الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط، مؤسسة آل البيت، عمان، الأردن .
 - فهرس المكتبة الأزهرية، فهرس الكتب الموجودة بالمكتبة الأزهرية إلى عام ١٩٥٢م. مطبعة الأزهر، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .
 - فهرست مخطوطات مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، أحمد الرقيحي،

وعبدالله الحبشي، وزارة الأوقاف والإرشاد، صنعاء، اليمن،

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

- القول الأصدق في بيان ما خالف فيه الأصبهاني الأزرق، علي

الضباع، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر، ١٤١٩هـ -

١٩٩٩م .

- الكافي في القراءات السبع، لابن شريح الرعيني، تحقيق سالم

الزهراني، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم

القرى، ١٤١٩هـ .

- المبهج في القراءات الثمان وقراءة الأعمش وابن محيصن واختيار

خلف واليزيدي، لأبي محمد سبط بن الخياط، تحقيق وفاء عبدالله

قرماز، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

- مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات، إبراهيم الدوسري،

دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .

- المستنير في القراءات العشر، لابن سوار، تحقيق عامر الددو، دار

البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، الإمارات

العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

- معرفة القراء الكبار، للذهبي، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة

الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان،

الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ . .

- منهج ابن الجزري في كتابه النشر مع تحقيق قسم الأصول، سالم محمد الشنقيطي، رسالة دكتوراه، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،
- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، تصحيح علي الضباع، دار الكتاب العربي.
- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، تحقيق محمد محفوظ الشنقيطي، من أول باب افرش الحروف إلى آخر الكتاب كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٥ هـ .
- الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر والكشف عن علل القراءات وتوجيهها، محمد سالن محسن، دار الجليل، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .
- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان .
- الوافي شرح الشاطبية، لعبدالفتاح القاضي، مكتبة السوادى، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
- الوجيز في شرح قراءات القرآن الثمانية، لأبي علي الأهوازي، تحقيق دريد حسن أحمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ م .

القدوة الحسنة في ضوء القرآن الكريم

إعداد

د. ناصر بن محمد بن عبدالله الماجد

د. ناصر بن محمد بن عبدالله الماجد

- أستاذ مساعد بقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- حصل على درجة الماجستير في القرآن وعلومه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بآطروحتة: (عادات أهل الجاهلية - دراسة موضوعية في ضوء القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه في القرآن وعلومه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بآطروحتة: (أحكام القرآن للقاضي بكر بن العلاء القشيري، من أول سورة الأنفال إلى آخر القرآن - دراسة وتحقيق).

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]،،، أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو كلام الله المنزل، ودستور الإسلام الجامع، وآية الرسول العظمى، ومعجزته الكبرى، أحيا الله به قلوباً غلفاً، وبَصَّرَ بهداياته أعيناً عُميّاً، وفتح بآياته آذاناً صمّاً، جمع الله به هذه الأمة من شتات فُرقتها، وَوَحَّدَ مِرْقَ صفها، وآلف في محرابه أرواحها، وطَهَّرَ قلوبها، وزكى نفوسها، وأقامها على سنن الفطرة، فكانت خير أمة أخرجت للناس.

وفي هذا القرآن الكريم قصص الله تعالى قبساً من سير الأنبياء والصالحين، وعِبَرًا من ذكر الأولين، نماذج يُقتدَى بها، وأُسوة يُعتبر بها. والمجتمعات البشرية اليوم بأمرس الحاجة إلى وجود قدوة حسنة، تهديها طريق النجاة، في ظل الانحراف الذي نراه في اتخاذ القدوات، ولا أهدي سبيلاً، ولا أسد طريقاً من الرجوع إلى السراج المنير، إلى كتاب الله الكريم، لترسُم معالم القدوة الحسنة فيه، وتبين منهج القرآن الكريم في

عرض مجالاتها، وذكر نماذجها، ومعرفة الصفات التي أهلت أهلها ليكونوا أسوة للناس يقتدون بهم.

هذا من جانب، ومن جانب آخر؛ فإن وجود القدوة الحسنة من أنجح الوسائل المؤثرة في إعداد الفرد وتكوينه نفسياً، واجتماعياً، وأخلاقياً، وهي عامل كبير في صلاح المرء واستقامته.

إنه ليس من العسير أن يضع المربون منهجاً ما، ولكن من الصعب أن يتحقق ذلك المنهج واقعاً معاشاً؛ إذا لم يكن هناك أفراد يطبقونه ويعملون به، بحيث يراه الناس مثلاً أمامهم، ويحسون به واقعاً مشاهداً يقتدون به.

ولهذا فقد استعنت الله تعالى في دراسة القدوة الحسنة، سعيًا للإبانة عن منهج القرآن الكريم في عرضها، مترسماً فيه معالمها، واقفاً على صفات أهلها، محددًا مجالاتها، ضارباً نماذج لها، وأسّمت هذه الدراسة:

القدوة الحسنة في ضوء القرآن الكريم.

وجعلتها مكونة من ثلاثة مباحث، قدمت لها بمقدمة، وأنهيتها بخاتمة ضممتها أهم نتائج البحث، على النحو التالي:

المقدمة: أشرت فيها إلى أهمية البحث، والخطة التي أتبعها فيه.

المبحث الأول: حقيقة القدوة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف القدوة، وذكر نظائرها، وفيه فقرتان:

الفقرة الأولى: تعريف القدوة.

الفقرة الثانية: نظائر لفظ القدوة.

المطلب الثاني: أهمية القدوة، ومجالاتها، وفيه فقرتان:

الفقرة الأولى: أهمية القدوة.

الفقرة الثانية: مجالات القدوة.

المطلب الثالث: الأسس النفسية لانتهاذ القدوة، وآثارها،

وفيه فقرتان:

الفقرة الأولى: الأسس النفسية لانتهاذ القدوة.

الفقرة الثانية: آثار القدوة.

المبحث الثاني: أسلوب القرآن الكريم في عرض القدوة الحسنة، وفيه

خمسة مطالب:

المطلب الأول: أسلوب التعبير عن القدوة الحسنة.

المطلب الثاني: أصناف القدوة الحسنة.

المطلب الثالث: صفات القدوة الحسنة.

المطلب الرابع: صفات المقتدي.

المطلب الخامس: طريقة الدعوة إلى أخذ القدوة الحسنة.

المبحث الثالث: مجالات القدوة الحسنة ونماذجها، وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: مجال الدعوة إلى الله تعالى.

المطلب الثاني: المجال الأسري.

المطلب الثالث: المجال السياسي.

المطلب الرابع: المجال العسكري.

المطلب الخامس: مجال الصبر.

المطلب السادس: مجالات متنوعة.

الخاتمة: وفيها نتائج البحث وتوصياته.

وبعد: فأسأل الله تعالى أن يعصمنا من زلل الرأي، وخطأ القول،
وأن يجعل عملنا خالصاً له - عز وجل - وأن يحفظنا من الشيطان وشركه.
هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على
نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: حقيقة القدوة.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف القدوة، وذكر نظائرها.

المطلب الثاني: أهمية القدوة الحسنة، ومجالاتها.

المطلب الثالث: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة، وآثارها.

المطلب الأول: تعريف القدوة، وذكر نظائرها .

وفيه فقرتان:

الفقرة الأولى: تعريف القدوة.

الفقرة الثانية: نظائر لفظ القدوة.

الفقرة الأولى: تعريف القدوة.

• تعريف القدوة.

القدوة: أصل بنائها القَدْوُ، ويتشعب منه تصريف الاقتداء، يقال: قدوة وقدوة - بضم القاف وكسر ها - لما يقتدى به^(١)، قال الأزهري نقلاً عن الكسائي: "يقال: لي بك قُدْوَة، وقُدْوَة، وقِدَّة، ومثله حَظِي فلانٌ حِظْوَة، وحُظْوَة، وحِظَّة"^(٢).

قال ابن فارس: "القاف والبدال والحرف المعتل؛ أصل صحيح، يدل على اقتياس بالشيء واهتداء"^(٣).

ويدور معنى القدوة فيما ذكره أئمة اللغة على: معنى التأسى، والمتابعة، والتسنن، قال ابن سيدة: "القدوة والقُدوة ما تسنت به"^(٤).

(١) ينظر: تهذيب اللغة، ولسان العرب: مادة: قدا، وتاج العروس مادة: قدو، والمحكم، والقاموس مادة: القدوة.

(٢) تهذيب اللغة، مادة: قدا.

(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة: قدو.

(٤) المحكم، مادة: القدوة.

ينظر أيضاً: تهذيب اللغة، ولسان العرب: مادة: قدا، وتاج العروس مادة: قدو، والقاموس مادة: القدوة.

ولهذا يقال - كما ذكر ابن الأعرابي - للمتقدم في الحلال كلها المبرّر فيها: "فلان لا يُقاديه أحدٌ، ولا يُهاديه أحدٌ، ولا يُباريه أحدٌ، ولا يُجاريه أحدٌ، وذلك إذا برّز في الحلال كلها"^(١).

هذا مدار كلمة القدوة عند أهل اللغة، وأما أئمة التفسير؛ فقد تقاربت المعاني التي ذكروها في حقيقة المراد بالقدوة:

قال الطبري: "معنى الاقتداء - في كلام العرب - بالرجل: اتباع أثره، والأخذ بهديه، يقال: فلان يقدو فلاناً؛ إذا نحا نحوه واتبع أثره"^(٢).
وقال ابن عطية: "معنى الاقتداء: اتباع الأثر في القول والفعل والسيرة"^(٣).

ونلاحظ في هذا التعريف لفت النظر إلى أن الاقتداء يتناول الفعل والقول والسلوك بعامة، وهذا ما عبّر عنه ابن عطية في قوله: والسيرة.
وقال الواحدي: "معنى الاقتداء في اللغة: طلب موافقة الثاني للأول في فعله الثاني بمثل فعل الأول لأجل أنه فعله"^(٤).

وفي هذا التعريف إشارة إلى أن سلوك الاقتداء مبني في أصله على القصد، فهو - كما يقول الواحدي - طلب يتضمن قصد موافقة المُقتَدَى به.
وقال الشنقيطي: "الأسوة كالقدوة، وهي اتباع الغير على الحالة التي

(١) لسان العرب، مادة: قدأ.

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٢٦٢).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٤١٢).

(٤) التفسير البسيط (٨/ ٢٦٨).

يكون عليها حسنة أو قبيحة"^(١).

وهذا التعريف فيه النص على أن سلوك القدوة يقع في الخير والشر،
والحسن والقبيح.

• أركان القدوة.

هذه المعاني التي قررها أهل العلم من المفسرين واللغويين لمعنى
القدوة والاقتداء؛ وإن تنوعت في عباراتها، فهي تدل على أن لسلوك
الاقتداء أركاناً لا بد من تحققها، حتى يصدق على الفعل أنه اقتداء، وعلى
الفاعل أنه مقتدي، وهي ثلاثة أركان:

الأول: المقتدى به، وهو: من يتابعه غيره في سلوكه، ويتميز هذا
المقتدى به - عادة - بالتقدم والتميز في شخصيته وسلوكه، مما جعله قدوة
لغيره، يتأثر الناس بسلوكه، ويتابعونه في أخلاقه وأفعاله، وهذا المعنى قد
أشار إليه ابن الأعرابي إذ قال: "فلان لا يُقاديهِ أحدٌ، ولا يُياديهِ أحدٌ، ولا
يُباريه أحدٌ، ولا يُجاريه أحدٌ، وذلك إذا برز في الخلال كلها"^(٢).

وكما يكون هذا المقتدى به فرداً بعينه، فقد يكون جماعة، كما في قوله
تعالى حكاية عن قول المترفين من الأمم المكذبة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا
عَلَيْنَا لَنَكُونُ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

على أن هذا المقتدى به وإن يكن في الأصل أعياناً مشاهدة، يقتدى

(١) أضواء البيان (٨/ ٩٣).

(٢) لسان العرب مادة: قدا.

بها ويتابعها الناس على سلوكها؛ فربما يتوسع الأمر حتى يصير السلوك بذاته، ومجموع العادات؛ قدوة للناس، بغض النظر عن أعيان أصحابها، وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٠] إيماء لهذا المعنى، حيث جعل تعالى محل الاقتداء بمجموع الهدى الذي كان عليه الأنبياء، قال البغوي: "﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ يريد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتقدم ذكرهم: ﴿فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةٌ﴾ فاختص طريقهم بالاقتداء"^(١).

الثاني: المقتدي، وهو: من يتابع غيره في سلوكه.

الثالث: السلوك الذي يقع فيه الاقتداء، وهذا السلوك - فعلاً كان أو قولاً - عام يقع في الخير والشر.

وسياًتي - إن شاء الله تعالى - بسط الحديث عن هذه الأركان الثلاثة للقدوة، وضرب الأمثلة لها، عند الكلام عن أسلوب القرآن الكريم في ذكر القدوة الحسنة^(٢).

الفقرة الثانية: نظائر لفظ القدوة.

هناك نظائر لكلمة القدوة وردت في القرآن الكريم، يدور معناها حول معنى القدوة، وهي:

١ - الأسوة:

الإسوة: القدوة، ويقال أُنْتُس به أي اقتد به وكن مثله، وفلان يَأْتِسِي

(١) معالم التنزيل (٢/ ٤٢).

(٢) في المبحث الثاني عند ذكر أسلوب القرآن الكريم في ذكر القدوة الحسنة.

بفلان أي يرضى لنفسه ما رضى به، ويقتدى به، والقوم أسوة في هذا الأمر أي حالهم فيه واحدة، وتأسى به: اتبع فعله واقتدى به^(١).
قال الراغب الأصفهاني: "الأسوة والإسوة كالقدوة والقدوة، وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره، إن حسناً وإن قبيحاً، وإن ساراً وإن ضاراً، ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فوصفها بالحسنة"^(٢).

٢ - الإمام:

تدور كلمة الإمام في اللغة على معنى من يؤتم به ويتابع، من رئيس أو غيره، والجمع أئمة، أصله من الأم، وهو القصد، تقول: أمه يؤمّه أمّا، وأئمة وتأممه.
ويقال للرجل الجامع للخير أمة، وكل من كان على دين الحق مخالفاً لسائر الأديان فهو أمة وحده^(٣).
قال الراغب الأصفهاني: "الإمام المؤتم به، إنساناً كأن يقتدى بقوله أو فعله، أو كتاباً، أو غير ذلك، محققاً كان أو مبطلاً"^(٤).

(١) ينظر: تاج العروس ومختار الصحاح، مادة: أسو، والمحكم ولسان العرب، مادة: أسا.

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني، مادة: أسا.

وسياتي في المطلب الأول من المبحث الثاني؛ تعليق على مسألة استعمال لفظ الأسوة في القدوة السيئة.

(٣) ينظر: المحكم وتاج العروس، مادة: أمم، والقاموس المحيط، مادة: أمه، إصلاح الوجوه والنظائر مادة: أمة.

(٤) مفردات الراغب الأصفهاني، مادة: أم.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الإمام يُرَادُ به من يَتَّبِعُهُ غيره ويُقْتَدَى به، سواء في الخير أو الشر، ففي الخير يقول تعالى في وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وفي الشر يقول تعالى في وصف قوم فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْفُكْكَانِ الَّذِي يَصْرُوفُ﴾ [الفصل: ٤١].

٣- الإتياع:

تبع الشيء تَبَعًا وتباعاً في الأفعال، وتبعْتُ الشيء تَبْعًا سرت في أثره، وتقول: تَبِعْتُ القوم تَبْعًا وَتَبَاعَةً بالفتح، إذا مشيت خلفهم، والتابع المثالي، وتابع بين الأمور واطر ووالى^(١).

قال الراغب الأصفهاني: "يقال: تَبِعَهُ وَاتَّبَعَهُ فَمَا أَثَرُهُ، وذلك تارة بالارتسام والانتثار، وعلى ذلك قوله: ... ﴿قَالَ يَقْوِمُ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ... ويقال أَتَّبَعَهُ إذا لحقه قال: ﴿فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ .."^(٢).

وهذا الإتياع يكون في جانب الخير كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَقْوِمُ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠] كما يكون - أيضاً - في جانب الشر، يقول تعالى مخبراً عن تبرؤ الأتباع والمتبوعين: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي فَنَتَّبِعَهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

٤- المثل:

يأتي المثل في القرآن الكريم مراداً به - كما يقول الراغب الأصفهاني:

(١) ينظر: المحكم وتاج العروس واللسان والقاموس المحيط، وإصلاح الوجوه والنظائر، مادة: تبع.

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني، مادة: تبع.

"مقابلة شيء بشيء هو نظيره، أو وضع شيء ما ليحتذى به فيما يفعل"^(١). وقد ورد في القرآن الكريم ذكر المثل مرادًا به الحالة التي تُحتذى كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحریم: ١١] قال القرطبي: "ضرب ... مثلاً بامرأة فرعون، ومريم بنت عمران، ترغيباً في التمسك بالطاعة، والثبات على الدين، وقيل: هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة، أي لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون، حين صبرت على أذى فرعون"^(٢).

فهذه الألفاظ الأربعة: الأسوة، والإمام، والإتباع، والمثل، هي نظائر لكلمة القدوة تقاربها في المعنى والدلالة، وتأتي في جانب الخير وجانب الشر.

وهناك ألفاظ أخرى لها دلالة قريبة من معنى القدوة، مثل:

١. التقليد.

٢. المحاكاة.

غير أنها لما لم ترد في القرآن الكريم؛ أعرضت عنها، على اعتبار أن هذه الدراسة دراسة قرآنية.

(١) مفردات الراغب الاصفهاني، مادة: مثل.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢١/ ١٠٤).

المطلب الثاني: أهمية القدوة الحسنة، ومجالاتها.

في هذا المطلب فقرتان:

الفقرة الأولى: أهمية القدوة الحسنة.

الفقرة الثانية: مجالات القدوة الحسنة.

الفقرة الأولى: أهمية القدوة الحسنة.

إن من أنجح الوسائل في إعداد الفرد وتكوينه نفسياً واجتماعياً، وأخلاقياً؛ وجود القدوة الحسنة، فهي عامل كبير في صلاح الإنسان وفساده، بل وصلاح المجتمع من ورائه، فما المجتمع إلا أناسٌ جمعهم زمان ومكان واحد.

إن من السهل على المربين أن يضعوا منهجاً من المناهج الإصلاحية، لكن من الصعب أن يتحقق ذلك المنهج أو تلك الفكرة واقعاً مشاهداً، إذا لم يكن هناك أفراد يطبقونه، ويعملون به، بحيث يراه الناس ماثلاً أمامهم، ومحسونه واقعاً مشاهداً، يتأثرون به ويكون دافعاً لهم على الاقتداء والتأسي، أما بقاء المنهج في عالم الأوراق، وبين الأسطر، وعلى الأرفف، فإنه وإن طال به الزمن؛ فإن أحداً لن يلتفت إليه أو يتأثر به.

ولذا كان من بالغ حكمة الله تعالى - وهو الحكيم العليم - أن أنزل الشرائع والتكاليف، وجعل لها حملة يعملون بها، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فلم تنزل شريعة من غير رسول يبلغها للناس، يقتدون به

ويستنون بسنته.

ولما تعجب كفار قريش من كون الرسول بشراً من جنسهم غير مختلف عنهم، جاء الجواب كاشفاً عن جهلهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٨، ٩] وقال عن قوم نوح: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٧] وعن قوم صالح: ﴿أَبَشَرًا مِمَّا وَحَدَّا نَبِيعُهُ إِنَّآ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القمر: ٢٤] وهذا التعجب منهم والإنكار؛ جهل بحقيقة الرسالة ومقصودها، ذلك أن الله لو أرسل ملكاً؛ فهل يعقل أن يتلقوا عنه! أو يأنسوا إليه! إن قوام الإنسان لا يطيق مجرد المشاهدة، فضلاً عن التلقي عنه أو الأنس به، بل إن الأنبياء الكرام كانت الملائكة تأتيهم - في غالب الأحوال - في صورة بشر عاديين "وحيث كان شأنهم كذلك، وهم المؤيدون بالقوى... فما ظنك بمن عداهم من آحاد الناس" (١).

أضف لذلك أنه لو كان الرسول ملكاً؛ لكان للقوم شبهة في عدم اتباع الرسول، متعللين بأنه لا قدرة لهم على أن يفعلوا فعله، أو يقتدوا بهديه.

(١) إرشاد العقل السليم (٣/١١٢).

وقد أخرج البخاري [١ كتاب بدء الوحي، الباب الثاني] واللفظ له، ومسلم [٤/١٨١٦ كتاب الفضائل] أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشده عليّ - فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول).

ولما سُئِلَت عائشة - رضي الله عنها - عن خلق النبي ﷺ قالت: (إن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن)^(١) إنها إجابة دقيقة مختصرة شاملة، ضمت في معانيها منهج القرآن الشامل ومبادئه السامية، حقاً إن النبي ﷺ كان الترجمان الحيّ لمبادئ القرآن، والصورة الناطقة لتوجيهاته.

ولما تأثر الصحابة وسلف هذه الأمة بهذه القدوة الحسنة، المتمثلة في شخص الرسول ﷺ، فأشربتها قلوبهم، وامتألت بها أرواحهم؛ انتشر الإسلام في كثير من الممالك النائية، والبلاد الواسعة، في شرق الدنيا وغربها، من غير قتال ولا إكراه، بل كان مجرد السلوك العملي لما يعتقدونه؛ كافياً لتأثر الناس بهم وبمعتقدهم.

وأمرٌ آخر؛ وهو أن وجود القدوة؛ مما يعين على الصبر، وتحمل المشاق والصعاب التي تُعرض للمرء، مهما تكن، ولهذا فقد كان من مقاصد ذكر قصص الأنبياء السابقين، وسياق ما جرى لهم؛ تثبيت فؤاد النبي ﷺ وأصحابه من ورائه، يقول تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] قال السعدي: "لما ذُكِرَ في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذُكِرَ؛ ذُكِرَ الحكمة في ذُكْر ذلك فقال: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي قلبك ليطمئن ويثبت، وتصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالافتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به"^(٢) ويقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَأُولُوا الْعَزْمِ مِنْ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [٥١٣/١] كتاب المسافرين [من حديث سعد بن هشام بن عامر.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص: ٤٤١.

الرُّسُلِ ﴿[الأحقاف: ٣٥] قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ، مُثَبِّتَهُ عَلَى الْمَاضِي لِمَا قَلَّدَهُ مِنْ عِبَاءِ الرِّسَالَةِ، وَثَقُلَ أَحْمَالِ النُّبُوَّةِ ﷺ، وَأَمَرَهُ بِالِاتِّسَاءِ فِي الْعِزْمِ عَلَى النُّفُوزِ لِدَلَالَتِهِ؛ بِأُولَى الْعِزْمِ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ رِسْلِهِ، الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى عَظِيمٍ مَا لَقُوا فِيهِ مِنْ قَوْمِهِمْ مِنَ الْمَكَارِهِ، وَنَالَهُمْ فِيهِ مِنْهُمْ مِنَ الْأَذَى وَالشَّدَائِدِ (فَاصْبِرْ) يَا مُحَمَّدُ عَلَى مَا أَصَابَكَ فِي اللَّهِ، مِنْ أَذَى مَكْذِبِكَ مِنْ قَوْمِكَ الَّذِينَ أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ بِالْإِنِّذَارِ (كَمَا صَبَرُوا أَوَّلُوا الْعَزْمَ مِنَ الرُّسُلِ) عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَالِانْتِهَاءِ إِلَى طَاعَتِهِ، مِنْ رِسْلِهِ الَّذِينَ لَمْ يَنْهَهُمْ عَنِ النُّفُوزِ لِأَمْرِهِ، مَا نَالَهُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّةٍ "(١).

وهذا المنهج التربوي القرآني أخذ الرسول صحابته به، فقد روى خباب بن الارت قال: ((شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا! ألا تدعو الله لنا! قال: كان الرجل فيمن قبلكم، يحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فَيَشَقُّ بِأَثْنَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليَتَمَنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، لكنكم تستعجلون)) (٢).

إن المجتمعات البشرية اليوم كأشد ما تكون حاجة إلى قدوة حسنة، تهديها سبيل الرشاد، وتأخذها إلى شاطئ الأمان، في ظل تلك النماذج

(١) جامع البيان (١١ / ٣٢٠).

(٢) أخرجه البخاري [٧٤٠ كتاب المناقب، باب علامات النبوة].

الضالة، التي انخدع بها كثير من الناس، ولا سيما الشباب، فتقاذفتهم الأمواج ذات اليمين، وذات الشمال، تارة يشرقون، وأخرى يغربون، يأخذون من كل ثقافة قشورها، يتطلعون إلى نماذج بشرية خاوية من معاني البر والهدى، ليس فيها إلا أنها وليدة الإعلام وآلته، من رحمه خرجت، وتحت عينه صنعت.

الفقرة الثانية: مجالات القدوة الحسنة.

القدوة بهذه الرؤية - التي أشرنا إليها في المطلب السابق - فيها معنى الشمول والإحاطة لمجالات الحياة كلها، وميادينها جميعاً، ذلك أن حقيقة سلوك الاقتداء قائم على معنى المتابعة والتأثر بالمقتدى به، في سلوكه وأفعاله، والإنسان له في كل حالة سلوكٌ وأفعالٌ ربما كانت محلاً لتأثير الناس واقتدائهم بها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن القدوة تطبيق عملي لسلوك واتجاهات معينة، والمجتمع له في كل مجال من مجالات الحياة قيمة وتصور ما، وكم هي المجالات واسعةٌ رحبةٌ لسلوك القدوة؛ في مجال العلم والعبادة، والأخلاق والسلوك، والتعامل والمعاملات مع الناس، وحتى العادات الاجتماعية إنما تتناقلها المجتمعات بفعل سلوك الاقتداء والمحاكاة، بل إن هذا ليصدق على كل سلوك اجتماعي.

فالعالم والمعلم والمربي - مثلاً - قدوة في مجتمعه وبين طلابه، فعليه أن يكون فعالاً لا قوالياً، يأمر بالخير ويسابق إليه، وينهى عن الشر ويحذر

مقاربتة، وإلا كان قدوة سيئة لطلابه ومريديه، وهذا نبي الله شعيب عليه السلام يبين لقومه ضلال هذا المسلك، واعوجاج سبيله، مما يتنزه عنه العاقل: ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمُحِبَّكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] قال ابن سعدي: "إن من تكملة دعوة الداعي وتماها؛ أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به، وأول مُنتهِ عما ينهى غيره عنه، كما قال شعيب عليه السلام ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمُحِبَّكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ﴾ ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾" (١).

والوالدان قدوة في بيتهما، وبين أفراد أسرتهما، فيجب عليهما المحافظة على شعائر الدين، والخلق الحسن، وتربية الأبناء بالسلوك العملي، القائم على القدوة الحسنة، فإن الأطفال أول نشأتهم يتعلقون بأبائهم وأمهاتهم، ويرونهم قدوة لهم في كل سلوك، حتى لو كان سلوكاً غير حميد، بل قد يؤدي هذا التأثير بهما إلى الضلال عن الحق، وإلى هذا المعنى يشير الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُتَبَّجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءً هل تحسون فيها من جدعاء)) (٢) قال الطيبي فما

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٣٥.

(٢) أخرجه البخاري [١٠١٥] كتاب التفسير، باب لا تبديل لخلق الله [ومسلم ١٦٢٤/٤] كتاب القدر.

قال النووي في شرح مسلم (٢٩٠ / ١٦): "وأما قوله: (كما تُتَبَّجُ البهيمةُ بهيمةً) فهو بضم التاء

نقله ابن حجر عنه: "والمراد تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلة، والتهيؤ لقبول الدين، فلو ترك المرء عليها لاستمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها؛ لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس، وإنما يُعَدَّل عنه لآفة من الآفات البشرية كال تقليد"^(١).

ومثل هذا حال الراعي مع رعيته؛ فهو قدوة لهم في القيام بالأمانة، وسياسة الناس بالعدل، وتقوى الله فيما استرعاه، وإلى هذا المعنى يشير علي بن أبي طالب فيما قاله لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، لما حُجِّلَ مَالٌ عَظِيمٌ مِنَ الْخُمْسِ إِلَيْهِ، قال عمر: (إِنْ قَوْمًا أَدَوُا الْأَمَانَةَ فِي هَذَا لَأُمْنَاءُ، فَقَالَ لَهُ عَلِي: عَفَفْتَ فَعَفَّتِ الرَّعِيَّةُ، وَلَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعُوا)^(٢).

وفي المبحث القادم - إن شاء الله - سنشير إلى نماذج ومجالات القدوة الحسنة ذُكرت في القرآن الكريم.

= الأولى، وفتح الثانية، ورفع البهيمة، ونصب بهيمة، ومعناه: كما تلد البهيمة بهيمة (جمعاء) بالمد، أي مجتمعة الأعضاء سليمة من نقص لا توجد فيها (جدعاء) بالمد وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء".

(١) فتح الباري (٣/ ٢٤٩).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨/ ٢٦٨).

المطلب الثالث: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة الحسنة، وآثارها.

في هذا المطلب فقرتان:

الفقرة الأولى: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة الحسنة.

الفقرة الثانية: آثار القدوة الحسنة.

الفقرة الأولى: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة الحسنة.

الإنسان مدني بطبعه، يتفاعل مع البيئة المحيطة به، فيتأثر بها، ويؤثر فيها، ولهذا فإن سلوك الاقتداء والتأثر بمن يحيط به؛ سلوك فطري، نابع من أصل تكوين الإنسان، لا يمكن للمرء أن يسلم منه؛ لأنه رغبة ملحة تدفع البشر جميعاً، مهما كانت أعمارهم، أو مستوياتهم العلمية، ومكانتهم الاجتماعية، إلى سلوك الاقتداء والتقليد لغيرهم، وإن اختلفت درجات التأثير والاقتداء، وتنوعت مجالاته وميادينه^(١).

وأهم الأسس النفسية التي تُحفِّز وتدفع إلى هذا السلوك؛ الإعجاب بمن يُقتدى به، هذا الإعجاب الذي يكون الدافع له؛ ما يتميز به المقتدى به من صفات خاصة، تجعله قادراً على التأثير في غيره، حتى يقتدي به، ويتأثر بسلوكه^(٢).

(١) ينظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص: ٢٥٧.

(٢) يعبر علماء النفس عن هذه الشخصية التي يكون تأثيرها على غيرها شديداً بالجازبية الشخصية أو (كاريزما: Charisma) ينظر: كتاب: كاريزما السلم الوظيفي.

وقد يترقى الأمر من أن يكون سلوك الاقتداء مجرد إعجاب بالمقتدى به، إلى أن يكون مبنياً على قناعة وثقة بأهليته، حتى يكون ذات الاقتداء والاتباع عبادة وديناً، وفي هذا المعنى يقول تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] ويقول تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [المتحنة: ٤].

وفي مثل هذه الحالة يخرج سلوك الاقتداء، عن أن يكون مبنياً على مجرد الإعجاب والتقليد الذي قد يقع دون وعي وإدراك، إلى أن يكون سلوكاً يمارسه الإنسان بوعي وإدراك، راجياً به تحقيق أهداف ومقاصد معينة، وهذه حقيقة التأسّي والاقتداء بالأنبياء والرbanين من أتباعهم.

الفقرة الثانية: آثار القدوة الحسنة.

تضمن ما ذكرناه في مبحث: أهمية القدوة؛ إشارة إلى طرف من آثار القدوة ونتائجها، وفي هذا المطلب نذكر إجمالاً أبرز آثار القدوة الحسنة ونتائجها:

أولاً: نشر القيم والمبادئ.

إن وجود قدوة حسنة تحقق قيماً ومبادئ يعترف بها المجتمع، يؤدي إلى نشر تلك القيم والمبادئ في ذلك المجتمع، ويكون حافزاً لأفراده لتطبيقها، متبعين لهذا القدوة، ومتأسين به في سلوكه، وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ فيما رواه عبد الله بن جرير - رضي الله عنه - ((من سن في الإسلام سنة حسنة؛ فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من

أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فَعْمَلُ بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا يَنْقُصُ من أوزارهم شيء))^(١).

ثانياً: إعطاء الدليل العملي على إمكان التطبيق.

ذلك أن وجود تطبيق عملي للقيم والمثل؛ يُعطي الأفراد والمجتمعات الدليل العملي على إمكان تطبيق تلك القيم والمثل في الواقع المشاهد، بحيث تزول عن النفس شبهة صعوبتها، وخداها بعدم إمكان تطبيقها.

والحقيقة أن من أصول مبعث الرسل والأنبياء، تطبيق الشرائع والسنن الإلهية، وهذا المعنى هو ما يشير إليه التوجيه الرباني لعباده بأخذ الأسوة بنبيه محمد ﷺ، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولما تعجب المشركون من كون الرسل بشراً من جنسهم؛ رد الله عليهم بما يدل على جهلهم بحقيقة الحكمة الإلهية العظيمة في جعله بشراً من جنسهم يأنسون إليه ويقتدون به، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾^(٨) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيسُونَ﴾^(٩) ﴿١٠﴾^(٢).

(١) أخرجه مسلم [٤/ ١٦٣٥ كتاب العلم].

(٢) ينظر في هذا المعنى: كلام أبي السعود في إرشاد العقل السليم (٣/ ١١٢).

ثالثاً: التطبيق العملي الصحيح.

ومع أن وجود القدوة الحسنة في المجتمع، يعطي الدليل العملي على إمكانية التطبيق - على ما تقدم - فإنها تعطي أيضاً صورة التطبيق العملي الصحيح، بحيث تصبح القدوة نموذجاً صحيحاً للتطبيق العملي للقيم والمبادئ والشرائع، وبهذا تصير أسلوباً من أساليب التعلم، وطريقة من طرق إيصال العلم، يقول الرسول ﷺ مقررّاً هذا المعنى مؤكداً عليه: (صلوا كما رأيتموني أصلي)^(١) ويقول: (خذوا عني مناسككم)^(٢) وإذا علمنا أن هذا الأمر - منه عليه الصلاة والسلام - جاء متعلقاً بأعظم شعيرتين عمليتين في الإسلام - الصلاة والحج - علمنا مدى أهمية وجود القدوة التي تعطي التطبيق العملي الصحيح للشرائع والقيم.

ويتأكد هذا إذا أدركنا مدى تفاوت الناس في فهم الخطاب، وتأويل الكلام، تفاوتاً قد يوقع في الاختلاف، والتطبيق العملي مانع من التفاوت في الفهم، عاصم من هذا الاختلاف.

رابعاً: التأسي والمتابعة.

ومن الآثار الطيبة التأسي والمتابعة للقدوة الحسنة في سلوكه وعمله؛ بما يعين المرء على القيام بواجباته، ويعزّيه فيما يلاقه من مصائب الدنيا، أو يواجهه من مشاقها ومصاعبها، فكثيراً ما نجد في سلوك القدوة الحسنة

(١) أخرجه البخاري [١٢٨ كتاب الأذان، باب الأذان للمسافرين] عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [٩٤٢ / ٢ كتاب الحج] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

دافعاً لنا على التأسي به والمتابعة له، بما يعيننا على القيام بواجباتنا الدنيوية أو الآخروية، وحتى فيما نلاقه من مصاعب ومشاق الحياة.

وعلى هذا المعنى العظيم يربي الله - عز وجل - نبيه ﷺ فيأمره بالتأسي بمن سبقه من الأنبياء والرسل أولي العزم، يقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَأُولَا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] قال ابن سعدي: "أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم" (١).

وهذا المعنى الذي تربي عليه النبي ﷺ أثر في سلوكه العملي، فها نحن نراه يتأسى بصبر موسى عليه السلام على ما يلاقه من الأذى، ففي الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين أثر النبي ﷺ أناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، فأثرهم يومئذ في القسمة، قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله، فقلت: والله لأخبرن النبي ﷺ فأتيته فأخبرته فقال: ((فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى، قد أودى بأكثر من هذا فصبر)) (٢) قال

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص: ٧٣١.

(٢) أخرجه البخاري [٦٤٠ كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي يعطي المؤلفه قلوبهم...]

ومسلم [٦٠٨/٢ كتاب الزكاة].

ابن حجر تعليقاً على هذا الحديث: "وفيه أن أهل الفضل قد يغضبهم ما يقال فيهم مما ليس فيهم، ومع ذلك فيتلقون ذلك بالصبر والحلم، كما صنع النبي ﷺ اقتداء بموسى عليه السلام"^(١).

(١) فتح الباري (١٧/ ٢٧٦).

المبحث الثاني :

أسلوب القرآن في عرض القدوة الحسنة.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: أسلوب التعبير عن القدوة الحسنة.

المطلب الثاني: أصناف القدوة الحسنة.

المطلب الثالث: صفات القدوة الحسنة.

المطلب الرابع: صفات المقتدي.

المطلب الخامس: طريقة الدعوة إلى أخذ القدوة.

تنوع أسلوب القرآن الكريم في عرض القدوة الحسنة، كما تنوع كذلك في عرض النماذج لها، ومن خلال استعراض الآيات، يمكننا تبين أسلوب القرآن الكريم في عرض القدوة الحسنة، من خلال خمسة مطالب:

المطلب الأول: أسلوب التعبير عن القدوة الحسنة.

المطلب الثاني: أصناف القدوة الحسنة.

المطلب الثالث: صفات القدوة الحسنة.

المطلب الرابع: صفات المقتدي.

المطلب الخامس: طريقة الدعوة إلى أخذ القدوة.

المطلب الأول: أسلوب التعبير عن القدوة الحسنة.

باستقراء آيات القرآن الكريم؛ يتبين أن التعبير عن القدوة الحسنة جاء على ضربين:

الأول: التعبير بلفظ القدوة الصريح.

الثاني: التعبير بلفظ يؤدي معنى اللفظ الصريح.

• التعبير بلفظ القدوة الصريح.

ورد لفظ القدوة في القرآن الكريم في موضعين، أحدهما في جانب الخير، والآخر في جانب الشر، فأما الذي في جانب الخير فهو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠] قال ابن كثير: "يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء، والذرية، والإخوان، وهم الأشباه (الذين هدى الله) أي هم أهل الهدى لا غيرهم، فبهدهم اقتد"

واتبع، وإذا كان هذا أمر للرسول ﷺ فأتمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به^(١).

• التعبير بلفظ يؤدي معنى اللفظ الصريح :

قد تقدم الحديث عند التعريف اللغوي للقدوة؛ ذكر عدد من النظائر لكلمة القدوة، التي يقرب معناها من معنى القدوة، وهي: الأسوة، والإمام، والمثل.

وقد ذكرنا هناك تعريف هذه الألفاظ واستعمالاتها اللغوية، ونشير هنا إلى وجه دلالتها على معنى القدوة الحسنة:

• الأسوة:

ورد لفظ الأسوة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، كلها تشير إلى القدوة الحسنة وهي:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤].

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٩٩).

وأما الذي في جانب الشرف فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾^(١٦) [المتحنة: ٦].

هذه هي المواضع الثلاثة للفظ الأسوة التي وردت في القرآن الكريم، ودلالاتها على معنى القدوة الحسنة ظاهرة.

ومما هو جدير بالإشارة؛ أن لفظ الأسوة لم يرد في القرآن الكريم إلا في جانب الخير دون الشر، خلافاً للفظ القدوة، ولباقي الألفاظ التي هي في معنى لفظ القدوة، وهذا يقوي أن يكون لفظ الأسوة إنما يستعمل في جانب الخير دون الشر، خلافاً لما ذهب إليه بعض أهل العلم ممن نقلت كلامهم عند تعريف الأسوة؛ وأنها تكون في الخير والشر، معتمدين في ذلك على أن الأسوة في المواضع الثلاثة وصفت بالحسنة، ولا توصف بذلك إلا إن كانت ترد كذلك في جانب الشر، وهذا وإن كان محتملاً؛ إلا أن عدم استعمالها في القرآن الكريم، أو السنة النبوية، أو كلام العرب - فيما وقفت عليه - في جانب الشر؛ يدل على أنها لا تستعمل إلا في جانب الخير فقط، ويكون وصف الأسوة بالحسنة في تلك المواضع الثلاثة؛ وصفاً كاشفاً مؤكداً لما يفهم من ذات اللفظ.

• الإمام.

ورد لفظ الإمام في مواضع عدة من القرآن الكريم، مراداً به من يُقتدى به في الخير، فمرة جاء بلفظ: إمام، وذلك في مواضع:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١٢٤) [البقرة: ١٢٤]

قال الطبري: "إني مُصَيِّرُكَ للناس إماماً، يُؤتم به ويُقتدى به" (١).

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧] ونحوه في سورة الأحقاف، يقول تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا يُنذِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [١٢] ونلاحظ هنا أن الوصف جاء للكتاب نفسه، قال أبو السعود عند كلامه عن آية هود: "أي مؤتماً به في الدين، ومقتدى" (٢).

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنَ وَاجْعَلْ لِّلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ١٢] قال ابن عاشور: "سألوا لأنفسهم بعد أن وفقهم الله إلى الإيمان؛ أن يجعلهم قُدوةً يقتدي بهم المتقون" (٣).

ومرة جاء بصيغة الجمع: أئمة، في موضعين:

الأول: عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ﴾ [٧٣]

(١) جامع البيان (١٨/٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (١٨/٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٧٠/١٠).

[الأنبياء: ٧٣] قال قتادة: "جعلهم الله أئمةً يُقتدى بهم في أمر الله" (١).

والثاني: عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَائِنَا يُوفُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] قال الطبري: ".. وأريد بذلك في هذا الموضع أنه جعل منهم قادة في الخير، يؤتم بهم، ويهتدى بهديهم" (٢).

ومرة جاء بلفظ: أمة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] قال ابن كثير: "فأما الأمة، فهو الإمام الذي يُقتدى به" (٣).

• المثل:

ورد لفظ المثل في القرآن الكريم مراداً به الحالة التي تُتخذى ويقتدى بها في جانب الخير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١] قال ابن عاشور: "جاء أحد المثلين للذين آمنوا مثلاً لإخلاص الإيمان، والمثل الثاني لشدة التقوى، فكانت امرأة فرعون مثلاً لمتانة إيمان المؤمنين، ومريم مثلاً للقانتين؛ لأن المؤمنين تبرؤوا من ذوي قرابتهم الذين بقوا على الكفر بمكة" (٤).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (١٨/ ٤٧٢).

(٢) جامع البيان (٢٠/ ١٩٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦١١).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ١٩٣).

المطلب الثاني: أصناف القدوة الحسنة.

حفل القرآن الكريم بنماذج كثيرة للقدوة الحسنة، ترجع في مجملها إلى صنفين:

الأول: الأنبياء.

الثاني: الصالحون من أتباع الأنبياء.

فأما الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فلا شك أن الأخذ بسنتهم، والسير في طريقهم؛ مطلب أصيل في رسالات الله جميعاً؛ ذلك أنهم المبلغون عن الله تعالى، قد بعثهم عز وجل ليكونوا قدوة لأمتهم، يتأسون بسنتهم، ويقتدون بهديهم.

وأما الصالحون من أتباعهم، فترسم هديهم والتأسي بطريقتهم، هو في حقيقته اقتداءً بالأنبياء أنفسهم؛ لأن ما هم عليه من الهدى والرشاد - الذي حمل الناس على الاقتداء بهم - إنما كان لاتباعهم رسل الله، وسيرهم على طريقتهم.

وقد جاءت آيات القرآن الكريم مقررّة هذا الأمر، داعيةً إليه، يقول الله تعالى - بعد أن ذكر عدداً من الأنبياء ملحقاً بهم الصالحين من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم - : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] قال أبو السعود: "فاختصّ هداهم بالاقتداء، ولا تقتد بغيرهم، والمراد بهداهم؛ طريقتهم في الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وأصول الدين دون الشرائع القابلة للنسخ، فإنها بعد النسخ لا تبقى هدى" (١).

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٣٩٩).

ونلاحظ أن هذا الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم، جاء بعد ذكر ثمانية عشر نبياً، مبتدئاً بنوح أول الرسل، مروراً بإبراهيم أبي الأنبياء، ووصولاً إلى آخرهم عيسى، عليهم - جميعاً - الصلاة والسلام، وفي هذا دلالة عميقة على الحبل الموصول بين رسل الله تعالى، تختلف أماكنهم، وتتباعد أزمانهم، ويبقى هداهم ودينهم واحد.

وملاحظ آخر كريم تدل عليه هذه الآية، أشار إليه المفسرون، يقول ابن عاشور: "وفي إفراذه بالذكر، وترك عدّه مع الأولين؛ رمز بديع إلى فذاذته، وتقرّد مقداره، ورّعّي بديع لحال مجيء رسالته بعد مرور تلك العصور المتباعدة أو المتجاورة، ولذلك قُدّم المجرور وهو: (بهذاهم) على عامله، للاهتمام بذلك الهدى؛ لأنّه هو منزلتك الجامعة للفضائل والمزايا، فلا يليق به الاقتداء بهدّى هو دون هُداهم"^(١).

ومثل هذه الآية الكريمة الدالة على الاقتداء بالأنبياء وأتباعهم؛ قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [المتحنة: ٤] كما يقول تعالى عن عيسى عليه السلام وأتباعه من الحواريين: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ

= واختلف المفسرون في متعلق الاقتداء بهم، في أي شيء يكون، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: الاقتداء بهم في توحيد الله تعالى، ونفي الشرك ومحاربه.

القول الثاني: الاقتداء بهم في جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة الكاملة.

القول الثالث: الاقتداء بشرائعهم إلا ما خصه الدليل.

القول الرابع: حملة على كل ما ذكر إلا ما دل الدليل على تخصيصه.

ينظر: جامع البيان (٥١٨/١١) ومفاتيح الغيب (٣٦٥/٦) والجامع لأحكام القرآن (٣٤/٧).

(١) التحرير والتنوير (٢٣/٥).

ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴿١٤﴾ [الصف: ١٤] قال ابن سعدي: "... ثم هيّج الله المؤمنين بالافتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾" (١).

وهذه الآيات تدل - أيضاً - على أن القدوة كما تكون تأسيّاً بالأفراد؛ فقد تكون أيضاً بالجماعة، ويكون هذا باتّباع منهجهم، وسلوك طريقتهم، ولهذا قال تعالى في شأن مخالفة ما عليه جماعة المؤمنين: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۚ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿١١٥﴾ [النساء: ١١٥].

على أن الافتداء قد يخرج عن أن يكون متابعة لأفراد أو جماعة، إلى أن يكون ذات الكتاب المنزل إماماً يقتدي به الناس، وهذا ما يقرره قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۖ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۚ مِنَ الْأَحْزَابِ ۖ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٧﴾ [هود: ١٧] ونحوه في سورة الأحقاف، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا

وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كُتِبَ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٢﴾ [الأحقاف: ١٢] قال ابن كثير: "أي ومن قبل هذا القرآن كتاب موسى، وهو التوراة (إِمَامًا وَرَحْمَةً) أي: أنزل الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٥٢.

لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان؛ قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن" (١).

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٨).

المطلب الثالث: صفات القدوة الحسنة^(١).

لما كانت القدوة الحسنة بهذه المنزلة الرفيعة، والمكانة العالية؛ كان لزاماً أن يكون أهلها قد بلغوا رتبة عالية من الكمال البشري، جعلتهم أهلاً لئن يقتدي بهم غيرهم، وهذا ما تنطق به آيات القرآن الكريم، إذ هي حافلة بعدد من الصفات التي تؤهل المرء حتى يكون قدوة حسنة، وإماماً يتبع في الخير.

ويمكن تبين تلك الصفات واستنباطها عن طريق النظر في الآيات التي أشارت إلى لفظ القدوة، أو الألفاظ الأخرى التي تدل على معنى القدوة الحسنة، والسياق الذي وردت فيه، والشخصيات التي ذكرت مقترنة بالدعوة إلى أخذ القدوة منها.

وسنذكر تلك الآيات متبعين لها بما تدل عليه من صفات، لنخلص بعدها إلى أبرز الصفات التي تؤهل المرء ليكون إماماً، وأسوة يقتدى به. يقول تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٠) شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿[النحل: ١٢٠-١٢١] فهذه الآيات الكريمة تشير إلى جملة من الصفات هي^(٢):

(١) ينظر بالإضافة إلى هذا المطلب، ما ورد في هذا البحث في مطلب: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة.

(٢) ينظر في تفسير الآيات، وما دلت عليه من هذه الصفات: جامع البيان (٣١٦/٧١) ومفاتيح

الغيب (٤٨٤/٩) وتفسير القرآن العظيم (٦١١/٤) وإرشاد العقل السليم (١٦٣/٤).

- لزوم طاعة الله تعالى مع الخضوع والخشوع له، وهذا معنى القنوت المشار إليه في الآيات الكريمة.
 - الاستقامة على دين الله والميل عن الضلالة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
 - الإخلاص لله تعالى، وهو معنى نفي الشرك عنه في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
 - شكر الله تعالى على نعمه، وهو معنى قوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْتَبَنَّهُ﴾.
- وأوقفك على آية أخرى في سورة السجدة، أشارت إلى صفات أخرى حسنة لمن يقتدي به الناس، حيث ذكر تعالى أنه اصطفى من بني إسرائيل أئمة يقتدى بهم، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(١) [السجدة: ٢٤] وهذه الآية الكريمة تشير إلى صفتين أخريين، هما:
- الصبر على فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه.
 - التصديق بآيات الله، واليقين بها.
- قال أبو السعود تعليقا على قوله تعالى: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ قال: "هي (لما) التي فيها معنى الجزاء، نحو: أحسنت إليك لما

(١) ينظر في تفسير الآية وما دلت عليه من هذه الصفات: معالم التنزيل (٦/٣٠٩) وروح

المعاني (١٦/٢٠) والتحرير والتنوير (١٧/١٨١).

جئتني، والضمير للأئمة، تقديره: لما صبروا جعلناهم أئمة... والمراد: صبرهم على مشاق الطاعات، ومقاساة الشدائد في نصره الدين، أو صبرهم عن الدنيا^(١) وهذا المعنى أخذه بعض العلماء فقال: بالصبر واليقين؛ تنال الإمامة في الدين^(٢).

وإذا تأملنا هذا الصفات وجدناها ترجع إلى معنى كلي يتنظمها جميعاً، وهو العبودية لله تعالى، ونعني بها العبودية التامة المتضمنة كمال الخضوع والانقياد، والتجافي عن كل مظاهر الشرك، مع ما يتطلبه ذلك من الصبر الجميل لبلوغ هذه الرتبة التي تجعل المرء أهلاً لأن يكون قدوة في الخير، يتأسى به الخلق.

وهذا المعنى هو حقيقة الابتلاء الذي نال به خليل الله إبراهيم عليه السلام منزلة الإمامة في الدين، يشير لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] والمفسرون وإن اختلفت عباراتهم في تحقيق المراد بمعنى الكلمات التي ابتلي بها خليل الله، فإنها تشير إلى قيامه بما أمره تعالى به أتم قيام، ولهذا قال ابن كثير: "قوله تعالى: (بكلمات) أي: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تُطلق، ويراد بها الكلمات القدرية، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ. وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾

(١) إرشاد العقل السليم (٥/٣١٥).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٧/٣٧٢).

وتُطلق ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمرًا أو نهيًا، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهن. قال: (إني جاعلك للناس إمامًا) أي: جزاء على ما فعل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر، جعله الله للناس قدوة وإمامًا يُقتدى به، ويُتخذى حذوه^(١) وقد أكد تعالى هذا المعنى في جوابه - عز وجل - على سؤال إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة في ذريته من بعده، حيث قال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

ويدل على معنى هذه العبودية التامة التي تجعل المتصف بها قدوة وإمامًا؛ ما ورد في وصف إبراهيم وبنيه - إسحاق ويعقوب - عليهم السلام بالعبودية، في سياق تقرير إمامتهم في الدين يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

ولعل هذا يفسر لنا ذكر دعاء عباد الرحمن ربهم؛ بأن يجعلهم أئمة للمتقين، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ١٢] حيث ذكر تعالى وصفهم بالعبودية (عباد الرحمن) في أول سياق صفاتهم، ثم عدَّ كثيرًا من صفاتهم التي يجمعها ما أشرنا إليه من معنى العبودية التامة لله تعالى، وختم

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٠٥).

ذلك بذكر دعائهم ربهم أن يجعلهم أئمة للمتقين، فكأن تلك الصفات تبلغ بهم درجة الإمامة في الدين.

وقبل أن نختم الكلام عن صفات القدوة يحسن التنبيه على ثلاثة أمور:

الأول: أن كل صفة حسنة فيمن أمر الله أن يُقْتَدَى بها، هي مما يحسُنُ أن يتحلّى الإنسان بها ويقتدي بأهلها، وهذا الذي ذكرناه من صفات القدوة الحسنة؛ هو أرفع تلك الصفات وأكملها، ولا يعني أن عداها من صفاتهم الحسنة ليست محلاً للقدوة والتأسي.

الثاني: أن هذه الصفات التي أشرنا إليها؛ هي في أعلى درجات الكمال الإنساني، بحيث جاء التعبير القرآني عن المتصف بها بلفظ الإمام، والجانب اللغوي الذي أشرنا إليه - في أول البحث - يكشف شيئاً من هذه الحقيقة، حيث يكون الإمام جامعاً للخير، يقوم مقام الجماعة الكثيرة من الناس.

وهي بهذا المعنى في أرفع كمالات البشر، وقليل من يدرك أعلاها، ولهذا فأهلها يتفاوتون فيها، وعندئذ يكفي أن تكون معياراً لصفات القدوة الحسنة، فبقدر ما في المرء منها يكون الاقتداء به.

الثالث: أنه ليس بلازم أن يكون الأسوة الحسنة مُبرَّأً من كل عيب، سالماً من كل نقص، فإن هذا ليس بمستطاع؛ لما جبل عليه البشر من نقص، دل عليه أن الله تعالى لما جعل خليله إبراهيم عليه السلام أسوة للمؤمنين - وهو الموصوف بأعلى صفات القدوة - استثنى من ذلك ما وقع منه عليه

السلام لما استغفر لأبيه، فلم يجعله موضعاً للأسوة، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحة: ٤] مع أن الله تعالى قد بين عذر إبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه، إذ كان ذلك منه عن وعدٍ وعد به أباه، رجاء أن يهتدي إلى الحق، حتى تبين له أنه عدو لله؛ ف تبرأ منه، وترك الاستغفار له، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] قال السعدي بياناً لمعنى نهى الله للمؤمنين عن الاستغفار للمشركين: "فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين؛ لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه؛ فقد حقت عليهم كلمة العذاب... ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه ﴿عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾" (١)

(١) تيسير الكريم المنان ص: ٣٥٣.

المطلب الرابع: صفات المُقتدي.

إن يكن بلوغ درجة القدوة رفيع المقام، لا يرقى إليه إلا من تحلى بجميل الصفات، وكريم الخصال؛ فإن التوفيق للاقتداء، وأخذ الأسوة بمن سلف من أئمة الهدى والرشاد؛ شرف لا يبلغه إلا من كان فيه من الصفات ما يدل على صدقه في تحري الحق، وحرصه على التوفيق إليه.

وإذا نظرنا في الآيات الكريمة الواردة في الاقتداء؛ سنجدتها تشير إلى صفتين رئيسيتين، يجب أن يتحلى بهما من يريد الاقتداء والتأسي، وقد جاء ذكرهما في سياق الدعوة إلى أخذ الأسوة، بالنبي ﷺ، وخليل الله إبراهيم ومن تبعه من المؤمنين:

الصفة الأولى: رجاء ثواب الله وخشية عقابه.

وقد ورد ذكر هذه الصفة في موضعين؛ الأول عند قوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ...﴾

[الأحزاب: ٢١] والموضع الثاني في شأن إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ

الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦﴾ [المتحنة: ٦] وهذه الآيات الكريمة

فيها إشارة إلى أن التأسي في الخير؛ منوط برجاء المتأسي ثواب الله تعالى وخشية عقابه، وما يتبع ذلك من صحة نيته وسلامة قصده، ولهذا ذكر

اليوم الآخر معطوفاً على رجاء الله تعالى، قال الألوسي: " (لَمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) أي: يؤمل الله تعالى وثوابه، كما يرمز إليه أثر ابن عباس - رضي

الله تعالى عنهما - وعليه يكون قد وضع (اليوم الآخر) بمعنى يوم القيامة

موضع الثواب؛ لأن ثوابه تعالى يقع فيه، فهو - على ما قال الطيبي - من إطلاق اسم المحل على الحال، والكلام نحو قولك: أرجو زيداً وكرمه، مما يكون ذكر المعطوف عليه فيه توطئة للمعطوف وهو المقصود، وفيه من الحسن والبلاغة ما ليس في قولك: أرجو زيداً كرمه على البدلية ... " (١).

الصفة الثانية: ذكرُ الله كثيراً.

وهذه الصفة جاء النص عليها في آية الأحزاب، يقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] ونلاحظ هنا أن هذه الصفة جاءت معطوفة على الصفة الأولى: (لَمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) وهذا فيه إشارة إلى أن التأسّي والاقتداء؛ يحتاج إلى كثرة ذكرِ الله تعالى، ومداومةٍ عليه، قال أبو السعود: "وَقَرَنَ بِالرَّجَاءِ ذَكَرَ اللَّهِ (كثيراً) أي: ذكراً كثيراً، أو زماناً كثيراً، فإن المشابرة على ذكره تعالى؛ تؤدي إلى ملازمة الطاعة، وبها يتحقق الإئتساء برسول الله ﷺ" (٢).

وبهذا يظهر لنا أن هاتين الصفتين؛ هي أعظم ما ينبغي أن يتحلى به من يريد الاقتداء بسير المصطفين الأخيار، إذ التأسّي بأصحاب هذه المقامات العالية أمر عظيم، يحتاج معه المرء إلى باعث قوي عليه، ولا أعظم معيناً من الإخلاص لله، ودوام الصلة به - عز وجل -، قال الشوكاني: "وجمع بين الرجاء لله والذكر له، فإن بذلك تتحقق الأسوة الحسنة برسول الله صلى

(١) روح المعاني (١٦/ ٦٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٥/ ٣٢٧) ونقله عنه الألويسي في روح المعاني (١٦/ ٧٠) وأشار إلى معناه الشوكاني في فتح القدير (٦/ ٣١).

الله عليه وسلم" (١).

وهذه الآيات الكريمة التي تشير إلى صفات المقتدي بأهل المقامات العالية، المتأسي بهم، فيها إيحاء - أيضاً - أن سلوك القدوة يجب أن يكون عن وعي وإدراك، وليس مجرد تقليد ومحاكاة، فإن الرجاء المشار إليه فيها لا يكون إلا بقصد وإدراك، ولهذا وصف تعالى هذا السلوك بأنه قدوة وأسوة، ودعا المؤمنين وأرشدتهم إليه.

(١) فتح القدير (٦ / ٣١).

المطلب الخامس: طريقة الدعوة إلى أخذ القدوة الحسنة.

جاءت آيات القرآن الكريم داعية إلى أخذ القدوة والأسوة الحسنة

بطريقتين:

الطريق الأول: الدعوة الصريحة لأخذ القدوة.

الطريق الثاني: الدعوة غير الصريحة.

فأما الدعوة الصريحة لأخذ القدوة، فيدل عليها لفظ: القدوة، والأسوة، والإمام، فهذه الألفاظ ذاتها تدل على معنى الاقتداء والتأسي. كما مر بنا..

وهذه الألفاظ مع دلالتها الصريحة على معنى القدوة، فقد اقترن بها ثناءً على من ذكر، وبيان أن فيهم أسوة حسنة لمن يقتدي بهم، وأنهم أئمة هدى يتابعون على طريقتهم، وأن السالك سبيلهم؛ مُتَّبِعٌ طريق الحق، سالكٌ سبيل الرشاد، ولهذا وُصِفَتِ الأسوة بالنبي ﷺ بالحسنة، وسيُقَتَّ مساقُ الثناء والتعظيم، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] ومثله في شأن إبراهيم عليه السلام ومن تبعه من المؤمنين، إذ قال تعالى عنهم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [المتحنة: ٤].

وقد استدل بهذه الآية أهل العلم على مشروعية التأسي بأفعال النبي ﷺ، قال ابن كثير: "هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ، في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي

بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره، ومصابرته، ومرابطته، ومجاهدته، وانتظاره الفرج من ربه - عز وجل - صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين" (١).

وكذا الشأن في وصف إبراهيم عليه السلام بالأمة والإمام، يقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] فهذه الألفاظ مع دلالتها الصريحة على معنى القدوة؛ فقد جاءت في سياق الثناء على المذكورين وأنهم محل الاقتداء والتأسي والاتباع.

بل قد وردت الدعوة إلى أخذ القدوة بصيغة الأمر الصريح، وذلك عند قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْدَرُ﴾ [الأنعام: ٩٠]

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٦٢٦)

هذا وقد اختلف أهل العلم من المفسرين والأصوليين في دلالة الآية على حكم أفعال النبي المجردة، على أربعة أقول:

القول الأول: أن فعله المجرد دال على الإباحة.

القول الثاني: أنه دال على الاستحباب.

القول الثالث: أنه دال على الوجوب.

القول الرابع: يتوقف فيه فلا يدل على حكم حتى يعرف بعينه.

ينظر تفصيل ذلك في: أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٢٢٤) والمستصفى (٢/ ١٩٢) والإحكام لابن حزم (٢/ ١٤٠) وأصول السرخسي (٢/ ٨٨) والمحصول (٣/ ٢٢٩) والجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٦٥).

قال ابن كثير بياناً لهذا المعنى: "أي: اقتد واتبع، وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ، فأتمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به" (١).

وفي معناه أمره تعالى لصحابة رسول الله والمؤمنين؛ أن يكونوا مثل أنصار عيسى ابن مريم في استجابتهم لدعوته عليه السلام، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ قال ابن سعدي: "... ثم هيج الله المؤمنين بالافتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾" (٢).

وأما الدعوة غير الصريحة لأخذ القدوة، فقد وردت في القرآن الكريم في سياق الثناء على أولئك الذين هم محل القدوة، حيث نجد آيات القرآن الكريم تدعو إلى الأخذ بسيرة أولئك الصالحين، والتأسي بهم، وذلك عن طريق الثناء على سيرهم، والإشادة بمواقفهم، والقرآن الكريم حافل بنماذج رائعة من أتباع الأنبياء، فيها ثناء عظيم عليهم، مثل ما ورد في خبر طالوت وجنوده، ومثل خبر مريم ابنة عمران، ومؤمن آل فرعون، ومؤمن القرية في سورة يس، وغيرهم كثير مما ورد في القرآن الكريم، وسيأتي - إن شاء الله - ذكر مزيد من النماذج على هذا في المبحث الخاص بنماذج القدوة ومجالاتها.

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٩٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٥٢.

ومما هو جدير بالإشارة أن آيات القرآن الكريم، وهي تعرض تلك النماذج لا تشير - في غالب الحال - إلى اسمها أو مكانها أو زمانها، وإنما يكون الاهتمام بمواقفها مجردة عن زمانها ومكانها، حتى يكون الاعتبار بالمواقف، بعيداً عن شخوصها زماناً ومكاناً، وحتى تكون تلك المواقف مثلاً يُحتذى به غير مرتبط بمكان أو زمان.

ومن الأمثلة الظاهرة على ذلك؛ الآيات الكريمة التي نزلت إثر غزوة أحد، وما فيها من تعقيب على ما حصل من بعض الصحابة من ضعف عن القتال، لما سمعوا صارخاً بمقتل رسول الله ﷺ لتنزل آيات عظيمة تُؤسس لمعنى حقيقة الجهاد والبذل لهذا الدين، وإنه لا يرتبط بأشخاص وإن علا مقامهم، وجلت أقدارهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأٌ مُّوجِلٌ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رَيْثُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ

الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٦] قال ابن عاشور: "وقوله: (وكأين من نبي قاتل) عبرة بما سلف من صبر أتباع الرسل والأنبياء، عند إصابة أنبيائهم أو قتلهم، في حرب أو غيره، للمماثلة الحاليين، فالكلام تعريض بتشبيه حال أصحاب أحد بحال أصحاب الأنبياء السالفين؛ لأنَّ محلَّ المثل ليس هو خصوص الانهزام في الحرب.

وأما التشبيه فهو بصبر الأتباع عند حلول المصائب، أو موت المتبوع"^(١).

ومن صور الدعوة غير الصريحة إلى أخذ القدوة؛ جعل المقتدى به مثلاً يحتذيه المؤمنون، ويتأسون به، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ ﴿١٢﴾ [التحریم: ١١-١٢] قال ابن عاشور: "وجاء أحد المثليين للذين آمنوا؛ مثلاً لإخلاص الإيمان، والمثل الثاني لشدة التقوى، فكانت امرأة فرعون مثلاً لمتانة إيمان المؤمنين، ومريم مثلاً للقانتين؛ لأن المؤمنين تبرؤوا من ذوي قرابتهم الذين بقوا على الكفر بمكة"^(٢).

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٣٩).

(٢) المصدر السابق (١٥/ ١٩٣).

المبحث الثالث:

مجالات القدوة الحسنة ونماذجها.

المطلب الأول: مجال الدعوة إلى الله تعالى.

المطلب الثاني: المجال الأسري.

المطلب الثالث: المجال السياسي.

المطلب الرابع: المجال العسكري.

المطلب الخامس: مجال الصبر.

المطلب السادس: مجالات متنوعة.

مما سبق دراسته في هذا البحث يتضح لنا؛ أن سلوك الاقتداء فيه معنى الشمول لمجالات الحياة، والإحاطة بتطبيقاتها؛ ذلك أن حقيقة سلوك الاقتداء قائم على معنى المتابعة والتأثر بسلوك ما، سواء كان قولاً أو فعلاً، والإنسان له في كل حالة وموقف سلوك وأفعال، فمجالات القدوة على هذا؛ متنوعة تنوع سلوك الإنسان، متعددة تعدد التطبيقات التي يمر بها، في شتى مواقفه وحياته.

وصورة هذا الشمول في مجالات القدوة، والتنوع في تطبيقاتها، ظهرت جلية في آيات القرآن الكريم، وهي تعرض لنماذج القدوة الحسنة، حيث رأينا فيها من التنوع والتعدد؛ ما يجعلها عصية على الحصر، ويكفي في هذا المقام، الإشارة إلى نماذج القدوة في الأنبياء الذي ذكرهم الله في كتابه، ومن تأمل تلك المواقف التي قصها الله تعالى عنهم؛ لم يشك أن مجالات القدوة تشمل كل تطبيقات الحياة، وجميع مظاهرها، من عقائد وعبادات، إلى سلوك ومعاملات، وهذا ما يجعلنا نحتار في تلك القدوات، أي مواقفها نذكر، وأياها ندرس، وكل مواقفها قدوة، وكل تصرفاتها أسوة.

ويؤكد هذا - أيضاً - أن دعوة القرآن الكريم لأخذ القدوة الحسنة، جاءت مطلقة غير مقيدة، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَةً﴾ [الأنعام: ٩٠]

بل حتى الاستثناء الذي ورد في شأن استغفار خليل الله إبراهيم عليه السلام لأبيه، يؤكد هذا المعنى؛ لأن الله إنما استثنى حادثة بعينها، فنهى

المؤمنين عن الاقتداء بها، يقول تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ
وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ
لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۖ﴾
[المتحنة: ٤] .

وإذا كان الحال كذلك؛ فإننا سنكتفي بذكر أبرز المجالات العامة،
التي ورد في القرآن الكريم ذكر نماذج للقدوة فيها، مع الإشارة إلى أبرز
الأمثلة على تلك المجالات، ولفت النظر إلى موطن القدوة فيها، وعلمنا
بسعتها يَحْمِلُنَا على الاختصار في عرضها، وحسبنا أن نضع اليد على أبرز
مواطن القدوة فيها.

ويحسن بنا قبل ذكر تلك المجالات هنا التأكيد على ثلاثة أمور:
الأول: أن تقسيم المجالات وتصنيفها؛ مرده الاجتهاد والاستنباط،
فيمكن لمن أراد أن يغير في هذا التقسيم، ويستنبط غيره.
الثاني: لم يكن المقصود من ذكر هذه الأمثلة الاستقصاء في دراستها،
فمثل ذلك يطول به هذا البحث، والاختصار فيه مقصود، وإنما أردنا لفت
النظر إلى محل القدوة في تلك النماذج، ووضع اليد على موطن القدوة فيها.
الثالث: أن بعض نماذج القدوة - ولا سيما الأنبياء - تتعلق بأكثر من
مجال، ورغبة في الاختصار اقتضت منها على أبرز مجال يتعلق بها، ولم أرد
تتبع مجالات القدوة فيها.

المطلب الأول: مجال الدعوة إلى الله تعالى.

مجال الدعوة إلى الله تعالى أوسع المجالات في جانب القدوة؛ لسعة ما يتعلق به، فهو يتعلق بمجالات الحياة كلها، وقد تحدث القرآن الكريم عن الدعوة والدعاة، فذكر مناهج الدعوة وأساليبها، وبين طرقها ووسائلها، والقرآن الكريم هو المصدر الأول في معرفة مناهج الدعوة إلى الله وأساليبها على مرّ العصور.

إن هداية الناس وإرشادهم إلى الطريق المستقيم هو أشرف وظائف البشرية ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] يكفي أهلها شرفاً أنها مهمة الأنبياء وأتباعهم، يهلك عليها أولهم، فيأخذها عنه آخرهم.

والقدوة الحسنة من الوسائل المهمة في تبليغ الدعوة، وإيصال الحق للناس، ذلك أن السيرة الحسنة، والأفعال الحميدة، تجذب أنظار المدعوين وتوقع في نفوسهم الأثر البليغ.

وإن سيرة أبناء الإسلام من تجار وغيرهم خير شاهد على مدى أهمية القدوة الحسنة، وبالع أثرها في الناس، فإن كثيراً من أقطار العالم تتذكر تلك الفئة المؤمنة التي نشرت الإسلام في ربوعها، عن طريق السلوك الحسن والأسوة الطيبة.

وفي هذا المجال سنذكر نماذج للقدوة من سير المصطفين الأخيار من الأنبياء وأتباعهم، تكون زاداً للداعية إلى الله، وعوناً له في القيام بمهمته.

أولاً: معالم عامة للقدوة من سيرة الأنبياء عليهم السلام.

إن كل مواقف الأنبياء والرسل - في الأصل - هي مجال للقدوة في جانب الدعوة إلى الله تعالى، وكل مواقفهم التي ذكرها الله تعالى في كتابه تمثل جانباً من جوانب الدعوة إلى الله تعالى، ومجالاً من مجالاتها.

ولهذا فإن حصر مواطن القدوة في سيرتهم، وما قص الله من خبرهم، يطول جداً إذ كل سيرتهم موطن للقدوة، وفي أمر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام بالاعتداء بهم والسير على طريقته في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠] إيهاء إلى هذا المعنى.

وإذا كان الحال كذلك فإننا نكتفي من سيرهم عليهم الصلاة والسلام في مجال الدعوة إلى الله تعالى، بإبراز مراسم الهدى فيها، ومعالم القدوة منها، وإن من أبرز معالم القدوة في مجال الدعوة إلى الله تعالى من سيرتهم المعالم التالية:

المعلم الأول: العقيدة هي محور دعوة الأنبياء.

إن المتتبع لسياق دعوة رسل الله يجد أن هناك منطلقاً تبدأ منه كل الدعوات، ومُنْتَهَى ترجع إليه كل الرسالات، وهو الأساس الذي تُبنى عليه، والمحور الذي تدور حوله، إنه أمر عقيدة توحيد العبادة له - عز وجل - يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

لقد قص الله عن أنبيائه الكرام قولهم لقومهم أول دعوتهم: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] كل نبي يأتي إلى قومه ليقرر هذه

الحقيقة، أول دعوته، ومبدأ بعثته، لتكون الدعوة إلى التوحيد والعقيدة الصافية، ومعالجة الانحراف في تصورها أو مظاهرها في حياة الناس وسلوكهم، هي محور الرسالة ومنطلقها.

والعبودية الحققة لله تعالى التي أرسل بها أنبياء الله، لا تعني - فقط - الإقرار بالربوبية والخلق؛ فهذا لم يَنَازَع فيه العقلاء، ولم ترسل من أجله الأنبياء، إنما أرسلت الرسل لِتُعَبِّدَ الناسَ لربها في كل مظاهر الحياة، في الأحوال الشخصية، والشؤون الاجتماعية، والنظم السياسية والاقتصادية. ومن هنا ندرك فداحة الخلل في تصور بعض الناس للعبودية، وأنها تقتصر على أداء بعض شعائر العبادة، إن الأمر أوسع من ذلك وأشمل، إن العبودية لله تعني مطلق الذل والخضوع لله تعالى في كل شؤون الحياة جليها ودقيقها، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

المَعْلَم الثاني: تقويم السلوك في ضوء العقيدة.

الناظر في دعوة رسل الله الكرام يلحظ أنهم يبدؤون بدعوة قومهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة والخلوص من الشرك، ثم ينتقلون إلى معالجة الانحراف العملي في سلوك أممهم، كل بحسب الانحراف الذي وقع فيه قومه، استمع لقول نبي الله تعالى شعيب وهو يدعو قومه: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا أَلْمِكِيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحْطَرُ﴾

[هود: ٨٤].

هذا هو المنهج العام لدعوة أولئك الرسل الذي كشفته سيرتهم، وهو الحق إذ لا يمكن الفصل بين السلوك والمعتقد، فالعقيدة هي الروح، والسلوك العملي هو البدن، فكيف الفكك.

وهذا المنهج القائم على هذين الركنين هو المنهج الرباني، وأي دعوة إصلاحية تخل بأحد هذين الركنين، سيصيبها من الفشل والنقص في مسيرتها الإصلاحية، بقدر ما أخلت وفرطت فيهما.

المعلم الثالث: المعرفة الدقيقة بأحوال المدعوين.

دلت آيات القرآن الكريم على أن أنبياء الله كانوا على علم تام بأحوال مجتمعاتهم، ومعرفة دقيقة بسلوك أممهم، لا تخفى عليهم مظاهر الانحراف فيهم وعلاماته.

وتلك المعرفة ليست معرفة سطحية، بل هي تفصيلية عميقة، ولذا كان حديثهم مع قومهم، حديث العارف ببواطن الأمور، المطلع على خفايا الأحوال، استمع مثلاً إلى قول لوط عليه السلام وهو يُجابه قومه بفضح سلوكهم المنحرف، ويكشف لهم بعض أخلاقهم الذميمة: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَأَنْتَوْنَ الرِّجَالُ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتَوْنَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨ - ٢٩].

إن من الواجب على الداعية إلى الله تعالى أن تكون معرفته دقيقة

بحال مجتمعه، حتى تكون تصوراته صحيحة، تحكي واقعه، وحتى يكون علاجه مناسباً لحال أمته، مليئاً حاجتها.

المعلم الرابع: تنوع أساليب الدعوة وطرقها.

جُبلت طبائع الخلق على اختلافٍ وتنوع، يُورثُ اختلاف الآراء، وتباين الأهواء، فضلاً عن عوامل الزمان والمكان، وأثرهما البالغ على الناس، ولهذا فقد كشفت سيرة الأنبياء الكرام عن تنوع في أساليب دعوتهم، وتعددٍ في طرقها، ولم يحصر أحد منهم نفسه في أسلوب محدد لا يبارحه، وما ذاك إلا لاختلاف عوامل التأثير في الناس، فما يؤثر فيك قد لا يؤثر في غيرك، ولهذا وجدنا نوحاً عليه السلام يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، يخص أحدهم بحديثه تارة، ويعممهم تارة أخرى، يُرغبُ لعلهم يطمعون، ويُرهبُ لعلهم يحذرون، مستعيناً بشتى البراهين والآيات، في الأفاق والأنفس، استمع لخبر الله تعالى وهو يذكر هذا التنوع في دعوة نوح عليه السلام: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

﴿١﴾ قَالَ يَفْقَهُمُ إِنِّي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُضُوا عَنكُم مَّنَاسِكَكُمْ ﴿٣﴾ يَفْقَهُمُ لَكُمْ مِّنْ دُونِكُمْ وَلِيُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ تُؤْخَرُوا عَنْهَا ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا فِيْءَآذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَتَلَوْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيْءٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيْهِ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ

﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ الْاَرْضِ سَاطًا ﴿١٩﴾ لِيَسْأَلُكُم مِّنْهَا سُبُلًا فِجَاًا ﴿٢٠﴾ [نوح: ٢٠ - ٢٠].

إن تقدير الدعاة والمربين لهذا التفاوت والاختلاف أمر بالغ الأهمية؛ حتى يُستعمل مع كل أحد ما يناسبه من الأساليب والوسائل، ونُخطئ كثيراً حينما نحصر أنفسنا في مسلك اعتدناه، وطريقة ألفناها، مع أن المجالات رحبة والوسائل كثيرة.

المعلم الخامس: التجرد لله في دعوتهم.

وأما تجرد أنبياء الله تعالى في دعوتهم وجهادهم، من أغراض الدنيا ومطامعها ومطامعها، فمعلم ظاهر، وسمة بارزة لكل الرسل والأنبياء، فهذا نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، قد أخبر الله تعالى عنهم أن كل واحد منهم قال لقومه أول دعوته: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩] لقد أكد رسل الله على هذه الحقيقة مراراً وتكراراً، حتى يقطعوا كل ذريعة ودسيعة لأعداء الله الصادين عن سبيله، يوهمون بها الناس، أن أنبياء الله أهل مطامع دنيوية، وهذا خاتم الرسل وإمامهم يقول: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وعلى الدعاة والمصلحين أن يكونوا على حذر من الفرية التي يرددها أعداء الله تعالى حينما يصمونهم أو يصفونهم بأنه أصحاب مطامع دنيوية ومطامع سياسية.

المعلم السادس: الصبر والمصابرة.

من أبرز مجالات القدوة في دعوة الأنبياء؛ ما كان عليه أنبياء الله من صبر ومصابرة في دعوة الناس، ومراغمة الباطل، وتحمل الأذى الذي ينال

أحدهم في ماله وولده، أو في نفسه، ذلك الأذى الذي ربما شمل التضييق والمحاصرة، أو الطرد والإبعاد، وربما تعداه إلى القتل وسفك الدم، فهذا طريق الأنبياء من سلكه سيصيبه فيه ما أصابهم، ويناله من الأذى بقدر ما فيه من الإيمان، يقول تعالى مقررًا هذه السنة داعيًا أصحاب رسول الله إلى الاقتداء بمن سلف من الأنبياء وأتباعهم: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

بل هذا خاتمهم وإمامهم عليه الصلاة والسلام يأمره ربه أن يتأسى بإخوانه من أولي العزم في صبرهم لأمر الله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

يقوي هذا الصبر في أنبياء الله ويؤازره؛ توكل مطلق على الله، وتفويض كامل إليه، وحسن ظن به - عز وجل - مما جعلهم لا يخشون أذى قوي، ولا مكر عدو، استمع لهذا التحدي البالغ، والاستعلاء بالحق، وفرط الثقة بالله تعالى من نبي الله هود عليه السلام، وهو فرد واحد، يتحدى قومه وهم من هم قوة وبطشاً: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) من دُونِهِ فَكَيْدُو فِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

المعلم السابع: العاقبة للمتقين.

ومعلم بارز من دعوة الأنبياء كشفت عنه آيات القرآن الكريم، أن الله تعالى قد جرت سنته بوعده منه أن العاقبة للمتقين، وأن الأرض له

يورها من يشاء من عباده، قد يتأخر نصر الله، وتشتد وطأة المحن على المؤمنين، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، قد يتأخر نصر الله تعالى لأن أهل الإيمان لم يحققوا شرط النصر والتمكين، وربما حتى يصح ويصدق إيمانهم وتعلقهم بربهم، أو ربما حتى تقوم الحجة على الكافرين والمكذبين، لكن نصر الله إذا نزل كان الغاية في إعزاز أوليائه والبطش بأعدائه يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

ثانياً: الجدل بالتي هي أحسن، الأسلوب الأصيل في الدعوة إلى الله. إن الحوار والمجادلة هي الأسلوب الأصيل في الدعوة إلى الله تعالى، ولعل من أهم ما يواجه الداعية إلى الله تعالى محاورة أهل الضلال، ولا سيما أهل الطغيان منهم، فمجادلة مثل هذا النوع تحتاج إلى مؤهلات خاصة، فالثبات، والقوة، وسرعة البديهة، عناصر أساس في صفات المحاور، لا سيما عندما يكون الجدل مع أهل السلطة والنفوذ، أصحاب القدرة على البطش بخصومهم.

وحيثما يذكر الحوار والجدال؛ فلا توجد شخصية يصدق عليها أنها أوفى نموذج للقدوة في هذا المجال، بما تمتلكه من مؤهلات الحوار بكفاءة وجدارة كخليل الله إبراهيم عليه السلام.

لقد عرضت آيات القرآن الكريم إبراهيم عليه السلام في صورة الرجل الحليم العاقل، الذي أوتي قدراً كبيراً من البلاغة، وقدرة عجيبة على المحاورة والجدل بالتي هي أحسن، بأسلوب ومنهج لا نظير له، يوافق

العقل ويوقظ الإحساس، ويلامس أوتار القلوب، ويخاطب المنطق، يستشهد بشتى الأدلة والبراهين من آيات الله في الأنفس والآفاق.

انظر إلى حوارهِ مع ذلك الملك الجبار العاتي^(١)، إنه يكشف لك سرعة البديهة عند الداعية إلى الله تعالى، يكشف لك سعة الأفق والفكر في عقلية عليه السلام، وأمرٌ آخر بالغ الأهمية وهو الثبات ورباطة الجأش في أصعب المواقف شدة وأكثرها خطراً.

وعند محاورته لقومه تتكشف لك القدرة الذهنية العجيبة، القدرة على حشد الأدلة المتنوعة، في ذاتها وغاياتها وسياقها، فيرصها لتكون أشبه بالجند المحتشدين لنصرته، كل يضرب في مجال، ويصيب من المخالف مقتلاً، مع التفنن البديع في الحوار، والتنوع المذهل في سياقاته وجوانبه. وأخيراً في حوارهِ مع والده يكشف لك تلك الشخصية الحانية الرفيقة الحليمة، في أسلوب هادئ دافئ، وعبارات رقيقة، تفيض رحمة وشفقة وبراً وإحساناً، مع ما تواجهه من استنكار واستكبار وتعنت.

ونقف الآن على آيات من القرآن الكريم تصور نموذجاً من نماذج القدوة في الحوار في مجال الدعوة إلى الله تعالى، يسترشد بها الدعاة ويستهدي بها المصلحون، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا

(١) الوارد في سورة البقرة، ويأتي قريباً ذكره.

يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿البقرة: ٢٥٨﴾. لقد سَكَّرَ هذا الملك بقوة السلطان، فقام يتناول على مقام الربوبية، ويدعي صفة من صفاتها، وذلك حينما أخبره إبراهيم عليه السلام بصفة من صفات الله تعالى "الإحياء والإماتة" وهي نعمة يستحق المنعم بها العبادة وحده، فما كان من هذا المخدوع بالقوة، المغرور بالقدرة إلا أن قال: "أنا أحيي وأميت، أقتل هذا فيموت، أو أعفو عنه فيحيا"^(١) وهذا منطق فيه عجرفة، سوغها قوة السلطة والنفوذ، لكن لننظر إلى موقف إبراهيم هل تلكأ أو تلغم؟ هل تردد أو تحير، أمام هذا التهديد المبطن من الطاغية الكافر، وهو يلوح بقدرته على قتله وسفك دمه؟ كلا، لقد كان ثابتاً حاضراً البديهة، سريع الجواب، فنقله نقلةً عجيبة، نقله إلى أفق أرحب، لا يستطيع معه هذا المكابر أن يتهادى في كبره.. فتحداه أن يغير نظام الشمس في طلوعها وغروبها ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ لينزل عليه هذا التحدي كالصاعقة تصرعه، فلم يُجر جواباً، ولم يجد مخرجاً، فَيَفْغُرْ فَاهُ وَيَشْخُصْ بصره، تعلوه الحيرة وترسم على وجهه الدهشة ﴿فَبَهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

إن على الدعاة إلى الله تعالى أن يعلموا أن حجج أهل الباطل واهية، لا تقف أمام قوة الحق وتأثيره، لكنها تحتاج إلى داعية قد تحصن بالعلم، وتسليح بالثبات، واستبطن البديهة، متوكلاً على ربه، مستنزلاً تأييده

(١) ينظر في معنى الآية: جامع البيان (٤٣٢/٥) ومعالم التنزيل (٣١٥/١) والمحرر الوجيز (٣١٣/١).

ومعونته.

ومن الأمور المهمة التي تؤخذ من هذه المجادلة، نوعية الحجج التي ذكرها إبراهيم عليه السلام، إنها حجج واضحة لا تعقيد فيها ولا تكلف، أمور عادية في هذا الكون الفسيح، كل الناس يشاهدها وكلهم يحسون بأثرها، يستوي في ذلك العالم والجاهل، والفقير والغني، وهذه المحسوسات مع بعدها عن التعقيد والتركيب إلا أنها تحمل في مضمونها وحقيقتها، سر هذا الوجود بحيث بهت الكافر أمامها.

ثالثاً: الداعية والمبادرة إلى الدعوة.

بعد أن تتضح معالم الهدى، ويتحدد للداعية هدفه، ويتسلح بالعلم، فلا مجال للإخلاد إلى الأرض والتسويق، واصطناع العوائق الوهمية أمام ميدان الدعوة، إن التأخر والتسويق لن يكسب الداعية إلا بلادة الذهن، وحب الركون وإلف الحياة الوادعة.

على الداعية إلى الله تعالى بعد أن يتسلح بالعلم ويتصور هدفه، أن ينزل إلى ساحة الدعوة، ليصارع قوى الشر في المجتمع، وإن أي تأخر بعد هذا لن يكون في صالح دعوته، إنما هو إمداد لأهل الغواية، وتخليّة للميدان من داعي الهداية.

لقد أخبر القرآن الكريم عن نفر تلقوا دعوة الحق، ومنها انطلقوا مباشرة إلى قومهم منذرين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ.

قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩-٣٢﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢] إنها حادثة عجيبة، تحدثت عن نوع غير معهود من الدعاة والمدعوين، فها هنا عالم آخر يفتح لنا آفاقاً رحبة في مجال الدعوة إلى الله تعالى، لا يقف عند حدود البشر، بل يتجاوزهم إلى عالم الأرواح اللطيفة.

لقد قص الله خبرهم وصورة من مبلغ تأثرهم بما سمعوا، وسرعة استجابتهم، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ إن هذا التعبير يلقي بظلاله على الحدث، فالسرعة والنفرة إلى الواجب بمجرد سماع آيات القرآن، معلم بارز في هذه الحادثة، وكم نحن بحاجة إلى هذه النوعية من المبادرة، فالهدى إذا اتضحت معالمه، كان التسويق والتأخير واصطناع العوائق الوهمية؛ ضرباً من الإخفاق وعدم التوفيق.

وحينما وعى الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى، كان الرجل منهم يسمع الآية أو الحديث فينطلق بها إلى قومه من غير تأخير، هذا ضمام بن ثعلبة لما قدم إلى النبي ﷺ وأخذ عنه أركان الإسلام، والحلال والحرام، كَرَّ عائداً إلى قومه، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال: بُسَّتِ اللَّاتُ والعزى! قالوا: مه يا ضمام! اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون، قال: ويلكم والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً، وأنزل كتاباً،

استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن إلهاً إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه، قال فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضرٍه رجل ولا امرأة إلا مسلماً^(١).
رابعاً: نُصْرَةُ الدعاة إلى الله.

لقد تولى دعاة الله تعالى مهمة هي أعظم المهام وأخطرها، مهمة تنوء دون حملها شمسُ الجبال الراسيات، ولهذا فهم بحاجة إلى من يؤازرهم في مهمتهم، ويعينهم في أداء رسالتهم، يحتاجون إلى أعوان لا يترددون في بذل كل غال في سبيل هذه الدعوة، أناس لا يهنون لما أصابهم في سبيلها، ولا يضعفون لعدوهم ولا يستكينون.

وفي القرآن الكريم يذكر الله تعالى نموذجاً كريماً من نماذج نصرة دعاة الله تعالى، والوقوف معهم حتى يبلغوا رسالات ربهم، يتمثل في حوارِ نبي الله عيسى عليه السلام، الذين امتدح الله نصرتهم لنبه، وأثنى على موقفهم، بل ودعا المؤمنين من هذا الأمة أن يكونوا مثلهم، ويقتدوا بهم في نصرة الله ورسوله، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف/١٤] لقد أثنى الله على نصرتهم لنبه، وقيامهم معه حتى يبلغ دعوة الله، يقول تعالى ذاكراً تلك النصرة لما أحس عيسى عليه السلام الكفر من قومه: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ

(١) أخرجه أحمد (٤٨٨/٥) وقال في مجمع الزوائد (٣٦١/١): "ورجال أحمد موثقون".

يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣] قال ابن كثير: "والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: من رجل يُؤويني على أن أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي، حتى وجد الأنصار فأووه ونصروه، وهاجر إليهم فأسوه ومنعوه من الأسود والأحمر، وهكذا عيسى ابن مريم، انتدب له طائفة من بني إسرائيل، فآمنوا به وآزره ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه" ^(١).

وفضلاً عن هذا فإن دعاة الحق يعترض طريقهم الشيطان بأوليائه وأعدائه من شياطين الإنس والجن، بالكيد والمكر تارة؛ وبالتهديد والتلويح بالعنف تارة أخرى، وربما كان دعاة الحق لا يأوون إلى قوة تمنع عنهم أذى الظالمين وبطشهم، وكثيراً ما وقف الناس موقف النظار يشاهدون دعاة الله تعالى يُكاد لهم، ويُمكر بهم، ويتعرضون للأذى والتضييق، وهم ساكتون سكوت الموت، لا ينصرون ولا يدفعون، غير أنه وإن تكن هذه حال غالب الناس، فهناك من يبذل نفسه وماله فدى لدعاة الله، يرخص ماله وعرضه في سبيل الله، وتهون عليه نفسه في ذات الله، وفي كتاب الله تعالى نموذج مشرق لهذه الفئة من الناس، يتأسى به المؤمنون، حيث ذكر الله تعالى خبر المؤمن من القرية في سورة يس ^(٢) يقول تعالى عنه: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٥).

(٢) ينظر في خبره: جامع البيان (٢٠/ ٥٠٤).

رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ [يس: ٢٠ - ٢٥] لقد كان من خبر هذا الرجل أن رأى قومه معرضين عن الحق، مبعدين في الضلال، عازمين على ارتكاب أشد الجرائم فظاعة وبشاعة، جريمة قتل رسل الله، ولهذا انتفض على قومه وسعى إليهم من أقصى المدينة، ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم على رسل الله، فصاح فيهم بهذه الموعظة الصادقة، وقام نصرته لله ورسله، فكان جزاؤه أن أدخله الله الجنة في نعيم مقيم، وجوار كريم، فهو نموذج مشرق للتضحية في سبيل الله ونصرة لدعائه.

ومن النماذج البارزة في مجال نصرته الدعوة إلى الله تعالى وقول كلمة الحق: مؤمن آل فرعون، الذي ذكر الله خبره في سورة غافر^(١)، يقول تعالى عنه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ [غافر: ٢٨] لقد جاءت هذه الشريعة لتُعَلِّي من شأن كلمة الحق، ولا سيما حين تقال في وجه ملك يرغب إليه الناس ويذهبون، حينها تكون كلمة الحق أمامه لها تبعاتها الخطيرة، خصوصاً إذا علمنا ما انطوت عليه نفوس أهل

(١) ينظر في خبره: تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٤٠).

السلطة من تسلط وتجبر، فحينما يقف أمامه رجل من سواد الناس، لا يملك من مقومات القوة المادية ما يدفع به عن نفسه، ويحجب عنها الأذى، ومع هذا كله يقف أمامه رابط الجأش، صادعاً بالحق، لا تأخذه في الله لومه لائم، حينها تكون هذه الكلمات منه هي أفضل الجهاد وأرفعها^(١).

ومما يجعلها أفضل الجهاد أنها صيحة تحذير جاشت بها نفس المؤمن، إذ يعتزم فرعون وملؤه الإقدام على أبشع جريمة، جريمة قتل موسى عليه السلام، فلا مجال بعد هذا للسكوت عن الباطل، والتواري بالإيمان، والإغضاء عن المنكر، لقد وجب الآن الوقوف في وجه الطاغية، وقول كلمة الحق، حتى وإن كان ثمنها ذهاب نفسه التي بين جنبيه، ليصيح فيهم بكل ما أوتي من قوة: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ﴿١٩﴾ إنها كلمة مدوية، كلمة عظيمة، في موقف عصيب، تستحق كل ذلك الاحتفاء والثناء الذي تضمنته آيات القرآن الكريم لها.

(١) أخرج أبو داود [٤٨٢/١٢] كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي [والتزمذي] ٣٤٥/٨ كتاب الفتن، باب أفضل الجهاد [وابن ماجة] ٣٧١/٢ كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [وأحمد] (١٩/٣) وغيره من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه. أ.هـ وذكر الارناؤوط في تعليقه على المسند شاهدين له، ثم قال عنه: حسن لغيره.

خامساً: الداعية وداء العجلة.

لقد اختار الدعاة إلى الله تعالى مواجهة الناس، مواجعتهم في شهواتهم وأهوائهم وملذاتهم، ونذروا أنفسهم لهذه المهمة، فلا ريب أن يلقوا الصد والتكذيب، والأذى والتضييق، فعليهم أن يحذروا اليأس والاستسلام، أن يحذروا إلقاء السلاح والتخلي عن المعركة، وترك ميدانها، والانزواء خلف الجدران، وترك المجتمع تتقاذفه أمواج الباطل، فذاك أمرٌ يقدر عليه كل أحد، وما أيسره..

وفي كتاب الله تعالى عاتب الله نبياً كريماً من أنبيائه^(١)، لما غضب على قومه، حين لم يستجيبوا له، فعجل في خروجه عنهم وهجره لهم، ولم يصبر حتى يحكم الله له، ولذا فقد نهى الله تعالى رسوله الكريم عن مثل هذه العجلة في مجال الدعوة فقال مخاطباً نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾^(٢) ﴿لَوْلَا أَن نَّدَارُكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾^(٣) ﴿فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٤) [القصص: ٤٨ - ٥٠] قال السعدي: "وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام، أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضباً لربه"^(٥) "إن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله حتى يأتي موعده في الوقت الذي يريده

(١) هو يونس بن متى، ينظر في خبره: تفسير القرآن العظيم (٥/٣٦٦).

(٢) تفسير الكريم الرحمن، ص: ٨٨١.

بحكمته، وفي الطريق مشاق كثيرة، مشقات دعوة الناس، ومشقات تكذيبهم، ومشقات الصبر على أذاهم، ثم مشقات إمساك النفس على هذا كله، راضية مستقرة، مطمئنة إلى وعد الله الحق.

سادساً: زوجات الدعاة.

إن مهمة الدعاة إلى الله مهمة عظيمة، تتطلب كثيراً من التضحية بالوقت والمال والجهد، تتطلب كثيراً من صفاء الذهن واجتماع القلب، ولهذا فهم بأشد الحاجة إلى أن تكون بيوتهم التي يأوون إليه مباءة أمن، وارفة الظلال، يستريحون فيها استراحة المحارب، تهدأ فيها أعصابهم، وتسكن فيها أرواحهم.

إن الداعية إلى الله تعالى لا يستطيع أن يتصدى للدعوة إلى الله تعالى خارج بيته، إذا لم يكن ذلك البيت واحة وارفة الظلال، لا يستطيع الداعية إلى الله تعالى أن يتقن القيام بمهمته، وهو مشغول الذهن بما يدور في بيته من خلافات أو منغصات، أرأيت محارباً يخرج إلى ساحة القتال وهو مشغول الذهن بحصونه الداخلية.

وفي كتاب الله تعالى نموذج كريم لنساء الداعية الأول محمد عليه الصلاة والسلام، حيث أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم آية التخير، التي تضمنت تخيير نسائه بين البقاء معه على قلة العيش وشظفه، وبين أن يسرحهن سراحاً جميلاً، فما كان منهن رضي الله عنهن - وهن العالمات بعظم المهمة التي يقوم بها النبي صلى الله عليه وسلم - إلا أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، على شظف العيش الذي يلاقينه في هذه

الدنيا، يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْكُمْ أُمِّعْكُنَّ وَأُسْرِحْكُنَّ سِرْلًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَلَئِنْ كُنتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩] إنه موقف كريم من نساء كريمات اخترن البقاء على شظف العيش والصبر على قلة أسباب الحياة، على زينة الدنيا ومتاعها، وتلك قدوة حسنة لزوجات الدعاة إلى الله تعالى.

إن زوجات الدعاة قد يلاقين شظف العيش وقلته، بل قد تجد الواحدة منهن إهمالاً من زوجها وعدم رعاية لها حق الرعاية، لانشغاله بالدعوة إلى الله تعالى، وقد ترى قريباتها ومن حولها في عيشة راضية لا يكاد الزوج يفارقهن، الأسباب لهن مهياة والأحوال مواتية، أما هي - فلأن زوجها داعية إلى الله تعالى - لا تلقى ذلك الاهتمام، وتلك الرعاية، لا يكاد الزوج يجلس إليها حتى يأتيه داعي النفرة إلى الدعوة، يغيب عنها الأيام والليالي، وربما الأشهر، ولو أنه لم يكن داعية لاستراحت من هذا كله، حقاً إن مثل هذا الشعور قد ينتاب كثيراً من زوجات الدعاة، بل قد يجدن في نصوص الشرع ما يعضد موقفهن.

ولكن هل نظرت هذه المرأة إلى موقف أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وتأملت الحامل لهن على اختيار الله ورسوله والصبر على قلة متاع الدنيا، والتضحية بأوقاتهن وسعادتتهن الخاصة من أجل الله ورسوله والدار الآخرة.

إن الدعاة إلى الله تعالى هم بأشد الحاجة إلى نساء يقفن بجانبهم،

ويذلّلن السبيل لهم، ويصبرن على مضاضة العيش، وضيق الحال، محتسبات عند الله تعالى راجيات ثوابه وفضله.

على نساء الدعاة إلى الله تعالى أن يعلمن أن من الصعوبة أن يواجه الداعية إلى الله تعالى هم الخارج وهم الداخل معاً، لن يستطيع الدعاة أن يواجهوا هم المجتمع وإصلاحه، وهم الأسرة المتمثل في المضايقة، وطول الشكوى، وكثرة التذمر من الحال، إن مثل هذا كفيل بأن يخلق اضطراباً في فكر الداعية، وتشويشاً في ذهنه، يمنعه من إتقان عمله، والقيام بواجبه.

ونحن إذ نطلب من زوجات الدعاة أن يضحين بحظوظهن من أزواجهن من أجل الله والدار الآخرة، فإننا لا ندعوها إلى ترك كل حقوقها وإهمالها، كلا.. لأن هذا حق فرضه الله تعالى لهن، إننا ندعوهن إلى التنازل عن الحظوظ والفضول عن قدر الحاجة، ندعوهن إلى الوقوف مع أزواجهن وإعانتهم على مهمتهم، ندعوهن إلى أن يجعلن البيت مكاناً يستريح فيه الداعية من هموم دعوته، ويلقي على أعتابه الأذى الذي يلقيه.

المطلب الثاني: المجال الأسري.

الأسرة لبنة المجتمع الأولى، وعنوان صلاحه وفساده، وصحته وسقمه، إذا أقيمت أسرة طيبة كريمة؛ أقيمت مجتمعاً طيباً كريماً، والقدوة في المجال الأسري مجال بارز، تضمن عدداً من النماذج الحسنة التي يقتدي بها المرء في حياته، حيث نجد في القرآن الكريم الإشارة إلى نماذج متنوعة متعددة للقدوة، نشير منها إلى بعض أبرز تلك النماذج:

أولاً: تربية الأبناء.

تربية الأبناء هي المهمة الرئيسة الموكلة إلى الأسرة، وهي أخطر المهام وأبعدها أثراً، فالأبناء شُداة المستقبل وأمل الأمة، وإلى هذا المعنى يشير النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه))^(١).

وفي القرآن الكريم نماذج للقدوة الحسنة في تربية الأبناء، أبرزها ما جاء في وصية لقمان لابنه، حيث تمثل منهجاً في تربية الأبناء والأخذ بيدهم نحو مسالك الهدى والرشاد، يقول تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ لَقَمْنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يُعْطُهَا

يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [١٠١٥] كتاب التفسير، باب لا تبديل لخلق الله [ومسلم في صحيحه [١٦٢٤/٤] كتاب القدر].

جَهْدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا
مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى تَمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنِثُّكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
(١٥) يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مُثْقَلًا حَبَةً مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي
الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَبْنِيْ أَقْرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَآنَهُ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبَرَ عَلَى مَا آصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تَصْغِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا
تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ
صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصَوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿﴾ [لقمان: ١٣ - ١٩] لقد تضمنت وصايا
لقمان لابنه عدداً من المعالم البارزة في تربية الأبناء، يقتدي بها الآباء
والمربون، ومنها:

- إن تربية الأبناء على معرفة خالقهم المنعم عليهم، هي أول ما يجب على
الأسرة المسلمة؛ لأن معرفة الله تعالى بما له من جميل الصفات وجليلها،
يورث في النفس محبة الله وتعظيمه، وتحقيق معنى العبودية الخالصة له
عز وجل من كل مظاهر الشرك وصوره.
- ولهذا رأينا لقمان يؤكد على هذا المعنى، ويلفت نظر ابنه إلى كمال قدرة
الله تعالى وبالعالم علمه بخلقه، على نحو يملأ النفس من عظمة الله
ومقامه.

إن الإيمان بالله تعالى يورث الاستقرار في حياة الإنسان، ويضبط
السلوك، ويعمق في النفس الشعور بمراقبة الله تعالى وإطلاعه، وهذا
كله يحقق ضبط سلوك الأبناء وأفعالهم.

إن من واجب الآباء والمربين، أن يغرسوا في ضمائر النشء مراقبة الله

- تعالى وإطلاعه على أعمالهم، حتى ينشأوا على مبدأ الرقابة الذاتية الصادرة عن ضمائرهم.
- وبعد التأكيد على حق الله تعالى - أعظم الحقوق وأولها - يأتي التأكيد على حق الوالدين، فحقهما أعظم الحقوق بعد حق الله تعالى، لا يؤثر على هذا الحق حتى كفرهما بالله عز وجل.
 - غير أن حق الوالدين وإن عظم فهو تابع لحق الله تعالى، ولهذا لا يجوز متابعتها على الباطل حتى ولو سعيًا جاهدين في صرف ابنهما إليه
 - وفي ثنايا ذكر مجاهدة الوالدين الكافرين في محاولتهما إضلال ابنهما؛ يأتي التأكيد على أهمية اتباع سبيل المؤمنين المنيبين إلى الله تعالى، للتأكيد على أهمية الاقتداء بأهل الاستقامة وسلوك طريقهم في مسيرهم إلى الله تعالى.
 - وأمر الأبناء بالمحافظة على أركان الدين وشرائعه الكبار، ركن أصيل في تربيتهم، فتلك شعائر الإسلام العظام، لا يجوز التهاون بها والتسامح فيها، وجاء النص في وصية لقمان على شعيرة الصلاة، لأنها أعظم الشرائع، وهي الصلة بين العبد وربّه، وكم جميل أن ينشأ الأبناء على حسن الصلة برّبهم وخالقهم منذ نعومة أظفارهم.
 - ومما يجدر لفت النظر إليه أن لقمان لم يأمر ابنه بالصلاة وإنما أمره بإقامتها، ولفظ الإقامة يدل على الاستقامة المنافي للعوج، وظلال هذا اللفظ توحى بأداء العبادة على أكمل وجه وأوفاه، إن على الآباء والمربين أن يكون اهتمامهم متجهًا إلى إتقان الأبناء لما يكلفون به من شعائر

العبادة أو حتى تلك الواجبات الدنيوية، وليس مجرد أدائها ظاهرياً دون إتقان وإحسان.

- بعد التأكيد على حق الله تعالى - حق التوحيد والعبادة - وحق الوالدين؛ يأتي التأكيد على مبدأ العلاقة الإيجابية مع المجتمع الذي يعيش فيه، تلك العلاقة التي تتميز بالتفاعل المثمر، الذي يجعل المرء يشعر بمسؤوليته الاجتماعية تجاه مجتمعه وناسه الذين يعيش معهم، ولهذا وجدنا لقمان يأمر ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى الذي يلحقه بسبب هذا، كما نجده يحذره من بعض الآفات التي تنافي العلاقة الاجتماعية الإيجابية مثل: كبر النفس وغرورها، وإعجابها بما تملكه.

- إن نشأة الأبناء على هذا المعنى الاجتماعي الكبير؛ يثمر جيلاً متماسكاً متعاطفاً، إيجابياً تجاه مجتمعه وناسه الذي يعيش بينهم.
- بقي أن نقول إن هذه الوصية تلفت النظر إلى العلاقة الوثيقة بين الاب وابن، ومدى القرب بينهما، ولهذا كانت الوصية، تفيض حناناً ورحمة، ومحبة وشفقة، حيث يوصي الأب ابنه وفلذة كبده، فيدله على خير ما يعلم، ويحذره من شر ما يعلم، بأسلوب غاية في العطف والحنو، يستثير كوامن النفس وإدراكها، ويخاطب وجدانها وعقلها، وهكذا يجب أن تساق الوصايا والمواعظ، فليس لأنك أب أو مربٍ تلقي الكلام هكذا أمراً ونهياً، بل لا بد أن تتخير أجمل الألفاظ وأرقها، تخاطب بها عقول الأبناء وأرواحهم.

وبعد.. فتلك وصية لقمان لابنه متضمنة أصول التربية وأسسها، وهي ترجع في مضمونها إلى أساسين:

أولهما: تربية الأبناء على الوفاء بالحقوق، وأعظم تلك الحقوق: حق الله تعالى في توحيده وعبادته، ثم حق الوالدين في الإحسان إليهما وحسن صحبتها.

ثانيهما: تربيتهما على التفاعل الإيجابي مع المجتمع: وصورته الجلية في الأمر بالمعروف، كل معروف، والنهي عن المنكر، كل منكر، بما يقتضيه هذا التفاعل من الصبر على الأذى الذي قد يلحقه جراء ذلك، وكذلك ترك بعض المسالك السلبية من الكبر والغرور.

تلك بعض المعالم البارزة في وصايا لقمان لابنه، بما تضمنته من دلالات عميقة في علاقة الأب بابنه، ومعالم تربوية في تنشئة الأبناء، ودلالاتهم على خير ما يعلم لهم، وكلها معالم يقتدي بها الآباء والمربون، وهم يقومون بواجب تربية الأبناء والعناية بهم.

ثانياً: الأسرة وشعائر الدين.

وفي نموذج آخر يمثل قدوة للآباء، وهم يتعاهدون أهليهم في القيام بشعائر الله، والمحافظة عليها، تتمثل هذه القدوة في نبي الله إسماعيل عليه السلام، حيث أثنى الله تعالى عليه، فكان مما ذكر تعالى ثناءً عليه، تعاهده لأهل بيته في قيامهم بشعائر الله، وأعظمها الصلاة والزكاة، فهذه الشعائر العظام لا مجال للتهاون فيها مع الأهل والأبناء، فهي أساس الدين، ولهذا نص الله تعالى عليها وهو يثني على نبيه إسماعيل؛ فقال: ﴿وَكَانَ

يَأْمُرُ أَهْلَهُ، بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ [مریم: ٥٥] وثناء الله تعالى على إسماعيل عليه السلام في تعاهده لأهل بيته في شعيرة الصلاة والزكاة؛ تنبيه بالغ على أهمية تعاهد الأهل، وفيها دلالة على منزلة هاتين الشعيرتين من الدين

إن مما يؤسف له تهاون أصحاب المسؤولية والرعاية على أهليهم، وعدم تعاهدهم في شعائر الدين، ولا سيما العظيمة منها، وهذا من تضييع الأمانة وغش للمسؤولية، وقد توعد عليه النبي صلى الله عليه وسلم ببالغ العقوبة ففي الحديث الذي أخرجه الشيخان: ((ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة))^(١).

ثالثاً: الأسرة والشائعات.

يكثر حديث أفراد الأسرة الواحدة فيما بينهم عن أخبار الجيران، وأحوال الأصدقاء والقربات، يتجادبون أطراف الحديث فيها، ويتسامرون عليها، وتطلق الألسنة من غير روية في نقل الأخبار، وربما زاد الراوي، ووهم السامع، ولا مجال للتثبت فيها، ولا للتأكد منها، فهي أحاديث الأهل والأسرة، إنما تقال تزجية للوقت، وقضاء على الفراغ، ويملؤ جو الأسرة بالشائعات والأخبار السيارة، وتصبح أعراض الناس لقمة تلو كها ألتتهم، وفاكهة يسمررون عليها، وهذا النوع من الأحاديث

(١) أخرجه البخاري [١٤١٩ كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح] ومسلم [١١٦/١ كتاب الإيمان] واللفظ له.

خطر جداً، لأن ما تتداوله الألسن اليوم، على أنه حديث أسرة، وتزجية وقت، لا يبرح أن يفسو ويظهر، ويتناقله الجيران والناس، حتى يشاع وينتشر، ليكون بعد هذا من إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وقد توعده الله تعالى الذين يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا بالعذاب الأليم؛ وذلك أن المجتمع الذي تسري فيه مثل هذه الشائعات؛ لا يبرح أن تتقطع أوصاله، وينحل عقد رباطه.

وفي كتاب الله تعالى نموذج لمثل هذه الشائعات التي تتناقلها الأسرة حتى تذيب بين الناس، في حادثة الإفك المشهورة التي وقعت لعائشة زوج النبي صلى الله عليه والسلام الطاهرة المبرأة، حيث رُميت في عرضها الطاهر، وتناقل الناس هذه المقولة دون وعي أو إدراك، دون تبصر أو تأمل، بل حتى دون تثبت وتبين، وبالله العجب كيف جاز على قلوب المؤمنين وعقولهم مثل هذا الإفك، تُرمى به زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا يصور تعالى مقدار الغفلة التي وقع فيها الناس، بقوله عز وجل: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] وتأمل هنا دقة التعبير وجمال التصوير حيث جعل تعالى تلقي الناس لخبر الإفك بالأفواه، مع أن تلقي الأخبار يكون بالأسماع؛ ليشير إلى أنه كان تلقياً خلا من الوعي لهذه المقولة، والتبصر بعاقبتها، والتأمل في حقيقتها، فالناس يتلقون الخبر بالأفواه ليغادر أفواههم مرة أخرى بلا أدنى نظر أو تعقل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ يقول ابن عاشور "جعلت الألسن آلة للتلقي على طريقة

تخييلية، بتشبيه الألسن - في رواية الخبر - بالأيدي في تناول الشيء، وإنما جعلت الألسن آلة للتلقي مع أن تلقي الأخبار بالأسماع؛ لأنه لما كان هذا التلقي غايته التحدث بالخبر، جعلت الألسن مكان الأسماع... وفيه تعريض بحرصهم على تلقي هذا الخبر، فهم حين يتلقونه يبادرون بالإخبار به، بلا ترو ولا تريث... ووجه ذكر: ((بأفواهكم)) مع أن القول لا يكون بغير الأفواه؛ أنه أريد التمهيد لقوله: ((ما ليس لكم به علم)) أي هو قول غير موافق لما في العلم، ولكنه عن مجرد تصور؛ لأن أدلة العلم قائمة بنقيض مدلول هذا القول، فصار الكلام مجرد ألفاظ تجري على الأفواه^(١).

لقد عاتب الله تعالى المؤمنين عتاباً بالغاً بسبب تفريطهم في مكافحة هذه الإشاعة، ولما برأ الله تعالى أم المؤمنين الطاهرة عائشة رضي الله عنها من هذه المقولة وسماها إفكاً - وهو أشد الكذب - أرشد المؤمنين إلى المنهج الصحيح في التعامل مع هذه الشائعات، فقال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] وهاك هذا الموقف الكريم من الصحابي الجليل الذي تمثل هذا التوجيه الكريم لما سمع تلك المقولة الإفك تسوقها إليه زوجه، روى ابن جرير: (أن أبا أيوب خالد بن زيد، قالت له امرأته أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله! قال: فعائشة والله خير منك)^(٢).

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٤٤٩).

(٢) جامع البيان (١٩/ ١٢٩).

إنه المنهج الراشد الواعي الذي يجب أن تقتدي به الأسرة المسلمة، ومن ورائها المجتمع كله في التعامل مع الشائعات، حيث ينزل الإنسان نفسه وأهله منزلة من يُقال فيه ويُنقل عنه، أكان هو أو أهله يفعله أو يقوله، فإذا برأ نفسه وزكاها، فكيف يتهم غيره من المؤمنين.

رابعاً: الفتيان والفتيات.

الشباب زهرة الأيام، والفترة الذهبية في حياة الإنسان، تجتمع فيها كل القوى، وتتكامل فيها مختلف الطاقات؛ ولهذا فهي أشد المراحل تأثيراً على الإنسان، غير أن هذه الطاقات عندما تنطلق من غير قيد أو ضبط؛ تسمي معاول هدم وفساد، ولذا عني الإسلام بهذه المرحلة عناية خاصة، حتى جعل السؤال عن فترة الشباب، أحد الأسئلة الأربعة التي يُسأل عنها العبد يوم القيامة، ففي الحديث الذي رواه معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه)^(١).

لقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الفترة الدقيقة من حياة الإنسان، فذكر نماذج لفتيان وفتيات صالحين يعدون قدوة حسنة للشباب، فهم نماذج خير لشباب وفتيات استطاعوا أن يوظفوا طاقاتهم وقدراتهم، في جانب الخير والبناء، فكانوا نماذج مشرقة يقتدي بها الفتيان والفتيات، نشير إلى

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٠/٢٠) وقال في مجمع الزوائد (١١/٢٦٧): "رجال الطبراني

رجال الصحيح، غير صامت بن معاذ وعدي بن عدي الكندي، وهما ثقتان".

ثلاثة منها:

• يوسف وأيام المحن.

من أبرز تلك النماذج؛ يوسف عليه السلام، فحياته كلها تمثل النموذج الأكمل، الذي يقتدي به الشباب، في شتى مواقف حياتهم؛ إذ كانت حياته مثلاً يُحتذى، ورمزاً يتطلع له كل من تسمو نفسه إلى العُلا، حتى جعل الله تعالى من خبره وما جرى له مع إخوته آيات بينات للسائلين، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلْسَائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]

لقد تعرض لشتى المحن وأنواع البلاء، بسبب ما وقع في قلب إخوته من غيرة، حملتهم على الكيد له، والسعي لصرفه عن وجه أبيهم يعقوب عليه السلام، فكان ما كان من إلقائه في ظلمة البئر، لتبدأ بعد هذه الجريمة من إخوته رحلة طويلة مع أنواع الفتن والبلاء، تبدأ بهذه الظلمة الموحشة في بئر عميق، وهو غلام صغير، ليتنقل بعدها إلى الرِّق وما فيه من ذل العبودية وهوانها، وهو الكريم ابن الكريم، من غير ذنب اجترحه، ولا إثم ارتكبه.

ليتنقل بعد هذا إلى بيت عزيز مصر، حيث نشأ فيه ودرج، حتى بدت عليه مخايل النجابة، على ما فيه من الحسن والجمال الظاهر، وفي البيت كانت امرأة العزيز، تطالعه صباح مساء، تنظر إليه فلا يخفى عليها من أمره شيء، ترقب حركاته وسكناته، ولا تلبث أن تؤخذ به، ويأسرها جماله فتعشقه كأشد ما يكون العشق، ويستحكم الأمر حتى لم تعد النظرات اللاهثة تكفي، بل تحولت إلى دعوة صريحة: "هيت لك" وهنا يظهر موقف

الشباب الملتزم بدينه المستعلي على الشهوات: "معاذ الله!"

ألا يحق أن نتساءل لماذا هذا الصد والمنع؟ مع كونها امرأة جميلة، قد حازت إلى ذلك السلطة، وهي سيده، وهي الداعية، وهو غريب لا يخشى عاراً ولا شناراً، ثم هو شاب فيه كل ما في الشباب من رغبة؟ لماذا؟ هل يخاف العزيز؟ أبداً فهو يعرف العزيز ويعرف حاله؟ هل يخاف الخدم؟ أبداً فالأعين نائمة والأبواب مغلقة والأماكن خالية، ثم من يجروء على دخول مخدع السيدة، وقد هيأته! ثم مع هذا كله يمتنع أشد ما يكره الامتناع، ويأبى كل هذا الإباء! إنه الإيمان والتقوى التي تحجز المؤمن عن الخوض في مستنقع الرذيلة، والتدنس بآثامها، إنها المراقبة الدائمة لله، فإن غفل العزيز، وسهأ الحرس، ونام الناس، فالله حي لا ينام، يسمع ويرى.

وبعد هذا كله هل تنتهي هذه المحنة؟ كلا.. لقد كشفت المرأة عن سعار الشهوة، فتهدد بالسجن، وتلوح به، بل وتلجأ إلى الإغراء من جديد، فلا تمنع من مساهمة النساء في محاولة إغراء يوسف، وإقناعه بالخضوع والاستسلام، وهنا يعظم الخطب على الفتى يوسف، وتشتد عليه المحنة، فلا يجد إلا أن يضرع إلى الله تعالى أن يقيه شر ما يجد ويحاذر: ﴿قَالَ رَبِّ

السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ

﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿يوسف: ٣٣ - ٣٤﴾

"لقد اختار السجن وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه، وجماله، وكماله، تدعوه سيده وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال، والمال، والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله

ورجاء ثوابه"^(١) ثبت في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله... - وذكر منهم - شاب دعت امرأته ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله)^(٢).

ينتقل الفتى يوسف عليه السلام بعد هذا من رغد عيشٍ قد اعتاده، إلى شظفٍ لم تعتده نفسه، ولم يألّفه طبعه، فلا تتحطم نفسه ولا يأسى قلبه، بل يجد فيه ميداناً لنشر العقيدة والدعوة إليها، فلم يبرح غير قليل حتى مالت إليه قلوب السجناء وعواطفهم، لما توسموا فيه من الخير، وحدث أن عرض عليه اثنان منهم رؤيا وطلبا إليه أن يفسرها، وهنا يستشعر يوسف ولاءه لدينه، إن سجنه لا يعفيه من مسئولية هذا الدين، فما كان منه إلا أن جعل حاجتهما إليه مدخلاً لقلوبهما، فيؤكد لهما قدرته على تفسير هذه الرؤيا، ثم يشرع في عرض الدعوة مستغلاً إنصاتها له ثم يخلص إلى تفسير الرؤيا.

وحدث أن رأى الملك رؤيا أعجزت الملأ عن تأويلها، وهنا يتذكر أحد الغلامين قصته مع يوسف فيذهب إليه ثم يعود إلى الملك بتأويل الرؤيا، وفي تأويل يوسف للرؤيا ما يدل على كمال خُلُقِه، فهو مع كونه قد سجن ظمأ كل هذه السنين، لم يمتنع عن تنبيههم إلى الخطر القادم، بل ويرشدهم إلى طريقة النجاة منه، ويصل التأويل إلى الملك فيعجب ويسأل

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٧٣٨).

(٢) أخرجه البخاري [١٣٢] كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة] ومسلم [٢/ ٥٩٠] كتاب الزكاة.

عن صاحبه ويرسل إليه بإطلاق سراحه، وهنا يأبى يوسف إلا أن يقف مرة أخرى موقفًا عجبًا، إنه لا يريد الخروج كشخص أُدين ثم عُفي عنه، كلا فهو طاهر الثياب، ويجب أن يظهر للناس حقيقة ذلك، لقد أكبر المصطفى عليه السلام وهو خاتم الأنبياء هذا الموقف من يوسف فقال: (يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي)^(١).

ويسير يوسف مع تقلب الأيام بين نعمة ومحنة وتسند إليه الوزارة فيصير له أمر مصر ويؤمّه أهلها، ويأتي إخوته فيستحضر ما قد جرى منهم وما كان بينهم، والآن وقد أصبحوا بين يديه وتحت سلطانه، ألا يحق له الثأر لنفسه وقد ظلم، وفرقوا بينه وبين أحب الناس إليه؟ ألا يحق له أن يعاقبهم وهم المعتدون؟ كلا.. إنها النبوة، إنها الرحمة والإحسان، لقد صفح عنهم بل وزاد فوق هذا أن دعا لهم واستغفر.

ثم بعد كل هذه الأحداث المتلاحقة تتحقق رؤيا يوسف التي قصها على أبيه يوم كان فتى صغيراً واجتمع له أهله وذووه مع عز السلطنة والنفوذ، وهنا يتذكر يوسف ما مرّ به وما لاقاه، ويحس بأثر النعمة، فتتوجه نفسه وقلبه إلى ربه يحمده ويشكره، ويسأله أن يتوفاه على الإسلام مع أنه نبي الإسلام والداعي إليه، وهذا من كمال معرفته بالله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [٦٩١] كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: ونبئهم عن ضيف إبراهيم] ومسلم [٤/١٤٦٧] كتاب الإيمان] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ تَوْفَنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ [يوسف: ١٠١].

وبعد.. فإن قصة يوسف عليه السلام نموذج رائع لشباب الإسلام، ومثال رفيع في التعالي على المغريات والشهوات مهما تنوعت، نموذج للشباب المعتز بدينه عن شرك الهوى، لا تزيده الفتن إلا تمسكاً بدينه، وانقطاعاً إلى ربه، لقد تقلب في فتن متعددة متنوعة بعضها كان يكفي لإسقاطه، لكن هي رحمة الله لعبده المؤمن.

إن الشاب الملتزم بدينه المستعلي بعقيدته على هذه الأدناس؛ ليشعر بالفخر والاعتزاز وهو يسير في موكب هذا النبي الكريم، موكب العفة والطهر، فما أجمل أن يكون الشاب طاهر الباطن والظاهر، في الحديث عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبة) ^(١).

• أصحاب الكهف "فتية آمنوا بربهم".

فتية - أيضاً - ضربوا أروع نموذج في الاستمساك بالحق والصبر عليه، والبعد عن الدنيا وزخرفها، والتعلق بما عند الله، حتى أنزل الله تعالى قرآناً يتلى إلى قيام الساعة، يخلد ذكرهم ويثني عليهم، ليكونوا نموذجاً يقتدي به كل الشباب الذين يضيق عليهم في دينهم، ويفتنون في عقيدتهم. حينما يكون المجتمع وثناً في كل صوره وجميع موروثاته، وحينما

(١) أخرجه أحمد (٤/١٥١) وحسنه في مجمع الزوائد (١١/١٧٢) وقال الأرناؤوط في تعليقه على

المسند: حسن لغيره.

والصبوة: الميل إلى الهوى. ينظر اللسان، مادة: صبا.

تندرس معالم الشرائع الإلهية، ويخبو نورها، وحينما يكون المؤمنون قلة مستضعفة، لا تملك شيئاً أمام قوة أهل الأوثان المتعصبين لعقيدتهم، المستميتين دفاعاً عنها، حينها لابد من الانفصال عن هذا المجتمع والبعد عنه؛ لأن مجتمعاً - كهذا - قد طمست معالم الخير فيه، وأصبح وجود فئة قليلة تحالف هذا المجتمع في الأفكار والمعتقدات والتصورات، أصبح وجودها أمراً غير مقبول مطلقاً، لا يجوز السكوت عليه.

و حين يشعر المؤمنون المستضعفون بهذا الواقع يهدد كيانه، ويعرضهم للفتنة والاضطهاد، فإنه لابد من الخروج عن هذا الواقع محافظة على هذا الكيان وإبقاء لجذوة الإيمان، ترى هذا المعنى بارزاً واضحاً كل الوضوح، حينما تقرأ أوائل سورة الكهف.

يشدك في قصة أصحاب الكهف أن أبطالها فتية، والفتية من طبعهم حب الدنيا ولذاتها، والاسترواح إلى مُتَعِها، غير أن من يواجهنا هنا فتية زهدوا في هذه المُتَعِ، بل رغبوا عن الأهل والمال والوطن، رغبوا عن هذا كله فراراً بعقيدتهم، ونجاة بشعلة الإيمان التي قد تواد في ظل هذا المجتمع الوثني، إنه موقف عجيب رائع استحق أهله أن تجري لهم المعجزات، وأن يُخلد ذكرهم في قرآن يتلى، ليكونوا أسوة لمن يضطهدون من أجل عقيدتهم، وصدق الله القائل: ﴿ تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْنَا نَبَأُهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ قَتِيلَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣].

• فتاتنا مدين.

نموذج رائع لفتياتنا يقتدين به، حيث قص الله تعالى خبر فتاتي مدين

مع نبي الله موسى عليه السلام، وما تضمنه خبرهما من معاني العفة والحياء، والصيانة والديانة، فلم تكن حاجتهما وغياب الرقيب عنهما؛ سبباً يحملهما على التهاون في صيانة نفسيهما، وحشمة سلوكهما.

لقد جعل الإسلام مكان عمل المرأة البيت، وجعل وظيفتها الأساس القيام على شؤون الأسرة، وحينما يكون خروجها إلى العمل خارج البيت بسبب الحاجة إلى ذلك؛ فإن الإسلام لا يمنع ذلك وفق شروط ومحترزات، تحفظ عفة المرأة وطهرها، وتبقي على خصائص الأنوثة فيها، بعيداً عن مواطن عمل الرجال، وما يستتبع ذلك من ضرر على المجتمع وأخلاقه.

وقد ضرب القرآن الكريم نموذجاً لمثل هذه الحاجة، وصور كيف تكون المرأة المسلمة مع خروجها عفيفة طاهرة يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ أَنَّىٰ يَدْعُوكَ لِجَزْئِكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَتَأَبَّأُ اسْتَجْرَهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصاص: ٢٣ - ٢٦] فتاتان

خرجتا لتسقيا غنمهما، وقد عدمتا من يقوم بهذه المهمة، وتظهر لك العفة في سلوكهما حيث تجنبتا مخالطة الرجال ومزاحمتها، فوقفتا هناك.. هناك بعيداً عنهما، حتى إذا قضى القوم استقتا، ويظهر لهما رجل عليه علائم القوة

والطهر، يسألها وقد رأى من حالها في حبس غنمها ومنعها من السقي ما أوجب سؤالها عن ذلك، فتجيبانه بجواب مختصر لا تكسر فيه ولا تميع، ويزاحم القوم ويسقي لهما، ثم يتولى مباشرة إلى الظل، فلا يجعل تلك الخدمة طريقاً إلى التطفل عليهما واستغلالهما، ولعل هذا ما حدا بالفتاة أنه تصفه بقولها "الأمين".

وما يلبث أن تأتي إحدى الفتاتين على استحيا تمشي مشية الحرائر العفيفات، ثم تقول له بعبارة فيها أدب، إذ لم تطلبه مطلقاً لئلا يوهم ريبة: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ آتِي دَعْوِكَ لِجَزْيِكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ عبارة موجزة تؤدي الغرض، ولا تطمع متشوّفاً، ولا توهم جاهلاً.

وحينما يقدم هذا الشاب إلى الشيخ يحادثه، تختلي الفتاة بأبيها وتعرض عليه بأدب جم وحياء ظاهر أن يستأجره، وتثني عليه، ويفهم الأب مرادها، إن الفتاة الطاهرة العفيفة لا تحجل من حرصها على إعفاف نفسها في أمر فطري، لكنها في طلبها لم تلجأ إلى الطرق الملتوية، والمسالك المعوجة، بل عرضت الأمر على أبيها، بأدب وحياء جم.

إنه نموذج كريم للفتاة الملتزمة بدينها المحافظة على عفتها، التي تصون كرامتها، وتحفظ حيائها، حتى وإن ألجأتها الحاجة إلى الخروج من بيتها نموذج يشرف فتياتنا الاقتداء به والتأسي بصاحبته.

خامساً: المرأة.

شقائق الرجال؛ نصف المجتمع، وأساس الأسرة، وفي القرآن نماذج

رائعة للمرأة الكريمة الطاهرة، التي تنجب الأبناء الكرام، وتربي شُداة المستقبل، وفي مقدمتهم المرأة الصالحة مريم بنت عمران، حيث كانت ومنذ نشأتها فتاة متميزة بصلتها بربها، وحفاظها على طهارتها، حتى اختارها الله تعالى أمًّا لنبیه الكريم المسيح عيسى بن مريم، ولتكون أمًّا معجزة لابنٍ معجزٍ، ولهذا جعلها الله وابنها آية باقية للعالمين، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] إنها نموذج للمرأة الصالحة التي نشأت منذ صغرها على حسن الصلة بالله تعالى، وتمام العبودية له، مع حفظ عفافها وطهر أخلاقها، حتى أثنى الله تعالى عليها بهذين الخلقين خلق العبودية وخلق العفة فقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾ [التحریم: ١٢].

وامرأة أخرى هي قدوة في عدم الغرور بفتنة السلطة والمال، نعني بذلك امرأة فرعون، تلك المرأة الصالحة، التي لم تُبهرها فتنة الزينة والجمال، كما تُبهر غالب النساء، ولم تغرها فتنة الجاه والسلطان، كما يُغرُّ بها جُلُّ النساء، ولهذا وجدناها تؤثر ما عند ربها على مُلك فرعون، وزينة فرعون، ومال فرعون، حتى قالت بقلب مُحبٍّ منيب إلى ربها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١] ولهذا كله استحققت أن تكون من النساء القلائل الكُمَّل، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمَلِ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنْ

فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) ^(١) لقد استحققت هذه المرأة الكريمة أن تكون مثلاً يضربه الله تعالى للمؤمنين، باقياً على مرّ العصور، بقرآن يتلى ما تعاقب الليل والنهار، يقول الله تعالى عنها وعن أختها مريم بنت عمران: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظِّلْمُ ۝ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ ۝﴾ [التحریم: ١١ - ١٢].

(١) أخرجه البخاري [٧٠١] كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: وضرب الله مثلاً..
ومسلم [١٥٠٣/٤] كتاب فضائل الصحابة، باب فضل خديجة].

المطلب الثالث: المجال السياسي.

الجانب السياسي في حياة الناس بالغ الأهمية، إذ معقد الأمر كله عليه، به تنتظم حياتهم، وتستقيم شؤونهم، وتصان حقوقهم، لا يمكن تصور اجتماع جماعة من الناس بغير نظام يسير شؤونهم، يعرف به كل أحد منه حقه الذي له، وواجبه الذي عليه.

وإذا ذكرت السياسة تبادر إلى الذهن أول شيء الحكم والحكام، فهم رأس النظام السياسي، وعنوانه الدال عليه، وفي كتاب الله تعالى نماذج مشرقة لحكام ساروا في رعيته سيرة العدل، لم تطغهم قدرتهم، ولا غرتهم قوتهم، نقف على ثلاثة من تلك النماذج، كل نموذج منها يشف عن جانب أساس في الحكم:

أولاً: الرجوع إلى الحق.

قل أن تجد في الناس من ينصف من نفسه، فينقاد للحق حتى لو خالف رأيه، ويرجع إليه حتى لو سلك طريقاً سواه، فكيف إذا كان ذلك من ملك قوله نافذ، وحكمه قاطع، وفي كتاب الله تعالى نموذج كريم، لنبي كريم، كان مثال التواضع والرجوع إلى الحق، ذلك ما كان من خبر نبي الله داود عليه السلام، يقول تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْغُرْتِ إِذْ

نَفَسَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا

ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾

[الأنبياء: ٧٨ - ٧٩] وفي بيان هذه الآية، والواقعة التي تضمنتها وحكم داود

عليه السلام فيها، أخرج ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال:

(كَرَّمٌ قَدْ أَنْبَتَ عَنَّا قَيْدَهُ فَأُفْسِدَتْهُ - يعني: الغنم - قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرَّم، فقال سليمان غير هذا يا نبي الله، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرَّم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرَّم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرَّم كما كان؛ دَفَعْتَ الكرَّم إلى صاحبه، ودَفَعْتَ الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) ^(١).
 إن الأوبة إلى الحق، والرجوع إلى الصواب، خُلق عالٍ شريف، تضعف عنه أكثر النفوس، وتعجز دونه أكثر الرجال، ويعظم هذا في ظل سطوة السلطة، وقوة الجاه والملك، إذ يكون الرجوع فيها إلى الحق أمراً بالغ الصعوبة قلَّ من يستطيعه.

إن هذا الخبر يمثل قدوة حسنة لكل حاكم وقاض، في الرجوع إلى الحق، فالحق أحق أن يتبع ويُرجع له، ويُصار إليه، فها هنا داود عليه السلام - وهو الملك، وقبل هذا هو النبي المرسل من الله عز وجل - يحكم في قضية حكم حق وعدل، لا ظلم فيه، ولا يُعَاب عليه، فقد رأى أن قيمة ما أُتْلِف من زرع أصحاب العنب، يكافئ قيمة الغنم؛ فحكم بالغنم لهم، ومع هذا لم يمنعه ذلك أن يرجع إلى الحق، إلى أولى الأمرين، وأنفع القضائين، لم يجد غضاضة في نفسه أن يأخذ بحكم غيره، لما كان أولى من حكمه، وأنفع للخصمين، لم تحمله عزة الملك والسلطان، وأنفة النفس من الرجوع إلى الحق، في أمر يسوغ فيه الاجتهاد، وفي ذلك أسوة عظيمة لأهل الحكم

(١) جامع البيان (١٨ / ٤٧٥).

والقضاء، أن يكون الحق رائدهم، لا تعميهم السلطة والقوة عنه.

ثانياً: الحاكم المتواضع.

التواضع خلق كريم قل من الرجال من يبلغه، ولا سيما إذا وجدت أسباب القوة التي تغطي الرجال كالجاء والسلطان، وشخصية نبي الله سليمان عليه السلام تمثل - بحق - نموذج الحاكم المتواضع، الذي أُعطي أسباب القدرة والقوة، حتى سخرت له الريح، وحشرت له الجنود، من الجن والإنس والطير، حتى لم يوجد ملك في الأرض، اجتمع له من أسباب القوة مثل ما اجتمع له عليه السلام، وخير مثال على تواضعه ما ورد في سورة النمل من خبره مع ملكة سبأ، فمع ما في هذه القصة من جوانب أخرى للقدوة: كالعدل، والحزم، واليقظة، وحسن سياسة أمور الدولة، وتدبير شؤونها، إلا أن خبر النمل وواديها، وخبر عرش ملكة سبأ يستوقفنا ملياً، لنلاحظ فيهما معاني التواضع الكريم في نبي الله سليمان عليه السلام.

أما خبره مع واد النمل فقد قال الله تعالى عنه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ

جُنُودُهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ

يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨﴾

فَنَبَّسَهُ صَاحِبُهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ

وَلَدَيْكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي رَحِمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ۝١٩﴾

[النمل: ١٧ - ١٩] هذا سليمان عليه السلام وسط جيشه، هذا الجيش الغريب

الذي يتألف من فرق عجيبة من شتى الأجناس والكائنات من الجن..

والأنس.. والطير، جيش لا كالجيش يحوب الأرض يقطعها، وقد جمع

أوله مع آخره، على نحو تنتظم به صفوفه، وتتسق فيه خطاه، فلا يضطرب ولا يختلط^(١)، وفي طريقهم يمرون على واد النمل، فتصيح نملة في قومها، تحذرهم أن يقفوا في طريق هذا الجيش الجرار، فيحطمهم بأقدامه وهو لا يشعر.

حتى إذا سمع سليمان هذه الكلمات من النملة تبسم لها، تبسم من يرى صغيراً يفر منه يخاف أذاه، وهو لا ينوي به شراً، وتبسم مرة أخرى لهذه النعمة التي وهبها الله له، فجعلته على صلة بهذه الكائنات العجيبة، وهنا يتحرك قلب هذا الملك العظيم الذي أوتي أسباب القدرة والقوة، يتحرك قلبه لا فخراً وكبراً، أو غروراً وعجباً، ولكن تواضعاً لربه، واعترافاً بفضل، يتحرك قلبه متجهاً إلى صاحب النعمة والفضل، يدعوه ويرجوه أن يلهمه شكر هذه النعمة، والقيام بحقوقها، ويسأله أن يدخله في ركب الصالحين وموكبهم، وسبحان الله! كيف يكون كمال المعرفة بالله تعالى، هذه المعرفة التي تجعل المرء لا يأمن على نفسه أن تنزل به القدم، مع أنه النبي المرسل من الله، فلا يزيد على أن يسأل ربه أن يدخله في موكب الصالحين وركبهم، وهذا هو تواضع العارفين بالله تعالى، لا تزيدهم وسائل الدنيا وأسبابها إلا معرفة بالله عز وجل، وتعظيماً له.

(١) هذا النظام يشير إليه التعبير بلفظ يوزعون في الآية، قال ابو السعود (١٧٧/٥): "أي يجبس أوائلهم على أواخرهم، أي يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالي، فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد، وذلك للكثرة العظيمة، ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف، كما هو المعتاد في العساكر".

ومثل هذا الموقف الكريم الدال على مبلغ التواضع والخشوع لله تعالى؛ موقف آخر له عليه السلام، لا يقل شأنًا عن هذا، إنه خبره مع عرش ملكة سبأ، يقول تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءِتَيْتُكَ بِهِ ؕ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءِتَيْتُكَ بِهِ ؕ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ؕ أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَكُفِّرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠] سبحان الله! أي سلطان وقوة تبلغ هذا المبلغ العظيم! حتى إن عرش ملكة يساق له، على هذا النحو، ليكون بين يديه وتحت تصرفه في لحظات لا تتجاوز إرسال الطرف ورده، لا يوجد هنا جيوش جواره ولا دماء تسال ولا حرب وضرب، وإنما طرف يرسل فلا يرتد حتى يكون العرش بين يديه، أي قدرة تبلغ هذا المبلغ، ولولا أن الله تعالى ذكرها في كتابه، ما كان المرء يظن أن في وسع أحد من البشر أن يبلغ هذه القدرة، واللافت هنا موقف سليمان عليه السلام، لم نر هنا زهوًا أو فخرًا أو عجبًا، لم نر شيئًا من هذا، إنما رأينا سليمان يستشعر نعمة الله تعالى كلما تجددت عليه المواقف، فلا تزيده مواقف القوة والقدرة إلا تواضعًا وخضوعًا لربه، حتى لا يجرب بخلده - وهو يرى العرش أمامه بلمح البصر - إلا أن يرى هذه النعمة بلاء وامتحانًا وتكليفًا، وهكذا يكون التواضع في أبلغ صورته، لم يُجَدِّع سليمان عليه السلام بهذا السلطان والقوة، فيظنها من كسبه ليتسلط بها على الناس، بل عرف أنها من الله، وأنها نعمة أو بلاء.

ثالثاً: الحاكم العادل.

حينما تجتمع للمرء أسباب القوة، ووسائل القدرة، من قوة السلطان، وعز الملك، والتمكن من الأسباب، والأمر النافذ، والتقلب في الأرض حيثما شاء، وأنى أراد، حينها يكون العدل عزيزاً بعيد المنال، ولقد قص الله عز وجل في كتابه الكريم خبراً عجباً، وقُدوة حسنة من ملك صالح، مَكَّن الله له في الأرض، فمده بأسباب القوة، ووسائل البناء والعمران، فجاب الأرض شرقاً وغرباً، وطوف بين سهولها وجبالها، يقول عز وجل واصفاً هذا التمكن: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ

مِنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾

[الكهف: ٨٣ - ٨٨] إن للنصر نشوة تطغى معها النفوس، وسكرة تذهب بها العقول، وتطيش معها الأحلام، وكم تجر هذه السكرة على الناس من بلاء، فتحرق نارها المحسن منهم والمسيء، لكن هذا الملك العادل، الناظر بنور الله، لا يحمله انتصاره وغلبته على أعمال سيفه في أعدائه، لم يحمله حربهم له على ظلمهم وقهرهم - وقد قدر عليهم - بل ميز بميزان العدل بين الظالمين المعاندين، وبين المؤمنين التائبين، فأحسن إلى المحسن وعاقب المسيء^(١).

(١) ذكر المفسرون أن ذا القرنين لما فتح إحدى المدن العظيمة قسم المحاربين له إلى قسمين:

أ - ظالم وهو الكافر، فهذا له العقاب في الدنيا والأخرى.

إن أصحاب القوة والسلطة إن لم تكن صلتهم بالله وثيقة، وتذكرهم لموقفهم بين يدي ربهم حاضراً في ضمائرهم، حياً في قلوبهم؛ لم يمنعهم عن الظلم مانع، ولم يردعهم عن البغي رادع.

= ب - مؤمن فله الإحسان في الدنيا والأخرى.
ينظر: معالم التنزيل (١٩٩ / ٥) تفسير القرآن العظيم (٣ / ١٦٧).

المطلب الرابع: المجال العسكري.

إن القوة هي أداة الحق التي تحمي أركانه، وتصون حدوده، وتزيح العوائق أمام امتداد ضيائه، والحق الذي لا قوة له لا بقاء له، إذ يخبو ضوءه، ويخفت صوته.

وتبقى الأمة مهيبية الجانب، منيعة عن أطماع الطامعين، وتطلعات الطامحين؛ إذا كانت قوتها العسكرية موفورة، واستعدادها للحرب حاضراً، وفي هذا المجال سنذكر بعضاً من النماذج المشرقة التي يقتدي بها ويتأسى بطريقتها:

أولاً: قائد وجيش.

من أبرز نماذج القدوة الواردة في كتاب الله في المجال العسكري، خبر القائد طالوت وجيشه، وقتالهم مع جالوت وجنده، حيث كشفت الآيات الكريمة، عن صفات القائد المحنك، الذي يحسن إدارة المعركة، وتهيئة الجند لها، كما يحسن معرفة أخلاق المحاربين ومعادنهم، كما يكشف - أيضاً - معادن الجند وأنواعهم، يقول تعالى ذاكراً خبر هذا القائد الفذ مع جنده: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٧ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَآءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝٢٥٨﴾

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مَنْ فُتِنَ قَلِيلًا غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَادْنِ اللَّهَ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٥١﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٢﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَادْنِ اللَّهَ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿البقرة: ٢٤٧ - ٢٥١﴾ تتحدث الآيات الكرييات عن قصة ملأ من بني إسرائيل، تسلط عليهم بعض الملوك فأخذوا ديارهم وأموالهم، ثم إنه خرج فيهم نبي مرسل من الله، فطلبوا إليه أن يقيم فيهم ملكاً يقاتلون تحت لوائه^(١)، فبعث الله لهم قائداً اسمه طالوت، ويهتأ هنا موقفاً أبرزتهما الآيات الكرييات موقف قائم وموقف جيش:

أما القائد، فقد أشارت الآيات الكرييات إلى صفات القائد ومؤهلات القيادة فيه، فأشارت إلى صفتين بارزتين: العلم بالسياسة الحربية، والقوة الجسمية والقلبية.

إن القائد محط أنظار جنده، وعليه تتعلق آماله، فلا بد أن يكون

(١) ينظر: جامع البيان (٥/٢٩١) ومعالم التنزيل (١/٢٩٧) وتفسير القرآن العظيم (١/٤٤٥) والجامع لأحكام القرآن (٣/٢٤٣).

مؤهلاً لقيادتهم، واستمالة قلوبهم إليه، بحيث يدعون له، ويسلمون بأهليته لقيادتهم وريادتهم، وملاك هذا كله العلم بفنون الحرب وسياستها، والقوة البدنية والقلبية لتنفيذ ذلك، وفي الآيات الكريمة إشارة إلى بعض المواقف التي تكشف عن هذه الصفات التي تميز بها القائد طالوت:

لقد أظهر القائد (طالوت) حنكة حربية دقيقة، إذ لم تحدده هتافات الحماس والنشوة، بل قد علم أن الجيش يحوي الغث والسمين، فكان لابد من الامتحان تلو الامتحان، حتى يصفوا الجيش فلا يبقى إلا الخالص منهم، الذين يستطيع أن يرمي بهم العدو حيث كان، فكان من ذلك أن عرضهم على النهر، ومنعهم من الشرب منه إلا أن يغترف الواحد منهم غرفة بيده فقط، ويذكر المفسرون أنه مرّ بهم عليه وقد اشتد بهم العطش^(١)، فكان فشل أكثر الجند ذريعاً، ومن لم يطق صبراً على ظمأ الماء، كيف يطيق صبراً على بأس القتال.

وبعد هذا الامتحان يعرضهم على المحك الحقيقي، حينما يبرزون لأعدائهم حتى يرون الأمر على حقيقته، فينخذل كل جبان منهم أمام كثرة العدو، حتى لا يبقى بعد هذا إلا الخالص، بعد أن صفا الجيش من الشوائب والأخلاق الرديئة.

إن هذا الموقف يكشف صفة العلم بالحرب وسياستها، وفي الموقف التالي يظهر لك صفة القوة البدنية والشجاعة القلبية، ذلك أن القائد لما رأى

(١) ينظر: الإحالة السابقة.

الجيش ينسحب أفراداه فوجاً إثر فوج، حتى لم يبق معه إلا قليل من الجند أمام قوم جبارين، لم تخر عزيمته، ولم يضعف قلبه، بل ثبت هو، وثبت الجيش معه، حتى تم اللقاء وكان النصر، وقتل بيده قائد جيش العدو.

أما المعنى الآخر الذي تشير إليه الآيات الكريمة من خلال هذه القصة - بعد أن عرضت صفات القائد - فهو طبيعة الجند والعسكر، حيث تشير الآيات إلى أن الجند قسمان:

جندي مخذل خائر، لا يصبر في الشدائد والمضائق، ويظهر فشله أمام الاختبار الفعلي لقدراته، وهذا الجندي الخائر؛ لا يمكن الوثوق به، ولا الاعتماد عليه في أي الظروف، حتى وإن كان العدو بمرأى العين، ويحيط بالجيش، فهذا الجندي مستعد للفرار، وترك باقي الجيش يواجه العدو، ومثل هذا ينبغي إبعاده وإقصاؤه، فوجوده يلحق بالجيش أبلغ الضرر، بما يثيره من بلبلة واضطراب، فضلاً عما قد يحدثه عند القتال من الهرب والتولي وترك الثغرات في الصف.

هذا نوع من الجند.. وقسم آخر من الجند والعسكر، ثابت القلب، رابط الجأش معتمد على الله، متوكل عليه، لا تزيده الامتحانات إلا صلابة، ولا يزيده شدة الموقف إلا إصراراً؛ لأنه يعرف مصدر النصر الحقيقي وميزان القوة الفعلي، وهنا أرفع سمعك لما قالته الفئة الثابتة في جيش طالوت، حينما تكاثرت المتخلفون والمخذلون، وتراجع أكثر الجيش، أمام قوة الأعداء الجبارين، وتأمل وصف الله لهم بقوله: (الذين يظنون أنهم ملاقوا الله) لم تزد هذه الفئة على أن قالت: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ

كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٠﴾
فليست العبرة بالعدد والعدة، وإنما العبرة كلها تكمن فيما يقوم بقلب
المقاتل، فالمقاتل يهزم في قلبه، قبل أن يهزمه عدوه، ولهذا لما برزوا وجَّاه
العدو، ما كان منهم إلا أن اتجهوا إلى ربهم، بقلوب مُفعمة بالرجاء والأمل،
وصدق التوكل عليه؛ فقالوا: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٠١﴾.

إن هذه القصة نموذج للقائد العارف بسياسة الحروب، الخبير
بأحوال الجند، الذي لا تغره الكثرة، ولا تخدعه شجاعة الأقوال، دون أن
تُبل الأفعال، كما أنها نموذج للجندي الذي يوثق به ويعتمد عليه إذا
اشتدت الحرب، وعظم الكرب.

ثانياً: الغاية من القتال.

إن الله تعالى قد شرع القتال في سبيله، وجهاد أعدائه؛ لتكون كلمته
هي العليا، ولتراح كل العوائق التي تقف دون سماع الحق والانقياد له، لا
ترتبط حقيقة الجهاد في سبيله بأحد من الخلق، وإن جلَّ قدره، وعظم شأنه،
حتى وإن كان نبياً أو رسولاً، فهؤلاء الكرام من الأنبياء وأتباعهم، مهمتهم
حمل راية الحق، وتبليغ دين الله تعالى، وقتال الصادين عن سبيله، يهلك
عليها أولهم، فيأخذها عنهم آخرهم، لا ينتهي الجهاد بنهايتهم بل هو ماضٍ
ما بقي حق وباطل، وهدى وضلال.

ويوم وقع بعض الصحابة الكرام، في غبشٍ علا تصورهم لهذه
الحقيقة من غاية الجهاد، وذلك في غزوة أحد، لما فشا في الناس أن النبي

عليه الصلاة والسلام قد قتل، فضعفت قواهم، وتركوا قتال عدوهم^(١)؛ لأن من كانوا يقاتلون دونه قد قتل، فلم يعد من باعثٍ على القتال، ولهذا الخلل في تصور حقيقة الجهاد، نزلت آيات من القرآن عظيمة، تتضمن عتاباً بالغاً لهم، وتقرر حقيقة الجهاد في سبيل الله وغايته، يقول تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ

إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنْتُمْ مُؤْجِلُونَ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رِثْيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ [آل عمران: ١٤٤ - ١٤٨].

لقد تضمن هذا العتاب دعوة المؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ إلى أخذ القدوة والأسوة ممن سبقهم على ذات الطريق، من الأنبياء والربانيين من أتباعهم على مر التاريخ، حيث صبروا على ما نالهم من عدوهم من قتل أو أسر؛ فلم تضعف لهم شوكة، ولم تلن لهم قناة، يقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رِثْيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ قال ابن جرير: "إنما عاتب بهذه الآية

(١) ينظر تفصيل هذه الحادثة في: جامع البيان (٧/ ٢٥١) ومعالم التنزيل (٢/ ١١٢) وتفسير القرآن العظيم (٢/ ١٢٨).

والآيات التي قبلها... الذين انهزموا يوم أحد، وتركوا القتال، أو سمعوا الصائح يصيح: إن محمداً قد قتل، فعذلم الله عز وجل على فرارهم، وتركهم القتال، فقال: أفإن مات محمد أو قتل - أيها المؤمنون - ارتددتم عن دينكم، وانقلبتم على أعقابكم؟ ثم أخبرهم عما كان من فعل كثير من أتباع الأنبياء قبلهم، وقال لهم: هلا فعلتم كما كان أهل الفضل والعلم من أتباع الأنبياء قبلكم يفعلونه إذا قُتل نبيهم، من المضي على منهاج نبيهم، والقتال على دينه أعداء دين الله" (١).

غير أن هذا الخلل في تصور حقيقة الجهاد، وإن وقع من بعض المؤمنين، فقد كان عند آخرين منهم غاية في الوضوح، غاية في البيان، واستمع لما أخرجه ابن جرير عن ابن أبي نجيح عن أبيه: (أن رجلاً من المهاجرين مرَّ على رجل من الأنصار وهو يتشحَّط في دمه) (٢)، فقال: يا فلان، أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل، فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (٣).

وتصور هذا المعنى العظيم، هو الذي جعل أنس بن النضر رضي الله عنه يقول لما رأى بعض القاعدين بعد سماعهم خبر مقتل النبي عليه الصلاة

(١) جامع البيان (٧/٢٦٥).

(٢) أي: تحبط في دمه واضطرب، ينظر اللسان مادة شحط.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان (٧/٢٥٣) وابن المبارك في الجهاد ص ٩٠، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٢٤٨) مراسلاً من حديث أبي نجيح يسار المكي.

والسلام: "يا قوم، إن كان محمد قد قُتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد صلى الله عليه وسلم، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء! ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل"^(١).

ثالثاً: الصبر في القتال.

حينما يكون ميدان الصبر بذل النفس والمهج؛ فلا بد من صبر عظيم، يطغى على الحب الفطري للحياة، والإخلاق إلى الأرض، حتى يحمل المجاهد روحه على راحته، يبذلها برضاً وطمأنينة، مهما تكن الصعاب ومهما تكن الآلام.

وهذا المعنى العظيم استشعره صحابة النبي ﷺ؛ فضربوا نماذج رائعة من الصبر على حمل هذا الدين، والجهاد في سبيل نشره، وفي كتاب الله إشارة إلى نموذج كريم وقدوة حسنة أثنى الله تعالى عليهم، يقول تعالى:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ [آل عمران/ ١٧٢ - ١٧٣] لقد أثنى الله تعالى على أولئك الذين استجابوا له ولرسوله، ولكن متى كانت تلك الاستجابة؟ وعلى أي حال كانت؟ دعني أوقفك على خبر عجب في هذه الاستجابة، يذكره لنا أحد الذين نزلت فيهم هذه الآيات، فقد أخرج ابن

(١) المرجع السابق (٧/ ٢٥٥).

جرير بسنده عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل كان قد شهد أحداً قال: "شهدنا أحداً مع الرسول ﷺ أنا وأخي، ورجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي أو قال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ! والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل! فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنت أيسر جرحاً منه، فكنتُ إذا غلب حملته عُقبه، ومشى عقبه^(١) حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، فأقام بها ثلاثاً: الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة"^(٢).. رأيت صبراً في الاستجابة لداعي الجهاد كهذا، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

(١) أي: حملته شوطاً، وسار شوطاً. ينظر اللسان، مادة: عقب.

(٢) جامع البيان (٧/ ٤٠٠).

المطلب الخامس: مجال الصبر.

قل أن يوجد في كتاب الله خلق عظم ثوابه، وفخم جزاءه مثل الصبر، حتى قرنه تعالى بأعلى مراتب الدين، وأكمل منازل الإيمان، فقرنه بالتقوى، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وقرنه باليقين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] وقرنه بالتوكل فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢] وإنما قرنه تعالى بهذه المراتب العالية ليشير إلى أن هذه المنازل العالية من الدين لا تنال إلا بالصبر.

إن المرء لا ينال في الدنيا غايته مهما تكن، ولا يبلغ فيها أمنيته؛ بغير صبر وعزيمة، إذ هي مطبوعة على المشاق، ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] قال قتادة: "خُلِقَ في مشقة، لا يُلقَى ابن آدم إلا مكابدة أمر الدنيا والآخرة"^(١).

وفي كتاب الله تعالى نماذج متنوعة يقتدي بها المؤمن في صبره على نوائب الدهر وغير الزمان، منها:
أولاً: الصبر على البلاء.

إن البلاء والابتلاء في هذه الدنيا سنة جارية، لم يسلم منها أولياء الله

(١) أخرجه في جامع البيان (٤٣٣/٢٤).

وأحباؤه، بل لقد جعل الله تعالى البلاء علامة يَعْرِفُ بها العبد أن الله قد أحبه، ولذا كان الأنبياء أشد الناس بلاءً؛ لعظم منزلتهم عند الله تعالى، ومن لم يعرف هذا الأمر لم يفقه سنة الله تعالى، ولا عرف حقيقة التكليف، ذلك أن الله عِبَادَةً في الضراء، كما له أن له عبادة في السراء.

وركب الصابرين ركب شريف طويل، يأتي في مقدمهم نبي الله أيوب عليه السلام، الذي صبر على ما أصابه من البلاء العظيم^(١)، حتى أصبح مثلاً يضرب على الصبر، حتى لا يذكر الصبر والبلاء إلا ويقرن به اسم أيوب عليه السلام، ولهذا امتدحه ربه عز وجل على صبره مع عظم البلاء، فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] فكان قدوة ونموذجاً رائعاً يتعزى به كل مبتلى في نفسه أو ولده أو ماله.

وحتى في شكواه - عليه السلام - من الضر الذي أصابه، كانت شكوى المؤمن بربه، المفوض إليه شأنه، الذي يعلم أن قضاء الله خير له كله، تأمله وهو يدعو ربه كيف كان دعاؤه، كيف كان أدبه مع ربه، كيف فوض الأمر إليه، فلم يسأله أن يكشف الضر عنه، لم يسأله أن يرفع البلاء الذي حل به، وإنما فوض الأمر إلى ربه الذي هو أرحم به من نفسه، يقول تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] قال أبو حيان: "وقد ألطف أيوب في السؤال، حيث ذكر نفسه بما

(١) يذكر المفسرون آثاراً كثيرة تشير إلى أن البلاء سلط على ماله وولده وجسده، على أن في بعض ما ذكره مبالغة هي محل نظر. ينظر: جامع البيان (٢١/ ٢١١) ومعالم التنزيل (٩٦/ ٧) وتفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٥٣).

يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب، ولم يعين الضر الذي مسه^(١) ولهذا كانت عاقبة هذا الصبر العظيم، والتفويض إلى الله، فَرَجاً ومُخْرَجاً، فعافاه الله تعالى من كل بلاء، ورد عليه أهله وماله، بل زاده مثلهم فضلاً منه ورحمة وكرامة، ولهذا لما ختم الله حديثه عن صبر أيوب قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣] قال ابن كثير: "وجعلناه في ذلك قدوة، لئلا يظن أهل البلاء أنا فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله، وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك"^(٢).

ثانياً: الصبر على الفتنة في الدين .

ومن نماذج الصبر العظيمة على البلاء والفتنة في دين الله تعالى؛ خبر المؤمنين أصحاب الأخدود، الذين ذكرهم الله تعالى في سورة البروج يقول تعالى ذاكراً خبرهم مثنياً عليهم معظماً جرم المعتدين عليهم: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ

الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ مُّشْهُودٍ ۝٣ قِيلَ أَخْذُوا أَخْدُودَ ۝٤ أَلْتَارِدَاتِ الْفُؤَادِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١ - ١٠] لقد ضرب أولئك الصابرون أروع نماذج القدوة، في الصبر على الفتنة في الدين، ذلك النوع من الفتنة الذي لا يبقى على شيء،

(١) البحر المحيط (٨/ ١٨٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٥٣).

فتنة نالتهم في أموالهم وأهليهم وأنفسهم، جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يذكر خبرهم قوله : ((فَأُتِيَ الْمَلِكُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذِرُ ! قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ ! فَأَمَرَ بِالْأَخْذِ بِأَفْوَاهِ السَّكَّكِ فَخُذَّتْ ، وَأُضْرِمَ فِيهَا النَّيْرَانُ ، وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَقْحَمُوهُ . ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعهما صبي لها فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أماه ! اصبري ، فإنك على الحق))^(١)

إنه نموذج فريد من التضحية للدين والصبر على الفتنة فيه، إنه نموذج سامي رفيع من صور الصبر على الحق، وعض النواجذ عليه، مهما يكن الثمن غالباً، إن دين الله تعالى له تبعات ولوازم، قد يكون من تبعاته؛ ذهاب الأموال والأهل، بل وحتى الأنفس، فإذا لم يكن المؤمن على وعي بهذه الحقيقة، أو شك أن يُفجأ بعنف المواجهة مع أعداء الدين فيخذه إيماناً، ويخذل الحق الذي آمن به.

ثالثاً: الصبر زمن الفتن.

في زمن الفتنة تطيش الأحلام، وتذهب العقول، ويعلو صوت الجهل على العقل، وتصير أزمة الأمور إلى السفهاء بدلاً عن العقلاء، فتستباح الدماء، وتنتهك الأعراض، ويكثر الهرج والمرج، وينفلت زمام الأمور، ويختلط الحق بالباطل، ولا يَتَبَيَّنُ المحق من المبطل، ولا الظالم من المظلوم، فما يدري الناس علام يُقَاتِلُونَ، وفيما يُقَتَّلُونَ، وعندئذ لا تكون

(١) أخرجه مسلم [٤/ ١٨١٨ كتاب الزهد] من حديث صهيب رضي الله عنه.

الشجاعة بالخوض مع الخائضين في الفتنة، ولا يكون الدين بالولوغ فيها، وإنما يكون الدين حقاً، والشجاعة صدقاً؛ بكف اليد عنها، وكبح النفس عن سورتها، وفوران حميتها، التي قد يؤزها بعض الحق الذي معها، وبعض الظلم الذي وقع عليها، وقّل من يُعصم فلا تتلطح يده بدم حرام، ولا تمشي رجله إلى حرام، لأن المرء يحتاج - في مثل هذه الحال - إلى كثيرٍ بل عظيمٍ من الإيمان، وعظيمٍ من الحلم والعقل، حتى يمنع النفس من سورتها، ويكف اليد عن بطشها.

وفي كتاب الله تعالى نموذج لهذه القلة من الناس، القادرة على ضبط سلوكها مهما تكن الفتنة شديدة، ومنع سورة الغضب أن تطغى مهما تكن الدوافع عادلة، يقول تعالى مشيراً إلى هذا النموذج الكريم: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوَيْلَتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣١] إن هذه الآيات تشير إلى موقف كريم من ابن آدم المقتول، حينما ثارت نفس أخيه حسداً وظلماً، وبغياً وعدواً، بغير حق إلا أن الله تقبل من أخيه ولم يتقبل منه^(١) في صورة ناطقة بالظلم، ذلك النوع من

(١) اختلف المفسرون في هذه القصة في أربعة مواضع:

الظلم الذي يَتَعَرَّى فيه صاحبه عن أي شبه حق، صورة ناطقة بمدى الحسد الذي يعمي صاحبه، فيبغى على أخيه ابن أمه وأبيه، لا يتعدى على ماله أو بعض حقه، وإنما يزهق روحه، ويغتال حياته، فقال لأخيه يتهدده ويتوعده صراحة: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وأمام هذا التهديد المنبعث من الحسد، الأعمى عن العواقب، يلفت الأخ نظر أخيه - بمنطق العقل - إلى أنه لم يكن سبباً في عدم تقبل الله منه، حتى يكون سبباً في بغيه وعدوانه، كما لفت نظره إلى سبب القبول حقيقة، ووعظه وذكره من طرف خفي لعله يتذكر: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ويؤكد له أنه لن ينساق في مواجهة معه، حتى لو بسط يده إليه، وشرع في قتله، في موقف حلیم، وكلمات راشدة، كانت كفيلة بؤاد الفتنة، وتسكين النفس، وتخفيف ثورتها، قال له: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدِي إِيَّاكَ لَآ أَقْتُلُكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ لقد كان في مقدور هذا المقتول - إن لم يقتل - أن يدافع عن نفسه، ويرد عنها، ولكنه علم أنه مهما يفعل، ومهما يقاوم، فإنه يقابل في ذلك كله أخاه، فإن مشى، مشى إلى أخيه، وإن مدّ يده؛ مدها إلى أخيه، فاخترار منع رجله، وكف يده، وحبس نفسه

= الأول: في تعيين ابني آدم، الذين وقع بينهما القتال، أكانا من صلب آدم أم من بني إسرائيل.

والثاني: في الأمر الذي من أجله قربا القربان.

والثالث: في نوع القربان.

والرابع: في سبب تقبل الله من أحدهما دون الآخر.

والآيات الكريمة أجملت في هذه المواضع الأربعة فلم تفصل، غير أنها تشير إلى حقيقة أن كل منهما قربا قرباناً لله، وأن الله تقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر، فما كان منه إلا قتل أخيه بغياً وظلماً. ينظر: جامع البيان (١٠/ ٢٠٢) ومعالم التنزيل (٣/ ٤٣) وزاد المسير ص: ٣٧٣.

عن سورة الغضب، اختار أن يلقي الله مظلوماً مقتولاً، عن أن يلقيه الله ظالماً قاتلاً: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرُوا بِإِئْتِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ غير أن هذه النفس الباغية، لا تزال بصاحبها حتى طوعت قتل أخيه، وسهلته حتى قتله، ليكون من شؤم هذه الجريمة عليه؛ أن أول عقوبتها؛ ندم مرتكبها، ندمه على ذات فعله، لا على شيء آخر، هذا الفعل الذي خطط ودبر له، وحرص على القيام به، ينقلب عليه، ليكون باعثاً على الندم والحسرة في الدنيا، قبل العقوبة في الآخرة.

إنه موقف عجيب نادر أن يكون في الناس، ولهذا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذا الخبر على الناس، حتى يعتبروا به، ويأخذوا العظة منه، ويقتدوا بخير ابني آدم، وهذا ما جاء نصاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخبر الذي رواه سعد رضي الله عنه أنه قال: (إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي. قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي وبسط يده إلي ليقتلني؟ قال: كن كابن آدم)^(١).

لقد وعى هذا الدرس العظيم - مع شدته ومشقة العمل به - صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه يكف يده عن ردع الذين خرجوا عليه ظلماً، بل ويأمر من معه بكف أيديهم،

(١) أخرجه الترمذي [٤/ ٨٣ كتاب الفتن، باب ما جاء تكون فتنة القاعد فيها..] وأحمد (١/ ١٨٥)

وقال الترمذي: حديث حسن.

وَيُخْرِجُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، قَالَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِي: "إِنْ أَوَّلَ مَنْ أَخَذَ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِعِثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ"^(١).

(١) عزاه ابن كثير في تفسيره (٦٨/٣) إلى ابن أبي حاتم، ولم أجده في المطبوع منه.
ينظر خبر مقتل عثمان في: تاريخ الأمم والملوك (٦٦١/٢) والبداية والنهاية (١١٧/٤).

المطلب السادس: مجالات متنوعة.

في هذا المطلب نعرض لعدد من المجالات المتنوعة التي تتضمن نماذج للقدوة الحسنة، منها:
أولاً: الصدق.

الصدق من أبرز أخلاق المؤمنين، بل هو علامة فارقة بين المؤمن والمنافق، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان) ^(١).

ومن نماذج القدوة في الصدق؛ ما قصه الله تعالى من خبر الثلاثة ^(٢) الذين تخلفوا عن غزوة تبوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يخرجوا للقتال، وقد ذكر الله خبرهم في سورة التوبة، وأثنى عليهم بصدقهم رسول الله في سبب تخلفهم عنه لما خرج مع الصحابة إلى لقاء العدو في غزوة تبوك، جاء في خبرهم ما رواه كعب بن مالك - رضي الله عنه - وهو أحد الثلاثة الذي تخلفوا عن الغزو أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع من الغزو يقول: ((فجئته فلما سلمت عليه، تبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعال. فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك، ألم تكن قد

(١) أخرجه البخاري [١١ كتاب الإيمان، باب علامة المنافق] ومسلم [٧٨/١ كتاب الإيمان].

(٢) ذكرت كتب السير والمغازي أسماؤهم، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. ينظر: مغازي الواقدي ص: ١٠٧٣، وسيرة ابن هشام (٥/٢١٢).

ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني؛ ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني؛ لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك))^(١) لقد كان موقفاً غاية في الحرج على هؤلاء الثلاثة الكرام، حرج التخلف أولاً عن رسول الله وصحابته بلا عذر، حيث لم يتخلف - مع النساء - إلا صاحب عذر أو منافق معلوم النفاق، ثم حرج الصدق مع رسول الله وهو يرى الناس يعتذرون بشتى الأعذار، ويتذرعون بمختلف الأسباب، فيقبل الرسول منهم، ويستغفر لهم، ويكُلُّ سرائرهم إلى الله، وما كان يعجزهم أن يقولوا ببعض قول أولئك المعتذرين، حتى عاب عليهم قرابتهم ترك الاعتذار ونسبهم إلى قلة التوفيق، يقول كعب بن مالك يصور هذا الحرج واللوم من الناس له: (فقمتم - أي بعد خروجه من عند رسول الله - وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) أخرجه البخاري [٩٠٩ كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك] ومسلم [١٦٩١/٤ كتاب

التوبة] من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

قال: فو الله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسي)

ولم ينته البلاء بهم عند هذا الحرج الشديد، حتى يأمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس كل الناس بترك كلامهم والحديث معهم، في هجران مجتمعي كامل لهم هم وحدهم، دون سائر المتخلفين المعتذرين بأوهى سبب، ويزداد الأمر حرجاً فيأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن يعتزلوا نساءهم، وتبلغ الفتنة مداها حين يأتي كتاب من ملك غسان - وهو مشرك - يعرض على كعب بن مالك أن يلحق به ليواسيه، ويمنيه العزة والمجد والجاه.. إنها الفتنة تبلغ مداها فتضيق بهم الدنيا، وتتنكر لهم الأرض، يقول تعالى يصور هذه الحرج الذي هم فيه: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨] .

إنها نفوس كريمة تقيّة تأبى أن تخادع ذاتها حتى لو خدعت الناس، نفوس تأبى إلا قول الصدق مهما تكن التبعات، ومهما تكن العواقب، ولهذا امتدحهم الله وأثنى عليهم، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ

وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

لقد كان صدقهم مع الله ورسوله، وشجاعتهم في قول الحق وإن كان عليهم؛ سبب نجاتهم، وقبول توبتهم، بلا وثناء الله عليهم، وهذا ما جعل كعب بن مالك يستشعر عاقبة صدقه، ومرده الحسن، يقول رضي الله عنه: (يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين ابتلاه الله في صدق الحديث مذ حدثت ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أحسن مما ابتلاني، والله ما تعمدت مذ ذكرت ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى يومي هذا كذباً وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي) (١).

ثانياً: التسليم لأمر الله.

إن حقيقة الإيمان بالله صدقاً، والتسليم له حقاً يظهر كماله وتماحه حينما يكون مراد الله تعالى وأمره يعارض هوى النفس ومشتهاياتها، حين يكون أمر الله تعالى يحتاج إلى كثير من التضحية والفداء، إلى كثير من التسليم والرضا، يحتاج إلى أن يخرج المرء عن كل ثمين، ويضحى بكل عزيز، لا يستبقي لنفسه في نفسه شيئاً، بل يخرج عن كل شيء، وتلك منازل المقربين الأخيار، الْمُجْتَبِينَ الْأَبْرَار.

في كتاب الله نموذج لهذه الفئة من الخلق، نموذج لمثال بلغ الغاية في التسليم لله تعالى، والرضا عنه في أمره وقضائه، رضاً لم يخالطه حرج، وتسليم لم يَشُبْهُ تردد، في موقف لم تعرف البشرية أكرم منه ولا أذكى، إنه

(١) تقدم تخرجه في أول سياق قصة تخلفهم.

موقف شيخ الحنفية إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام^(١)، حين رأى إبراهيم عليه السلام في المنام ذبح ابنه، يقول تعالى ذاكراً هذا النموذج الكريم من التسليم له والرضا عنه، بادئاً بدعوة إبراهيم يقول تعالى: ﴿رَبِّ

هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَفَسَّرْنَاهُ بِعُلْمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ۚ قَالَ يَتَّبِعُكَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ [الصافات: ١٠٠ - ١١١] إنه موقف لا ندري فيه أيهما أعظم شأنًا، موقف الأب أم الابن، غير أنك لا تشك أنهما بلغا أعلى درجات الرضا عن الله، وأرفع مقامات التسليم له.

أما الأب إبراهيم عليه السلام فيأتيه هذا الأمر لذبح وحیده، وهو المقطوع عن الأهل والقربة، يأتيه الأمر بذبح وحیده الذي طالما تمتته نفسه، ورغب إلى ربه أن يرزقه إياه، حتى إذا تحققت له أمنيته كأحسن ما تكون، في غلام وصفه ربه بأنه حلیم، وتعلقت روحه به، تأتيه رؤيا المنام بذبح ابنه، فماذا كان منه، ما الذي جال بخاطره، ما الذي دار بخلده، لم يصدر من هذا القلب السليم غير التسليم، مع كونها مجرد رؤيا، وليست حياً صريحاً

(١) اختلف المفسرون من السلف رحمهم الله في الذبيح هنا أهو إسماعيل أم إسحاق عليهما الصلاة والسلام، ينظر: جامع البيان (٧٢/٢١) وزاد المسير ص: ١١٩١ وتفسير القرآن العظيم (٢٧/٧) والجامع لأحكام القرآن (٩٩/١٥).

مباشراً، فيستجيب لربه دون أن يتردد، أو يسأل، أو يستمهل، يستجيب في غاية الرضا والتسليم، راضاً تنطق به كلماته لابنه، وتسليم يشي به عرضه الأمر عليه كأبلغ ما تكون السكينة والطمأنينة: ﴿يَبْنِيْ اِيَّ اَرَى فِي الْمَنَامِ اَنِّيْ اَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ إنه لا يعرض على ابنه أن يرسله إلى موطن القتل وسفك الدماء، ولا يأمره أن يقوم بعمل يخاطر فيه بحياته، بل يعرض عليه أن يذبحه هو.. بيده هو، لم يشأ أن يأخذه على غيرة حتى ينفذ أمر ربه، بل يعرضه عليه، ويسأله أن يتمهل ويرى رأيه فيه، لينال هو الآخر شرف الرضا عن الله والتسليم له.

ونقف هنا لنلتقط أنفاسنا قبل سماع كلام الغلام الصغير، هذا الغلام الذي وصفه ربه بالحليم وهو صغير، لنرى في جوابه أثر هذا الحلم، تنطق بها جوارحه في سكناتها وحركاتها: ﴿قَالَ يَتَابَتِ اَفْعَلُ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِيْ اِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰبِرِيْنَ﴾ إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب، ولكن في رضاء ويقين، ينقاد بغير تردد ولا ارتياب، مع بالغ الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال؛ ولهذا يستعين بربه على ضعفه ويسأله أن يلهمه الصبر والثبات.

حتى إذا نطق الأب وابنه بحقائق الإيمان والتسليم، جاء التطبيق والتنفيذ، لتبلغ الفتنة مداها، وليبلغ البلاء غايته، ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة، وعظمة الإيمان، وطمأنينة الرضا وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان، إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعداداً لذبحه، وإن الغلام يمضي معه مستسلماً لا يفر ولا يتردد، وقد وصل الأمر إلى أن يكون

عياناً، لقد أسلمنا، فهذا هو الإسلام، هذا هو الإسلام في حقيقته، ثقة و طاعة وطمأنينة ورضا وتسليم، وتنفيذ، وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم .

إنها ليست الشجاعة والجرأة، وليس الاندفاع والحماسة، لقد يندفع المجاهد في الميدان، يُقْتَل ويُقْتَل، ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه ربما لا يعود، ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر، ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة، ولا اندفاع في عجلة تُخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص! إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المرید، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون، لا بل هنا الرضا الهادئ المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل!

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا، كانا قد أسلما، كانا قد حققا الأمر والتكليف، ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه، وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أرادته منهما ربهما، كان الابتلاء قد تم، والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت، وغاياته قد تحققت، وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما وتسليمهما له: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝١٠٢ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّٰبِرْهُمَا ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْبَلٰٓؤُا الْمُبِيْنُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيْمٍ﴾ لقد أراد الله تعالى ألا يبقى في نفس إبراهيم وابنه من حظ النفس شيء دون الله تعالى، حتى إذا تم هذا وجادا بكل شيء وأعز شيء، جاء الفرج من الله تعالى بذبح

عظيم: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿﴾ نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء، ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء، ونجزيهم بإقذارهم وإصبارهم على الأداء، ونجزيهم كذلك باستحقاق عظيم الجزاء!

ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى، تخلد هذه الحادثة العظيمة التي يقتدي بها أهل الإيمان في معرفة جمال الطاعة، وعظمة التسليم، وأن الله تعالى وهو ربهم لا يريد أن يعذبهم بالابتلاء، ولا أن يؤذيه بالبلاء، إنما يريد أن يأتونه طائعين ملينين، مستسلمين لا يتقدمون بين يديه عز وجل.

ثالثاً: التسليم للحق والانقياد له.

حينما تتضح معالم الحق، وتستبين أنواره، وتخالط بشاشته القلوب، وتذوق حلاوته الأرواح، حينها لا تقف العوائق أمام ضيائه أن يتسرب للقلوب، ولا تحجب السدُفُ ضوءه، تنقاد إليه القلوب وتهفوا إليه الأرواح، لا تملك من أمرها شيئاً، لا تلفت للظلام وأهله، تنقاد له غير حذرة من العواقب، وإن يكن فيها ذهاب الأموال، وسفك الدماء.

في كتاب الله تعالى نموذج عالٍ في التسليم للحق، والانقياد له، نموذج من طراز فريد في نوعه، فريد في موقفه، حتى استحق أن يُشاد به في كتاب الله، ليس في موضع واحد، بل في أكثر من موضع، ذلك ما كان من خبر سحرة فرعون، لما تحدى فرعون موسى عليه السلام، وضرب موعد لذلك، وتولى فرعون وجمع أمهر السحرة وجاء بهم، يقول تعالى ذاكراً ما جرى بين فرعون وملائته في شأن موسى عليه السلام، وأنجع الوسائل

لمواجهته: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَبْنِئَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنْتُمْ مُقْلُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهْنِيَدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا صَبِيرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَنْطَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ [الشعراء: ٣٤ - ٥١] لقد جاء هؤلاء السحرة أول ما جاؤوا، وهم يطمعون في رضا فرعون عنهم، وقر بهم منه، ومكافأته لهم: ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ لقد جاؤوا وهم يريدون إظهار تفوقهم في فنون السحر وطرقه، ظناً منهم أن موسى عليه السلام إنما أراد أن ينازعهم في فنهم، ويظهر تفوقه عليهم: ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَآسَرُوا النَّجْوَى﴾ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرُنَ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرْيَقِكُمُ الْمُنَى ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ [طه: ٦٢ - ٦٤] حتى إذا اجتمع الناس وغص المكان بالمحتشدين، بدؤوا عرض سحرهم، واثقين بنصرهم، معتزين بفرعون وسلطانه، وجاؤوا بسحر وصفه الله تعالى بأنه عظيم، أربح كل من حضر حتى موسى عليه السلام أوجس خيفة من هول ما رأى، غير أن الله تعالى ثبَّت رسوله، وربط على

قلبه، وأوحى إليه فالتقى عصاه التي بيده: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۚ﴾ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ [الأعراف: ١١٧ - ١١٩] نعم لقد وقع الحق وزهق الباطل، وبان دجل السحر والسحرة، ظهر الحق الذي جاء به موسى من الله تعالى، فإذا العصا التي كانت جماداً إذا بها تنقلب بقدرة الله حيّة حقيقة، وإذا بها تتحرك وتسعى، لتأكل الإفك الذي صنعه السحرة، وهنا يؤخذ السحرة من هول المنظر، يؤخذون من عظم ما يرون، تلك العصا التي كانت عوداً صغيراً في يد موسى، تتحول حقيقة وليس تخيلاً، وصدقاً وليس تزييفاً، يرونها تتحول حية حقيقة تسعى وتأكل ما يلقي فيها، يرون ذلك - وهم أهل السحر وخبرائه - فيرون الحق الذي لا تزييف فيه ولا خداع، فما يملكون أمام سلطان الحق - وقد أخذ عليهم قلوبهم - لا يملكون إلا أن يخروا ساجدين لمن أجرى هذه الآية الباهرة، والمعجزة الناطقة، يسجدون له بطريقة تدل على أنهم لم يملكوا غير هذا، لم يملكوا حتى مجرد الكلام ولا التعبير عن انبهارهم، بل يخرون ساجدين لله، ليكون فعلهم أبلغ من كل قول، وأسمع من كل بيان: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۖ﴾ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ نعم رب موسى وهارون الذي أجرى هذه المعجزة على يدهما.

لقد خَرَّ سحرة فرعون لله تعالى كافرين بفرعون، كافرين بسلطانه، غير عابئين بجبروته وعذابه، سجدوا لله تعالى أمام هذه الحشود العظيمة، لا ليعلموا هزيمتهم فقط، بل لإيمانهم برب موسى وهارون، برب هذه الحية

التي أكلت سحرهم وزيفهم.

إنه نموذج كريم في التسليم للحق، والانقياد له عندما ترتفع راياته، وتبين علاماته، نموذج في التسليم للحق، بعد أن تخالط بشاشته القلوب، وتسري روحه في الأرواح، لتحيا به بعد أن كانت ميّنة لا حراك فيها.

لقد أنكر فرعون على السحرة إيمانهم بالحق، وعَجِبَ من تسليمهم له، قبل أن يأذن لهم، ناسياً أن الحق والهدى، لا يستأذن إذا دخل القلوب، ولا يخرج إذا سكن الأرواح، مهما تكن المغريات كبيرة، ومهما تكن العواقب وخيمة، غير أن الطاغية لا يدرك هذه الحقيقة ولا يشعر بها، وأنى له ذلك، فيُرْعِد ويُرْبِد ويتوعد ويهدد، يقول: ﴿ءَامَنُتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ لَا تُفْطِنَ أَيْدِيكُمْ وَأُزْجِلْكُمْ مِنَ خَلْفٍ وَلَا أَصْلَحْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فما يزيدون على قولهم: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ لا ضير لأنه لا يمكنهم التنازل عن الحق، لا ضير لأن الدنيا ليست عوضاً عن الآخرة، لا ضير لأنهم يعلمون أن المرد والمرجع لله تعالى، ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ

عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿٧٣﴾

[طه: ٧٢ - ٧٣] لقد كان كل جريمتهم أنهم انقادوا للحق، وأسلموا له، بعد

أن رأوا برهانه: ﴿وَمَا نَقِمْ مِّنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِإِيتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا

صَبْرًا وَتَوْفَنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣ - ١٢٦] موقف من الثبات على الحق قلّ

مثيله، وصورة من الشجاعة في مواجهة الباطل قلّ نظيرها.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد كشفت هذه الدراسة عن عدد من النتائج والتوصيات، أعرضها مختصرة في النقاط التالية:

١. دلت هذه الدراسة على أن القدوة والافتداء، سلوك له ثلاثة أركان:
 - أ- المقتدي ب- المقتدى به ج- السلوك الذي يقع فيه الاقتداء.
٢. وردت ألفاظ في القرآن الكريم، هي نظائر لكلمة القدوة، حيث تقاربها في المعنى والدلالة، وهي: الأسوة، والإمام، والإتباع، والمثل.
٣. إن سلوك الاقتداء والتأثر بالمحيط؛ سلوك فطري، نابع من أصل تكوين الإنسان، لا يمكن للمرء أن يسلم منه؛ لأنه يصادف رغبة ملحة تدفع البشر جميعاً - مهما كانت أعمارهم، أو مستوياتهم العلمية - إلى سلوك الاقتداء والتقليد لغيرهم، وإن اختلفت درجات التأثير والافتداء.
٤. تبين لنا من خلال هذا البحث أهمية القدوة الحسنة، وأثرها البالغ على الأفراد والمجتمعات، ويظهر هذا في أمور، منها:
 - أ- نشر القيم.

ب- إعطاء الدليل العملي.

ت- إعطاء التطبيق العملي الصحيح للسلوك.

٥. أبانت هذه الدراسة عن أن الاقتداء، يدخل في مجالات الحياة كلها، وميادينها جميعاً، لأن حقيقة سلوك الاقتداء؛ قائم على معنى المتابعة

- والتأثر بالمقتدى به، في سلوكه وأفعاله، والإنسان له في كل حالة سلوكٌ وأفعالٌ، ربما كانت محلاً لتأثير الناس واقتدائهم بها.
٦. كشفت هذه الدراسة أن نماذج القدوة الحسنة في القرآن الكريم كثيرة متنوعة، يصعب الإحاطة بها؛ فكل الشخصيات والقصص التي ذكرت في القرآن الكريم، التي تمثل جانب الخير، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، رجالاً أو نساءً، هي في الحقيقة نماذج للقدوة الحسنة، وهذا يكشف لنا أحد أهم جوانب فوائد قصص القرآن الكريم، لأن الله تعالى إنما ذكرها لأخذ العبرة منها، والافتداء بالمحسنين من أهلها.
٧. يجب أن يكون سلوك الاقتداء عن وعي وإدراك، وليس مجرد تقليد؛ لأن الله لما أمر بالاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ قال بعد ذلك: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ والرجاء لا يكون إلا بقصد وإدراك.
٨. جاءت آيات القرآن الكريم داعية إلى أخذ القدوة والأسوة الحسنة بطريقتين: الطريق الأول: الدعوة الصريحة لأخذ القدوة: كالأمر بالاقتداء. الطريق الثاني الدعوة غير الصريحة: كالثناء على صفات القدوة وأفعاله.
٩. ترجع أصناف القدوة إلى صنفين؛ الأول: الأنبياء. الثاني: الصالحون من أتباع الأنبياء، فإما الصنف الأول فالأصل أن الاقتداء به مطلق، إلا أن يرد ما يستثني هذا، كما في قصة إبراهيم مع أبيه، وقصة يونس عليهما السلام، وأما من عداهم فإن الاقتداء بهم مشروط بأن يكون في جانب الخير.

على أن الاقتداء قد يخرج عن هذا ليكون ذات الكتاب المنزل من الله تعالى إماماً يقتدى به الناس، وهذا ما يقرره قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۖ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرِيبٍ لِّسُنْدَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ وَبُشِّرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

كما أن المقتدى به وإن يكن في الأصل أعياناً مشاهدة، يُقتدى بها ويتابعها الناس على سلوكها؛ فربما يتوسع الأمر حتى يصير السلوك بذاته، ومجموع العادات؛ قدوة للناس، بغض النظر عن أعيان أصحابها، وفي قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فِيمُهَدْيُهُمْ أَفْتَدَىٰ﴾ إيماء لهذا المعنى، حيث جعل تعالى محل الاقتداء مجموع الهدى الذي كان عليه الأنبياء.

وهذا المعنى يؤسس قاعدة يمكن تلخيصها بأن يقال: إن كل سابق في الخير؛ هو قدوة لمن جاء بعده، وكل من سار على نهج من سبقه، وجرى على طريقته؛ فهو مقتد به.

١٠. تضمن البحث ذكر عدد من صفات القدوة؛ وهي ترجع إلى معنى كلي ينظمها جميعاً، وهو العبودية لله تعالى، ونعني بها العبودية التامة، المتضمنة كمال الخضوع والانقياد، والتجافي عن كل مظاهر الشرك، غير أنه يحسن التنبيه على عدد من النقاط تتعلق بصفات القدوة:

أ- أن تلك الصفات هي في أرفع درجات الصفات وأكملها، ولا يعني أن عداها من صفاتهم الحسنة ليست محلاً للقدوة والتأسي.

ب- أن هذه الصفات التي أشرنا إليها في هذا البحث؛ هي في أعلى درجات الكمال الإنساني، وقليل من يدرك أعلاها، ولهذا فأهلها يتفاوتون فيها، وعندئذ فيكفي أن تكون معياراً لصفات القدوة الحسنة، فبقدر ما في المرء منها؛ يكون التأسي به.

ت- أنه ليس بلازم أن يكون الأسوة الحسنة مُبرراً من كل عيب، سالماً من كل نقص، دل على ذلك استثناء استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه، فلم يجعله الله محلاً للأسوة.

١١. كان التركيز في القرآن الكريم على السلوك الذي هو محل الاقتداء، دون شخصيات القدوة ذاتها، يؤكد هذا أن آيات القرآن الكريم وهي تعرض تلك النماذج لا تشير - في غالب الحال - إلى اسمها، أو مكانها، أو زمانها، وإنما يكون الاهتمام بمواقفها مجردة عن زمانها ومكانها، حتى يكون الاعتبار بالمواقف، بعيداً عن شخوصها زماناً ومكاناً، ما لم يكن لذكرها أثر.

١٢. وأخيراً فقد ظهر من خلال البحث أن القرآن الكريم كما تحدث عن جانب القدوة الحسنة؛ فقد تحدث عن الجانب الآخر، وهو القدوة السيئة، وهو جانب جدير بالبحث والدراسة ولهذا فالباحث يوصي بأن يدرس جانب القدوة السيئة في ضوء آيات القرآن الكريم دراسة علمية مستقلة.

هذا وأسأل الله تعالى الكريم، البر الرحيم، أن يجعل هذا العمل خالصاً له سبحانه، مقرباً مرضاته، سبحانه ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

- أحكام القرآن أحمد بن علي الجصاص محمد الصادق قمحاوي دار إحياء التراث، بيروت، ط ١٤٠٥ هـ
- الإحكام في أصول الأحكام، علي بن أحمد بن حزم، مطبعة السعادة، ط ١٣٤٥ هـ
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز، محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث، بيروت ط: بدون
- أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر، بيروت، ط ٢.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، محمد الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١٤١٧ هـ
- البداية والنهاية، أبو الفداء ابن كثير، أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الريان، القاهرة، ط ١- ١٤٠٨ هـ
- تاج العروس ، محمد مرتضى الزبيدي، الكويت / ١٩٦٨ م.
- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت ط: بدون
- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور.
- التفسير البسيط، علي بن أحمد الواحدي.

- مجموعة من المحققين بإشراف جامعة الإمام، مطابع جامعة الإمام ط ١
١٤٣٠هـ
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، سامي بن محمد
سلامة، دار طيبة، الرياض.
- تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، عبد السلام هارون، المؤسسة
المصرية، مصر
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبد الرحمن بن محمد السعدي
مؤسسة الرسالة، بيروت ط ٢
- جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، أحمد شاكر،
الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ
- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ، محمد بن إسماعيل
البخاري، دار السلام، الرياض ط ١ - ١٤١٧هـ
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، محمد الحفناوي، دار
الحديث، القاهرة ط ١ - ١٤١٤هـ
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر،
بيروت ط ١٤١٤هـ
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي، دار
إحياء التراث العربي، بيروت

- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي، زهير الشاوبش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١ - ١٤٢٣هـ
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، محمد مصطفى الأعظمي، شركة الطباعة، الرياض، ط ٢ - ١٤٠٤هـ
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، صدقي العطار، دار الفكر، بيروت ط ١٤١٤هـ
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، صدقي العطار، دار الفكر، بيروت ط: ١٤١٤هـ
- سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، المكتب الإسلامي لتحقيق التراث، دار المعرفة، بيروت ط ٢ - ١٤١٢هـ
- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري، مصطفى السقا وآخرون، دار الخير، بيروت، ط ١ - ١٤١٢هـ
- شرح صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت ط: بدون
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ترقيم محمد فؤاد، دار بن حزم، بيروت ط ١ - ١٤١٦هـ
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، ترقيم محمد فؤاد، دار الريان، القاهرة، ط ١ - ١٤٠٧هـ

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ط: ١٤٠٣هـ
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٤٠٧ - ٢هـ
- كاريزما السلم الوظيفي، عمر أبو عاذرة، دار الخليج للنشر والتوزيع، عمان
- لسان العرب، ابن منظور، أمين محمد عبد الوهاب وآخرون، إحياء التراث، بيروت ط ١٤١٧ - ٢هـ
- مجمع الزائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٢هـ
- مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب الأشبيلي، عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤١٣ - ١هـ
- المحرر في أصول الفقه، محمد بن أحمد السرخسي، دار المعرفة، بيروت
- المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر الرازي، طه جابر العلوان، جامعة الإمام، الرياض، ط ١ - ١٣٥٧هـ
- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن سيده، مصطفى السقا،

- مكتبة مصطفى البابي، القاهرة ط ١ - ١٩٥٨ م
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، دار الفكر، بيروت ط ٢
 - المستصفى في علم أصول الفقه، محمد الغزالي، محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١ - ١٤١٣ هـ
 - المسند، أحمد بن حنبل، دار الفكر، بيروت.
 - معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، خالد عبد الرحمن وآخرون، دار المعرفة، بيروت.
 - المعجم الكبير، سليمان الطبراني، حمدي السلفي، ط: ١٩٨٠ م
 - معجم مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد الأصفهاني، دار الفكر، بيروت،
 - المغازي، محمد بن عمر الواقدي، مارسون جونسون، ط ٣ - ١٩٨٤ م
 - مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١ - ١٤١١ هـ

من وسائل علاج المشاكل الزوجية

في ضوء الكتاب والسنة

إعداد

د. إبراهيم بن علي الحسن

د. إبراهيم بن علي الحسن

- عضو هيئة التدريس بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (جمال الدين القاسمي ومنهجه في التفسير).
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (تفسير البسيط للواحيدي من أول سورة الأنفال إلى آخر سورة يونس) تحقيقاً ودراسة.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد :

فلقد حرص الإسلام على جلب السعادة الدنيوية والأخروية لأفراده، وكان من أعظم وسائله بناء الأسرة المسلمة بناء متيناً، راسي القواعد، محكم البناء، محفوظ الوحدة، محمياً من التهتك والتمزق والشتات.

والأسرة هي اللبنة الأولى للمجتمع، وهي مدرسة الإيمان، وغارسة العقيدة، ومنها تتخرج الأجيال المسلمة، وفيها تتربى الناشئة على التطبيق العملي للإسلام.

ومتى ما حُصنت الأسرة، وحُميت من عوامل الهدم، والاضطراب النفسي، استقام المجتمع، وصلاح أمره، واستظل أفراده بظلال وارفة، من هناءة العيش، وطمأنينة البال، والتفرغ لمهام الحياة، وتحقيق الهدف من الوجود.

إن حماية الأسرة من النزاعات، التي تؤدي إلى الشقاق والتصدع، غاية شريفة، ومطلب نبيل، أبدى القرآن وأعاد في سبيل تحقيقه، وتكاثرت النصوص في تحصيله .

بل إن الشريعة جعلت التفريط في حقوق القرابة قطيعة رحم، يستحق فاعلها اللعنة؛ كما قال الله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ ﴿١﴾.

والبصير بأحوال الناس يعلم أن من أعظم مفسدات الأسر، ومنغصات الحياة، المشاكل الأسرية، والخلافات الزوجية، فهي تقلب الفرح ترحاً، والسعادة شقاء، والاتحاد فرقة، والأنس وحشة، والحب بغضاً.

بل إن المشاكل بين الزوجين هي البوابة الكبرى للطلاق، ذلك المعول الهادم للبيوت، والمصادر للسعادة.

إن كثيراً من الأسر المسلمة اليوم قد اهتزت من جذورها، وتفككت أواصر كانت مرعية، وتغيرت ثوابت كانت محمية، وما ذاك إلا أننا نعيش في عالم مفتوح، يعج بالتواصل والتأثر والتأثير، وصار الشباب من الجنسين يطلعون على ثقافات أمم، وسلوك أقوام، قد تحطمت عندهم أواصر القربى، وتهشمت قداسة الأسرة.

وتمت عامل مهم ينبغي أن يتفطن له، وهو أن المرأة المسلمة - وبكيد من غيرها - قد خطت خطوات واسعة، في مجال محاكاة المرأة الغربية، وبقي الرجل - في الجملة - بنفس الفكر والمنهج والتعامل الذي كان عليه الجيل السابق، مما وسع الهوة بين الجنسين، حتى كأنهما من بيئتين مختلفتين، فحل

(١) سورة محمد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

الصراع والنزاع والجفوة، بدل التفاهم والصلح والمحبة، والتعاون على جلب المصالح، ودرء المفاسد .

ومن الواجب المتحتم على أهل العلم، ورجال الإصلاح، والمهتمين بتربية الأجيال، إنارة الطريق لشباب الإسلام، وبيان هدايات دينهم؛ لبناء أسرهم أولاً، ثم حمايتها من المؤثرات والمنغصات ثانياً .

وقد كتبت فيما سبق بحثاً بعنوان: "القواعد الذهبية للعلاقات الزوجية في ضوء القرآن"^(١) بينت فيه ما ينبغي مراعاته عند بناء الأسرة، وعوامل استمرارها، كدوحة غناء، يستظل بها الزوجان والناشئة، ثم المجتمع والأمة.

ثم رأيت أن من تمام ذلك تتبع الهدايات القرآنية، والعلاجات النبوية، للخلافات الزوجية، فجمعت ما تيسر منها، وجعلت لها عنواناً هو: "من وسائل علاج المشاكل الزوجية في ضوء الكتاب والسنة".

خطة البحث :

يتكون هذا البحث من مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة .
المقدمة: وهي ما بين أيدينا، وفيها بيان أهمية الأسرة، وخطورة الخلافات الزوجية، وخطة البحث .

التمهيد: أسباب الخلافات الزوجية .

المبحث الأول: العلاج النفسي لمشاعر البغض .

(١) نشر في مجلة الدراسات القرآنية، العدد (٧) ١٤٣١ هـ.

المبحث الثاني: التخيير وأثره في الوثام بين الزوجين .

المبحث الثالث: علاج نشوز الزوجين .

المبحث الرابع: الإيلاء وتجربة الفرقة .

الخاتمة: وفيها خلاصة البحث وأهم النتائج .

ثبت المراجع .

فهرس الموضوعات.

منهجى في البحث :

يمكن تلخيص المنهج الذي سرت عليه بأنه استقرائي وصفي، وفق

النقاط التالية:-

١- حرصت أن يكون البحث معتمداً على ما ورد في الكتاب والسنة، وما

خرج عنهما فهو شرح وتوضيح، وبيان للمقصود .

٢- اعتمدت على الأحاديث الصحيحة والحسنة، ولم أذكر حديثاً ضعيفاً

إلا مع الإشارة إلى ذلك، وقد خرجت الأحاديث، مقتصرأً على ما

يحقق المقصود، وهو بيان درجة الحديث، فإن كان في الصحيحين،

أو في أحدهما اقتصرت على ذلك، وإلا ذكرت بعض من خرّجه،

مفضلاً من نص على صحته .

٣- التزمت بترقيم الآيات وعزوها إلى سورها .

٤- سلكت منهج التفسير الموضوعي في بحث كل جزئية، ولم أقصد

استيفاء كل ما ورد في ذلك؛ بل اقتصرت على ما يحقق الغرض

والاستشهاد .

٥- اعتمدت في مجمل البحث على مصادر أصيلة، وأمّهات كتب معتبرة عند العلماء، ويستثنى من ذلك ما تقتضيه طبيعة البحث، في قضايا معاصرة أو نحوها .

٦- قد أظنّ في بعض المباحث؛ لاعتقادي أن حاجة الناس تقتضي ذلك؛ وأنّ تمام البيان يستلزم الاستطراد والتفصيل .

٧- لم أترجم للأعلام؛ لأنّ أكثرهم مشاهير، لا يجهلهم القارئ المثقف، والقلة القليلة من المعاصرين مجاهيل بالنسبة لي، وليس بين يدي ترجمة لكثير منهم .

٨- حرصت أن يكون هذا البحث مرتبطاً بالواقع، وعلاجاً لقضايا معاصرة، وخطاباً لكافة القراء، وليس للنخبة المثقفة، وأسأل الله أن أكون حققت بعض ما حرصت عليه .

هذا وأسأل الله العظيم أن ينفع بهذا الجهد، وأن يحقق المقصود منه، من تنبيه شباب الأمة لما قد يعترض حياتهم الزوجية، ولفت انتباههم لطرق حل الخلافات، وعدم التعجل بالطلاق، فهو الكي الذي يكون آخر العلاج، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه .

تمهيد

أسباب الخلافات الزوجية

الأسرة تجمع إنساني، يجمع بين ذكر وأنثى، ثم تنمو بوجود الذرية فتتشابك المصالح، وتتنوع الوظائف، وتختلف الميول والاهتمامات والطموحات، والنظرة للحياة، مما قد يؤدي إلى تصادم بعض المصالح، واختلاف وجهات النظر، وعدم القدرة - أحياناً - على التمييز بين ما للفرد وما عليه، وقد يعتمد البعض الإخلال بذلك؛ لحب التسلط، أو الرغبة في التملك، أو الظن أن ذلك نوع تأديب، وهكذا تتولد المشاكل، ثم تتراكم وتتعد وتتشابك، ثم تنتج قلقاً ونزقاً وغضباً، وقد تتطور إلى حقد مكبوت، وحزن دائم، مما يقطع خط الرجعة إلى الصلح والمسامحة .

إن الحياة الزوجية لن تخلو من مشاكل وقتية، وخلافات في أمور طارئة، مهما كانت الثقافة، أو الدين، أو تقارب الطباع، فالحياة الزوجية لن تكون أبد الدهر حباً وهياماً وتغزلاً، بل لابد من منغصات هي كالمالح للطعام، إذ يعقبها اعتذار وإرضاء، وإشعار بقيمة الطرف الآخر، وتأسف مما حدث، مما يقوي العلاقة الزوجية، ويزيد من اكتشاف أغوار الشخص، وماذا يحب وماذا يكره، بل إن بعض الباحثين الاجتماعيين، يرى أن الحياة الزوجية التي لا تحدث فيها خلافات قط، تستوجب الدراسة والبحث؛ إذ قد يؤول الأمر إلى عدم جدية أحد الطرفين، أو عدم أمانته وصدقه^(١).

(١) انظر: تحفة العروس، ص ٤٠٥.

والخطورة تكمن في المشاكل المستديمة، أو ما تفضي إلى تضرر أحد الطرفين، أو حزنه الدائم، أو شعوره بعدم التوفيق في هذه الزيجة، أو تستدعي مساعدة خارجية، أو تؤدي إلى هجر، أو طلاق .
وعند السبر والتتبع نجد أن أبرز أسباب المشاكل الزوجية هي :

١ - سوء الاختيار:

فالزواج شراكة عمرية، وارتباط مصيري؛ ولذا ينبغي الجد في حسن الاختيار، والتريث في الارتباط، حتى يترجح تحقق الضرورات من الصفات، من وجهة نظر كل طرف.

ويؤكد أهمية حسن الاختيار قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾^(١)، كما يدل عليه قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض، وفساد عريض"^(٢)، فمن دعائم الزواج الناجح شعور كل طرف بطيب الآخر، ورضاه عن دينه وخلقه، والمرء لا يهنأ إلا بمعاشرة من يشاكله، ويمكن الاستئناس بقوله تعالى: ﴿الْخَيِّثَاتُ لِلْخَيْثِثِ وَالْخَيِثُوتُ لِلْخَيْثِثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾^(٣)، فالمراد بهم الرجال والنساء على

(١) سورة النساء، الآية: ٣.

(٢) رواه الترمذي، كتاب النكاح، ح(١٠٨٥)(٣/٣٨٦) وحسنه الألباني، صحيح الجامع الصغير، ح(٢٧٠)(١/١١٢).

(٣) سورة النور، الآية: ٢٦.

أحد القولين في تفسير الآية ^(١).

وقد استرسلت في التأكيد على حسن الاختيار، وما ينبغي مراعاته من الصفات في القاعدة الأولى من بحثي السابق " القواعد الذهبية في العلاقات الزوجية " .

٢- اختلاف الميول :

فقد تكون الفتاة - مثلاً - ذات ميول معينة، وثقافة خاصة، وترغب أن تعيش نمطاً معيناً من الحياة، ثم تفاجأ بأن بعلمها عكس التيار الذي اختارته لنفسها، وحينئذ إما أن تعيش على مضض، مع كثرة الخلافات والمشاكل، أو تطلب الطلاق، وقد بين النبي -صلى الله عليه وسلم- أثر المشكلة والمشابهة في الائتلاف والاختلاف فقال: "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف" ^(٢)، قال الحافظ ابن حجر: (قال الخطابي: يحتمل أن يكون إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشر، والصلاح والفساد، وأن الخير من الناس يحنُّ إلى شكله، والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر، فإذا اتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت... وقال القرطبي: الأرواح وإن اتفقت في كونها أرواحاً؛ لكنها تتمايز بأمر مختلف تنوع بها، فتتشاكل أشخاص النوع الواحد وتتناسب، بسبب ما اجتمعت فيه من

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٢٨٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، ح (١٠٢) (١/ ٩٩).

المعنى الخاص لذلك النوع) ^(١).

ولذا ينبغي للزوجين أن يكونا واضحين قبل العقد، وأن يكشفوا ما يحبان، وما يكرهان، ونمط الحياة التي يرغبان في سلوكها، وأن لا يكون الفارق بينهما عظيماً في التدين، والانفتاح على الثقافات الوافدة .
كما أن لأسرتي الزوجين دوراً مهماً في ذلك، فهم أعرف الناس برغبات أولادهم وميولهم، وما هو الأصلح لهم، وليتذكر الجميع قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "من غش فليس مني" ^(٢).

٣- الجهل بالمسؤولية تجاه الزواج :

فقد يتزوج الشاب طمعاً في متعة أو أولاد، أو تحقيقاً لرغبة والد، أو مجارة زميل، ويجهل ما يترتب على الزواج من مسؤوليات وتضحيات، وكدح وتعاون، وما يستوجبه من معاملة حكيمة، وإدارة سليمة، ونفقات باهظة، والتزام بحدود الله فيما له وما عليه، وتخلُّ عن عادات، وارتباطٍ بقيود والتزامات .

وقد أرشد الله تعالى العاجز عن النكاح إلى عدم خوض غماره، فقال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ^(٣)، وفي الحديث: "يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة

(١) فتح الباري (٦/٣٦٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب الأرواح جنود مجنونة (٤/٢٦٨) ومسلم، كتاب البر، ح (٢٦٣٨) (٤/٢٠٣١).

(٣) سورة النور: الآية: ٣٣.

فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء"^(١).

قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله-: (وفي الحديث إرشاد العاجز عن مؤن النكاح إلى الصوم)^(٢)، وذكر ابن دقيق العيد عن بعض العلماء تحريم النكاح في حق من يخل بالزوجة في الوطء أو الإنفاق^(٣).

٤- عدم النضج العقلي والعاطفي :

فالبعض يتقدم في السن، ولكن عقله وعاطفته دون سنه وهيئته، مما يترتب على ذلك سوء تصرفه، وعدم ضبط عواطفه^(٤).

ومن أكبر أسباب التفاوت بين العمر الزمني والعمر العقلي والعاطفي، انفصال الصغار عن الكبار، وعدم الالتقاء إلا لماماً، فالولد منعزل عن الكبار بسبب الدراسة والألعاب، والشبكة العنكبوتية، ثم الاستراحات، وتكوين مجموعات شبابية، تعمق البعد عن الكبار، ومن ثم يقدم الشاب على الزواج ورصيده من تجارب الحياة، ومن العقل المكتسب، والقدرة على تحمل المسؤولية، والدربة على حل المشاكل، يكاد يكون معدوماً، وقد أشار الله سبحانه إلى المؤهل للزواج، والجدير بإنشاء أسرة بقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح(٣) (٣/٧) ومسلم كتاب النكاح، ح(١٤٠٠) (٢/١٠١٨).

(٢) فتح الباري (٩/١١١).

(٦) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٤) انظر: أصول علم النفس، ص ١٤٠، ٤٠٩.

﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾^(١)، فقد أشارت هذه الآية إلى ثلاث خلال ينبغي أن يتحلى بها الزوج :

أ - قوله تعالى: "الرِّجَالُ" ومن معاني الرجولة في لغة العرب: الكمال، والاتصاف بصفات تخرجه عن الصغر والفسه والتخنث، ففي لسان العرب: (الرجل صفة يُعنى بذلك الشدة والكمال، قال: وعلى ذلك أجاز سيويو الجري في قولهم مررت برجل رجل أبوه، والأكثر الرفع، وقال في موضع آخر: إذا قلت هذا الرجل، فقد يجوز أن تعني كماله... وفي معنى تقول: هذا رجل: كامل، وهذا رجل: أي فوق الغلام)^(٢)، وبهذا نعرف سر التعبير بقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ ولم يقل: الذكور قوامون على الإناث، ففي هذا التعبير إثارة لمكامن الرجولة فيهم تجاه هذه المسؤولية العظيمة، إذ لا يقوم بهذه القوامه حقاً، إلا من كانوا رجالاً حقاً^(٣).

ب - قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي بما خصهم به من خصائص تميزهم عن النساء، فليس أهلاً للتزويج من تشبه بالنساء، وتخلي عن صفات الرجولة .

ج - قوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ فالنفقة من ضرورات الحياة

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٢) لسان العرب (رجل) (٢٦٦/١١) باختصار.

(٣) انظر: تفسير آيات الأحكام في سورة النساء، د: اللاحم (١/ ٦٠٠).

الزوجية، وقد نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- فاطمة بنت قيس -رضي الله عنها- عن التزوج بصعلوك لا مال له ^(١)، والفقير الترب يؤمر بالاستعفاف، وحفظ الفرج والصوم، دون الزواج، قال تعالى: وَلَيْسَتَعَفِفِ ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ^(٢).

٥ - الأمية النفسية :

والمراد بذلك نقص النضج الانفعالي، والخوف على الذات، وعدم الثقة بالنفس، واستخدام وسائل بدائية للدفاع عن الشخصية ^(٣)، واعتقاد أن التنازلات والتضحيات لشريك الحياة، وغض الطرف عن الهنات، تنازل مهين، وبخس لحق النفس، بينما يرى الناضج نفسياً الطرف الآخر كعضو من أعضائه، فليس ثمت غالب أو مغلوب، بل هناك أعضاء لجسد واحد، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ ^(٤)، وفي الحديث: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" ^(٥)، فإذا كان هذا مع الأبعدين، فكيف بمن جعل الله بينهما من القرب ما لا يكون بين الوالد وولده .

(١) رواه مسلم، كتاب الطلاق، ح (١٤٨٠) (٢/ ١١١٤).

(٢) سورة النور: الآية: ٣٣.

(٣) يستحسن الاطلاع على مبحث: النضج الانفعالي في أصول علم النفس، ص: ١٤٠.

(٤) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٥) رواه مسلم، كتاب البر، ح (٢٥٨٩) (٤/ ٢٠٠١).

٦ - تولد المشاكل:

عند سبر أحوال المختلفين من الأزواج، نجد أن البدايات يسيرة سهلة، ثم بالجهل، أو العناد، أو المكابرة، تكبر المشكلة، ثم تولد مشاكل لا نهاية لها، إن لم يقض عليها ابتداءً، وقديماً قيل:

ومعظم النار من مستصغر الشرر^(١)

ولكي تتضح حقيقة المراد بتولد المشاكل، إليك هذه القصة المتكررة في واقعنا:

أسرة سعيدة مكونة من زوجين عاقلين متحابين، وعدد من الأولاد، وذات ليلة عاد الزوج متأخراً من اجتماع له مع أصحابه، وكان في ذلك الاجتماع شيء من الإثارة، فراود امرأته فوجد منها صدوداً، عتباً على تأخره، فبات مغضباً، وفي الصباح استأذنت المرأة في زيارة أمها القريبة من سكنها، فقال بلهجة الغضب: لا زيارة اليوم!..

وانطلق إلى عمله، ولما عاد ظهراً لم يجد الغداء، فذهب إلى أقرب مطعم فأكل، ثم عاد دون أن يُحضر لأسرته طعاماً، فاشتد غضب المرأة، وانطلقت إلى أهلها، فتأزمت الأمور، وتعمدت المشاكل، وامتألت الأنفس غيضا وغضباً، وطال الهجر!..

ولم يعد الاستقرار إلى هذه الأسرة إلا بعد تدخل عقلاء، وظهور مستور

(١) عجز بيت لابن أبي حجلة، انظر: ديوان الصبابة له، ص: ٢٥، وصدرة: كل الحوادث مبداها من النظر.

مخبوء، ما كان ينبغي أن يظهر، ولو قضى أحد الزوجين على المشكلة في مهدها، لما وصلت إلى ما وصلت إليه .

ولقد حذرنا الله تعالى من نزغ الشيطان فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١) وقال جل وعلا: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾^(٢) .

٧- عدم تنظيم الدخل المادي :

إن عدم الوضوح في دخل الزوج، وعدم وضع ميزانية للأسرة، وإبعاد المرأة عن إعدادها، يجعلها تطالب بأمور قد تفوق طاقة الزوج مادياً أو معنوياً، مما يجعله متوتراً قلقاً، وقد تتهمه بالبخل، وتبدأ في إثارة مشاكل لا تنتهي .

والإسلام يربي أتباعه على الاعتدال في الإنفاق، فلا إسراف يصل إلى حد التبذير، ولا إمساك يصل إلى حد البخل والتقتير، والقاعدة في هذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾^(٤) مع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٧.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

ومما يؤسف له أن كثيراً من الشباب، يخلّون بهذه التعاليم الربانية، فيقعون في أحد طرفي الذم، فتسوء العشرة الزوجية، إما بسبب التقدير، أو بسبب الفقر، وتراكم الديون، نتيجة الإسراف والتبذير.

٨ - سوء الخلق :

إن سوء خلق أحد الزوجين، وبذاءة لسانه، وعصبية، وسرعة غضبه، من أعظم مثيرات المشاكل، وتعظم المشكلة إذا ظن الطرف الآخر أن سوء الخلق ناشئ عن عدم الاحترام، ومعرفة القدر !.

إن احترام المرء هو طريق حبه، بل هو المنزل الذي يأوي إليه، والملاذ الذي يلجأ إليه، والقلب لا يستطيع حب من لا يبادلّه الاحترام والتقدير والتوقير، وقد أرشدنا الله تعالى إلى كليات الاحترام المتبادل في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَائِهِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢).

٩ - اتكالية أحد الزوجين :

إن إهمال أحد الزوجين المنزل والأطفال، وجعل العبء كله على الطرف الآخر، يشعره بالظلم فتسوء نفسيته، ويقل عطاؤه، فتتولد المشاكل، ومن توجيهات القرآن لأفراد الأمة قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

(١) سورة الحشر، الآية : ٩.

(٢) سورة الحجرات: ١١.

وَالْتَقَوْا وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾، ويقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: "خيركم خيركم لأهله" (٢) ويقول - صلى الله عليه وسلم -: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" (٣).

١٠ - إثارة الغيرة (٤):

تكمل السعادة الزوجية عند ابتعاد شبح الشك، فلا تنبعث الغيرة التي فطر الله عليها الزوجين، ويكون هذا بالبعد عن مواطن الريبة، كالمواقع الإباحية، والسفر إلى الأماكن المشبوهة، وخروج المرأة في وقت غير مناسب، أو عملها في مكان لا يرضى عنه الزوج، أو يتوجس منه ريبة، والمؤمن مطالب بنفي التهمة عن نفسه، كما فعل النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله للرجلين الذين مرا به ومعه زوجته: "على رسلكما! إنما هي صفية بنت حيي" ثم قال: "إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً" (٥)، والعاقل لا يفتح على نفسه ثغرة، يدخل منها الشيطان، فيفسد عليه حياته، ويقضي على سعادته.

ومما يثير غيرة المرأة وصف محاسن أخرى، أو الحديث عن التعدد بلا

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح (١١٨) (٤٧/٧) ومسلم، كتاب الإمارة ح (١٨٢٩) (١٤٥٩/٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان ح (١٢) (١٧/١).

(٤) للتوسع انظر: أسرار الحياة الزوجية: ص ١٤٣.

(٥) رواه البخاري، كتاب الاعتكاف، ح (١٣٩) (١٠٦/٣).

مبرر، وهذا من الأذية التي نهى الله عنها في قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾^(١).

١١ - عدم التجديد في حياة الزوجين :

إن نمط الحياة الواحد محل، والفراغ قاتل، والتكرار سبب للسأم، ويخفف هذا تجديد الحياة والأوضاع، الذي ينبغي أن يتناسب مع القدرات، فهو كما يكون في الطعام واللباس، فإنه يكون أيضاً بإضافة عمل إلى الأسرة، كاشتراك في مسابقة، أو قراءة كتاب، أو صيام تطوع، أو زيارة أقارب، أو خروج لنزهة، أو استغلال العطل لتغيير المكان، أو منح الزوجة إجازة مطولة لزيارة أهلها...

ومما يعين على تجديد الحياة اللهو مع الزوجة، واللعب، والمداعبة، فهذه الأمور تدخل السرور على قلبها، وتقضي على النمط الواحد للحياة، والتكرار الممل للأعمال، والرتابة التي تدعو إلى السآمة، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل، إلا رمي به بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهم من الحق "^(٢) ولما أخبر جابر - رضي الله عنه - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه تزوج ثيباً قال له: " هلا جارية تلاعبها وتلاعبك "^(٣).

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٨.

(٢) رواه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، ح(١٦٣٧) (٤ / ١٧٤) وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير، ح(٤٥٣٤) (٢ / ٨٣٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح(١٧) (٨ / ٧).

إن الحياة جميلة إذا كان الزوج مصدر إسعاد، وعامل أنس، وممكن عطاء، ومنبع فيض، وفي الحديث: "أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سروراً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطعمه خبزاً"^(١)، والقاعدة الشرعية التي أكد عليها ديننا، وينبغي أن يراعيها كل مسلم هي: "ابدأ بمن تعول"^(٢).

١٢ - وسائل الإعلام :

لبعض وسائل الإعلام دور في إثارة المشاكل الزوجية، فهي تغرس صورة غير حقيقية للحياة الزوجية، وتضخم دور ما يسمى بالحب، ويعنون به نزوة الشهوة الجنسية، كما أن للإعلام دوراً في إفساد ما بين الزوجين، بتضخيم الظلم الذي تتعرض له المرأة، ومطالبتها باستيفاء حقوقها، والتنمر على بعلمها، والتدمير من ثوابت دينها، وأعراف مجتمعتها، فتبدأ سلسلة من المشاكل التي قد تؤدي إلى الطلاق^(٣).

ويتجلى خطر الإعلام بمعرفة من يوجهه في الجملة، وهم أهل الكتاب، وقد قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب قضاء الحوائج، ح(١١٢) ص: ٩٥، و البيهقي في شعب الإيمان، ح(٧٦٧٨) (٦/ ١٢٣) بنحوه، وهو حديث حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير، ح(١٠٩٦) (١/ ٢٤٧)، وقال العجلوني في كشف الخفاء ح(٤٥١) (١/ ١٥٢): ضعفه المنذري، لكنه حسن لشواهده.

(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، ح(٣٠) (٢/ ٢٢٨).

(٣) انظر: الإسلام وبناء المجتمع، ص ٦٥، ونحو أسرة سعيدة ص ١٦٧.

يُرَدُّوْكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ^(١)، وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ جَبَالُؤُودُ وَاُمَمَانٌ ثُمَّ قَدَّ بَدَتِ الْبَعْضَةُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْثَرُ﴾ ^(٢).

١٣ - العلاقة الجنسية ^(٣):

لقد قرر بعض المتخصصين بأن وراء كل اضطراب جنسي بين الزوجين مشاكل زوجية، والواقع يشهد أن لهذا القول نصيباً من الصحة، فالعلاقة الجنسية السليمة أمر ضروري في كل زواج سعيد؛ لأن السكن، والمودة، والرحمة بين الزوجين، تضعف إذا ساءت هذه العلاقة، ولأن عدم إرواء هذه الغريزة لفترة طويلة، يسبب توتراً وقلقاً وارتياباً، بل وفي بعض الأحيان نفوراً بين الزوجين .

وقد لا يتفطن بعض الأزواج إلى أن هذا هو السبب الحقيقي للتغير المفاجئ في أخلاق امرأته، وإثارتها للمشاكل، ولأنفه الأمور .

ومن الجدير بالتحذير الدخول في حلقة مفرغة مظلمة، إذ إن المشاكل الزوجية تولد حزناً وقلقاً وهمّاً وغماً، فتضعف القدرة الجنسية، وضعفها يزيد المشاكل، فيستمر الضعف الجنسي، فتفتر العلاقة بين الزوجين، ويصبح بينهما سياجاً من الوهم، إذ يتوهمان مرضاً أو عينا أو سحراً.

(١) سورة آل عمران، الآية : ١٠٠ .

(٢) سورة آل عمران، الآية : ١١٨ .

(٣) انظر: اللقاء بين الزوجين : ص ١٢٠، وأسرار الحياة الزوجية ص ١٨٩، والزوج والزوجة ص

وأخيراً أهمس في أذن كل زوج أن لا يُسمع امرأته كلمة: لا أحبك، أو أفكر في طلاقك، مهما ساءت العلاقة بينهما؛ لأن الحب عند المرأة يعني الحياة، فإذا فقدته فكأنها فقدت الحياة، وإذا انكسر قلب المرأة بسماع تلك النعمة النشاز صعب ترميمه .

إن على الزوج أن يتذكر قول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١)، ومن أعظم المعروف إشعارها بالدفء، والحنان، والأمان، مهما كتم القلب من بغض أو غضب .

هذه أبرز الأسباب المسببة للمشاكل الزوجية، ولعل في الورقات التالية علاجاً جذرياً لهذه المشاكل، مبنياً على كتاب الله، وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولعلي بذلك أستطيع تقريب شيء من هدايات القرآن للأجيال الناشئة، التي تبحث عن حلول لمعاناتها، في مصادر غير أمينة، وهي على أقل تقدير حلول لأقوام في بيئات مختلفة عن بيئتنا، وأسست على واقع غير واقعنا، فما يناسبهم قد لا يناسبنا، وما يكون دواء هناك، قد يكون داء هنا، والله الموفق .

(١) سورة النساء، الآية ١٩ .

المبحث الأول

العلاج النفسي لشاعر الكره والبغض

ينظر الإسلام إلى عقد النكاح نظرة إكبار وإجلال، فهو ميثاق غليظ بنص قول الله تعالى ﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(١) وهو عقدة النكاح في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوا أَلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾^(٢) وفي لسان العرب: (العقدة: حجم العقد، والجمع عُقد... يقال: عقدت الحبل فهو معقود، وكذلك العهد، ومنه عقدة النكاح... والعقد: العهد، والجمع عقود، وهي أوكد العهود)^(٣).

وأخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن المرأة تنكح بكلمة الله، وتؤخذ إلى بيت زوجها بأمان الله، حيث قال: "... فأتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله"^(٤).

وقد حرص الإسلام على حفظ الأسرة من التهدم، وأبعد عنها أسباب التصدع، وعالج ما قد يطرأ عليها من عوامل الانحلال، ويظهر هذا جلياً فيما يمكن أن نسميه "العلاج النفسي للنفور الزوجي" فقد ينفر الرجل من امرأته، ويشعر بكرهها، ولا يجد لها من المحبة والمودة ما يحمله على إبقائها في عصمته، ويعالج القرآن هذه الحالة في قول الله تعالى:

(١) سورة النساء، الآية: ٢١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٣) لسان العرب "عقد" (٣/ ٢٩٦-٢٩٨) باختصار.

(٤) رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ح (١٢٨) (٢/ ٨٨٦).

﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(١).

ولعل في الوقفات التالية ما يجلي هذا العلاج، ويمنع شائئ امرأته من تعجيل الفراق، أو التفوه بالطلاق :

أولاً- في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ إرشاد للمسلم إلى تحمل المكروه المبغض من المرأة، وعدم التعجل بفراقها، وأن لا يكون الكره سبباً للفراق، فتمت جوانب خير، قد يكون الكره حجبها، وهذا ما أرشد إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله: "لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر" أو قال: "غيره"^(٢).

وهذا شأن العاقل في تعامله مع سائر بني آدم، من أب أو ابن أو صديق أو رئيس أو مرؤوس... الخ، فلا يكاد يوجد من يسلم من عيب أو نقص :

ومن ذا الذي ترضى سجايه كلها كفى بالمرء نبلاً أن تعد معايه^(٣) وإذا كان الأمر كذلك لم يبق إلا التحمل، وغض الطرف عن بواعث الكره، والانشغال بالمحاسن الموجودة في المرأة، وبهذا ينقلب البغض حباً، والكره مودة، كما هو مشاهد .

(١) سورة النساء، الآية: ١٩ .

(٢) رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، ح(١٤٦٩) (٢/ ١٠٩١).

(٣) البيت ليزيد بن خالد المهلب، انظر : خزائن الأدب (١/ ٤٥٦) .

ثانياً- قد يكون سبب الكره أمراً طارئاً من خصومه أو نزاع، أو اختلاف وجهات نظر، وعلاج هذا بالتأني، وعدم التعجل، ومما يحمل على ذلك التفطن إلى أن في العجلة فوات خير كثير، أو حصول مكروه يفوق المكروه الذي هرب منه، وهذا يندرج في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

ثالثاً- من لطيف تعبير القرآن تنكير لفظ "خير" وإبهامه؛ لتذهب النفس مذاهب شتى، ومعلوم أن مطامح الرجال تختلف باختلاف حاجاتهم، وميولهم وآمالهم، وقد ذكر بعض المفسرين أمثلة لهذا الخير، كالولد الصالح، وعطفه عليها بعد الكره^(١)، والحق أن لفظة "خير" تعم كل ما تحتمله الكلمة في السياق من معنى، فقد يكون في المرأة المكروهة دين تؤثر به على زوجها، أو تكون به سبباً لصلاح ذريته، وقد يكون عندها من حسن الرأي ما تعظم به منزلة زوجها، أو يكثر ماله، أو تستقيم صحته، بخلاف ما قد يكون عند غيرها من ضعف دين، أو سوء رأي، أو تبذير مال، مما يشتمل شمل الرجل، أو يفقره، أو يفقده عزه، وصدق الله القائل: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾^(٢).

قال أبو السعود: ("فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ" وسئتمن صحبتهم بمقتضى

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٢٢) طبعة شاكر، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٤٧٧).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

الطبيعة، من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك، من الأمور المذكورة، فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس، واصبروا على معاشرتهن ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَنَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ علة للجزاء، أقيمت مقامه، للإيذان بقوة استلزامها إياه، كأنه قيل: فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً ليس فيما تحبونه .

و"عسى" تامة رافعة لما بعدها، مستغنية عن تقدير الخبر، أي: فقد قرّبت كراحتكم شيئاً جعل الله فيه خيراً كثيراً، فإن النفس ربما تكره ما هو أصلح في الدين، وأحمد عاقبة، وأدنى إلى الخير، وتحب ما هو بخلافه، فليكن نظركم إلى ما فيه خير وصلاح، دون ما تهوى أنفسكم .

وذكر الفعل الأول مع الاستغناء عنه، وانحصار العلية في الثاني، للتوسل إلى تعميم مفعوله؛ ليفيد أن ترتيب الخير الكثير من الله ليس مخصوصاً بمكروه دون مكروه، بل هو سنة إلهية، جارية على الإطلاق، حسب اقتضاء الحكمة، وأن ما نحن فيه (يعني كره الزوجة) مادة من موادها، وفيه من المبالغة في الحمل على ترك المفارقة، وتعميم الإرشاد ما لا يخفى^(١).

وقال ابن عاشور بعد أن فسر قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: (وهذه حكمة عظيمة، إذ قد تكره النفوس ما في عاقبته خير، فبعضه يمكن التوصل إلى معرفة ما فيه من الخير عند غوص الرأي، وبعضه

(١) تفسير أبي السعود (٢/ ١٥٨).

قد علم الله أن فيه خيراً، لكنه لم يظهر للناس... والمقصود من هذا: الإرشاد إلى إعماق النظر، وتغلغل الرأي في عواقب الأشياء، وعدم الاغترار بالبوارق الظاهرة، ولا بميل الشهوات إلى ما في الأفعال من ملاءم، حتى يسبره بمسبار الرأي، فيتحقق سلامة حسن الظاهر، من سوء خفايا الباطن^(١).

رابعاً- يفهم مما سبق أن الأسرة المسلمة لا تبنى على الحب وحده، فالحب عمل قلبي، والقلب قُلْب، وما تحبه اليوم قد تكرهه غداً، والعكس بالعكس، ولذا لا ينبغي أن تكون العلاقة الزوجية ريشة في مهب الريح، وعرضه لنزوة العاطفة، وحماقة الهوى.

لقد همّ رجل أن يطلق امرأته لأنه لا يحبها، فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - "ويحك! وهل لم تبني البيوت إلا على الحب؟! فأين الرعاية والتدبّر؟!"^(٢).

إن كثيراً من بيوت المسلمين اليوم تتصدع، بل تهدم بسبب الغزو الإعلامي المؤثر، الذي يصور الزوجين بصورة العاشقين الهائمين، يكتنفهما حب واله، وغرام مسعور، مع تضخيم ما يسمونه الحب، وهم يعنون به النزوة العاطفية، والميل الجنسي المحدود.

وقد اكتسح الإعلام مساحة كبيرة، من عقول الفتيان والفتيات، وصاروا يطمعون إلى تحويل ما يرونه من تمثيل عبر الشاشة، إلى واقع

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٨٧).

(٢) منهج السنة في الزواج، ص: ٤٢٦.

ملموس، يحياه الزوجان طول العمر!!.

وهيهات هيهات!! فالحياة الزوجية الواقعية يعترها شد وجذب،
وحلو ومر، وصفو وعكر، وحب وبغض، ورضا وسخط، وهذا واقع كل
متعاشرين، ولو لفترة يسيرة، فكيف بزوجين قررا الارتباط مدى العمر،
وما أصدق قول كُثِير^(١) :

ومن لا يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عائب
ومن يتبع جاهداً كل عشرة يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

وقال بشار بن برد^(٢) :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
وقال زهير بن أبي سلمى^(٣) :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
إن توجيهات القرآن الكريم ترفع الاهتمامات، وتملاً فراغ النفس،
وتصور واقع الحياة كما هو، من غير شطط ولا شطح، فإذا أراد الزوجان أن
يعيشا حياة السعادة، والأمن، والسلام، فليتدبرا كتاب الله، وليمتثلا أمره،
وليصبر كل واحد منهما على ما يسوؤه من الآخر، وليتذكر قول الله تعالى:

(١) البيتان لكثير عزة، انظر ديوانه: ١٥٤.

(٢) انظر: ديوانه: ٣٠٩ / ١.

(٣) انظر: شرح ديوانه: ص ٢٩.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(١).

وتمت أمر نهمس به في أذن العروسين، فقد يشنأ أحدهما الآخر في بداية الأمر، ولكن ليعلم أن هذا في الغالب سببه شيء من المفاجأة، واكتشاف الآخر على حقيقته، وبروز شيء من النقص أو العيب لم يكن في الحسبان .

وعلاج هذا بالصبر والتلطف، فسرعان ما يألف أحدهما الآخر، ويرضى به، فينمو الحب بينهما، وتتقوى روابط الألفة والمودة، ويغتبط أحدهما بالآخر، حتى إنه ينكر على نفسه تلك الحالة النفسية التي مر بها في مستقبل الحياة الزوجية .

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

المبحث الثاني

التخيير وأثره في الوئام بين الزوجين

قد يكون الزوجان عاقلين راشدين، راغبين في بقاء عقدة النكاح، كارهين للانفصال، ولكن يقع بينهما نزغ شيطان، أو هوى، أو مصلحة معينة، أو اختلاف في وجهات النظر، ومن ثم ينظر أحدهما أو كلاهما من منظار ضيق، ومن خلال تلك القضية المتنازع عليها وحسب، وبهذا تتكرر الحياة الزوجية، ويدخلان في نفق مظلم لا نهاية له، وحينئذ لا بد من الحسم، وفض النزاع، ووضع حد لتلك المشكلة، وقد عالج القرآن مثل تلك القضية بما يعرف بتخيير المرأة، فتختار أحد أمرين: إما قطع مادة النزاع، والإعراض كلية عن مثير الإشكال، وإما الطلاق؛ لكي تنهيها فرصة اختيار الطريق الذي يناسبها، والحياة التي تصبو إليها.

وفي الفقرات التالية بيان ذلك :

أولاً- قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلٌّ لِأَزْوَاجِهِ إِن كُنْتَن تَرُدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَنَعَالَيْكُمْ أُمْتِعَكُنَّ وَأُسْرِخَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۖ وَلَئِن كُنْتَن تَرُدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالَّذَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾^(١).

وقد جاء في السنة ما يكشف ملابسات نزول هاتين الآيتين، فقد اختار النبي - صلى الله عليه وسلم - لنفسه ولنسائه معيشة الكفاف، والرضا بأدنى القوت، وقد كان يمضي الشهر والشهران لا يوقد في بيوته

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢٩، ٢٨.

نار، اكتفاء بالتمر والماء^(١)، وكان نساؤه راضيات صابرات، حتى رأى المال يفيض بين يديه - صلى الله عليه وسلم - فتحركت في أنفسهن - رضي الله عنهن - الرغبة في تغيير الحال، وطمعن في زيادة النفقة، قال أبو حيان: (لما نصر الله نبيه، وفرّق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير^(٢)) ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود، وذخائرهم، فقعدن حوله وقلن: يا رسول الله! بنات كسرى وقصر في الحلي والحلل، والإماء والخول، ونحن على ما نراه من الفاقة والضيق، وآمن قلبه بمطالبتهم له بتوسعة الحال، وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم^(٣)).

ولكن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يصغ إلى تلك المطالبة، ولم

(١) أنظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب فضل الفقر ح (٤٦) (١٥٧/٨)، ومسلم، كتاب الزهد ح (٢٩٧٢) (٤/٢٢٨٣).

(٢) هذا وهم من أبي حيان - رحمه الله - سببه ذكر آية التخيير بعد ذكر بني قريظة، والراجح أن حادثة التخيير إنما كانت في السنة التاسعة، ويدل على ذلك أمور:

أ - قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٣٨/٧): (وآية التخيير نزلت سنة تسع اتفاقاً) وقال في موضع آخر (١٩٧/٩) بعد أن نقل ذلك عن الحافظ الدميّطي: (وهو المعتمد).

ب - قول عمر في قصة التخيير: "وكنا قد تحدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا" رواه البخاري، كتاب النكاح باب موعظة الرجل ابنته، ح (١٢١) (٧/٥٠) ووجه الاستشهاد أن الاحتكاك بغسان إنما كان في أواخر حياة النبي - صلى الله عليه وسلم -.

ج - قول المفسرين - وفيهم أبو حيان في الموضع السابق - إن أزواج النبي آنذاك تسع، وهذا لم يكن حين غزوة قريظة سنة ٥ هـ، إذ إن زينب وأم حبيبة وصفية وميمونة إنما تزوج بهن سنة سبع.

(٣) البحر المحيط (٤٧١/٨) ولم أجد ما ذكره أبو حيان في كتب السنة المسندة.

يلتفت إلى متاع الحياة الدنيا، وأبى إلا أن يظل على الحالة الأولى التي اختارها لنفسه، استعلاءً على رغبات النفس، وحرصاً على الكمال البشري المنشود، وتفرغاً للمهمات الكبرى، ولما بالغت أزواجه في المطالبة، نزلت آيتا التخيير. فعن جابر - رضي الله عنه - قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوجد الناس جلوساً ببابه، لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي - صلى الله عليه وسلم - جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً، قال فقال : لأقولن شيئاً أضحك النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة - يعني امرأته - سألتني النفقة فقممت إليها فوجأت عنقها^(١)، فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: "هن حولي كما ترى يسألنني النفقة" فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما ليس عنده، فقلن: والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً، أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَنَّكَ قُلُوبُ زُوجِكَ﴾ حتى بلغ ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرٌ عَظِيمًا﴾ قال: فبدأ بعائشة فقال: "يا عائشة! إن أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيرني أبويك".

قالت: قلت وما هو؟ يا رسول الله!.

(١) الوجع: اللكز، ووجأه بيده: ضربه، انظر: لسان العرب (وجأ) (١/ ١٩٠).

فتلا عليها الرسول - صلى الله عليه وسلم - الآية، قلت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معتناً ولا متعتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً^(١).

وقد جاء في رواية عمر للقصة ما يصور شيئاً من معيشة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعذر أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - في مطالبتهن بزيادة النفقة، فعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل النبي - صلى الله عليه وسلم - نساءه... دخلت المسجد، فإذا الناس يكتون بالخصي^(٢) ويقولون: طلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب، قال عمر فقلت: لأعلمن ذلك اليوم، قال: فدخلت على عائشة فقلت: يا بنت أبي بكر قد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟! فقالت: مالي ومالك يا ابن الخطاب؟! عليك بعييتك^(٣)، قال فدخلت على حفصة بنت عمر فقلت لها: أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) رواه مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته... ح(١٤٧٨)(٢/١١٠٤) وبعضه في صحيح البخاري، كتاب التفسير باب قوله: "يا أيها النبي قل لأزواجك..." ح(٢٩٧)(٢١١/٦).

(٢) أي: يضرّبون الأرض بالخصي، وهو فعل المفكر المهموم. أنظر النهاية في غريب الحديث (نكت)(١١٣/٥).

(٣) أي: اشتغل بأهلك ودعني، وتعني حفصة، وعيبة الرجل أهله. أنظر المصدر السابق (عيب)، (٣٢٧/٣).

وسلم -؟! والله لقد علمت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يحبك ولولا أنا لطلقك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبكت أشد البكاء، فقلت لها: أين رسول الله؟ قالت: هو في خزانته... فدخلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو مضطجع على حصير، فجلست، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظاً^(١) في ناحية الغرفة، وإذا أفيق^(٢) معلق، قال: فابتدرت عيناى، قال ما يبكيك يا ابن الخطاب؟! قلت يا نبي الله ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصفوته، وهذه خزانتك! فقال: "يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟! "قلت: بلى"^(٣).

إن الصورة الواضحة التي صورها عمر - رضي الله عنه - لخزانة النبي - صلى الله عليه وسلم - تكشف حالة المعيشة التي رضيها لنفسه ولأزواجه، وتبين عذر أمهات المؤمنين في المطالبة بزيادة النفقة، ولهذا يستبعد ما ذكره أبو حيان - رحمه الله - بأنهن طالبنه - صلى الله عليه وسلم -

(١) القرظ: شجر يديغ به الجلد، أنظر لسان العرب (قرظ)، (٧/ ٤٥٤).

(٢) الأفيق: بفتح الهمزة وكسر الفاء، الجلد الذي لم يتم دباغه، وقيل الجلد الذي دبغ بغير قرظ، أنظر المصدر السابق (أفيق) (٦/ ١٠).

(٣) رواه مسلم، كتاب الطلاق، ح (١٤٧٩)، (٢/ ١١٠٥).

أن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم^(١)، بل واقع الحال يبين أنهم يطالبون بأن يساوين بسائر أهل المدينة، ولكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رضي لنفسه أدنى حد الكفاف، يشبع يوماً، ويجوع يوماً، ويدخل على أهله سائلاً: أعندكم شيء؟ فإن قالوا: لا، قال: فيني صائم^(٢).

ثانياً- يعلم مما سبق أن علاج الخلافات الزوجية بالتخير لا يكون إلا في القضايا الكبرى، وهو ينفع فيما إذا كان الزوجان في تمام رشدتهما، ومعرفتهما بنتائج تصرفهما، فالرجل يختار امرأته بين الفراق، أو الكف عن مثير الإشكال، والإعراض عن سبب النكد، وهو بهذا يعلن بصراحة لا مواربة فيها أنه لن يتنازل عما اختاره لنفسه، ولو أدى الأمر إلى الانفصال والطلاق.

وعلى المرأة أن تترى، وتحسب حساب المستقبل، وهل هناك ضمان بكونه خيراً من الحاضر، أو أن الأمر لا يعدو أن يكون كالمستجير من الرمضاء بالنار، ولا سيما إن كان بينهما مودة أو ذرية.

وعليها أن تتذكر أن المشكلة الحاضرة تجعل على العينين قتامة تحجب رؤية المحاسن، فإذا وقعت كارثة الطلاق، وأزيح الستار عن نتائجه الوخيمة، وآثاره النفسية والاجتماعية والمالية، ندمت ولات ساعة مندم، وفي قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعائشة: "إني ذاكر لك أمراً ما

(١) البحر المحيط (٤٧١ / ٨). ويؤكد عدم صحة هذا القول أني لم أجده في دواوين الإسلام المسندة.

(٢) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب جواز صوم النافلة .. ح (١١٥٤) (٢ / ٨٠٨).

أحب أن تعجلي فيه..." خير دليل على أن هذه القضية الكبرى، التي يترتب عليها تهدم أسرة، وتشتت أطفال، تحتاج إلى تروٍ ومشاورة .

ثالثاً- نلتبس حكمة الله في اختيار نزول هذه الآية بسبب مطالبة نساء النبي- صلى الله عليه وسلم- زيادة النفقة، والرغبة في شيء من متاع الحياة الدنيا وزينتها، إذ إن هذه القضية مثار إشكال في كثير من الأسر، وعلى مدار الدهر، فالمعروف أن لكل من الزوجين زاوية نظر، فالمرأة تركز على الحاضر، وترغب في التفوق على قريناتها، أو مجاراتهن على أقل الأحوال، بينما يركز الرجل على المستقبل، ويُعدُّ العدة لتحسينه، ويكون هذا - غالباً - على حساب الحاضر، ومن ثم يحدث النزاع بين الطرفين، وتكون هذه القضية - إن لم تحسم - مصدر إزعاج مستمر، فلا المرأة راضية عن واقعها، ولا الرجل مستعد بالمجازفة بثروته، في سبيل إرضاء زوجته، أو تكليف نفسه ما لا تطيق، إن كان قليل ذات اليد، فجاء القرآن الكريم بالعلاج الحاسم، وطبق الرسول - صلى الله عليه وسلم - تعاليم القرآن، ليكون قدوة للمسلمين، عبر الأجيال المتكررة، والقرون المتعاقبة .

رابعاً- في قضية التخيير نشهد لونا من ألوان تكريم الإسلام للمرأة، وذلك بتخييرها في مصيرها، فكما أن الخيار لها عند عقد النكاح، بالرضا بالزوج أو عدمه، فكذلك في بعض الأحوال تعطى الخيار، بأن تبقى في عصمة الزوج وفق إمكانياته، وما اختاره لنفسه، من أسلوب حياة، أو تختار البعد عن هذا الزوج، والبحث عن حياة ترضاه، وتستريح لها .

فإن قيل: إن هذا الخيار مرتبط بإرادة الزوج !.

فالجواب: نعم؛ لأنه بتخيره امرأته لا يجوز له أن يطالبها بالمهر، فهو الغارم الخاسر، فإن أرادت أن تتحمل عنه الغرم والخسارة، فلها ذلك في أي وقت تشاء، وهو ما يعرف بالخلع^(١).

فأين ما يشيع أعداء الإسلام، من أن الإسلام يظلم المرأة، ويلزمها بالعيش في كنف رجل لا تحبه، ولا ترغب في البقاء معه .

(١) انظر: المغنى (١٠/٢٦٧).

المبحث الثالث علاج نشوز الزوجين

تصعب قيادة الإنسان، وتتعسر إدارته، ويستحيل إرضاءه في كل حال، إذ يتنازعه دين وعقل وفطرة ومصلحة وعادة من جهة، وهوى وشهوة وطمع وطموح من جهة أخرى، ثم إن للشيطان لمّة وللملك لمّة^(١)، كما أن هناك هرمونات تتحكم بانفعالات الإنسان وتوتره، وكذلك للظروف الاجتماعية، والضغط النفسي، والمشاكل المحيطة بالمرء أثر في مزاجه وتصرفه .

بل إن من أبرز وجوه ضعف الإنسان - إذا لم يدرب نفسه، ويهذب خلقه، وبقي على حالة الطفولة - أن الكلمة ترضيه، وتسخطه الأخرى، وتفرحه ابتسامة أو موقف، وتترحه مثلها، فرحاً وترحاً قد يؤثر في حاضره ومستقبله .

والحياة الزوجية ليست بمنأى عن هذا الواقع البشري، وهي عرضة لتقلبات القلوب، وانفعالات الأنفس؛ ولهذا لن تعدم سماع أنين زوجين، وآهات قرينين، وكل منهما يندب حظه، وينعى قدره، ويشكو خله .
بل قد يتطور الأمر إلى هجر ومصارمة، وترفع ومناكدة، وهو ما أطلق عليه القرآن الكريم اسم "النشوز".

(١) جزء من حديث رواه الترمذي، كتاب التفسير، ح(٢٩٨٨)(٢١٩/٥) وقال: حسن غريب لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث أبي الأحوص .

وإذا تتبعنا آيات القرآن الكريم وطريقته في علاج هذا النشوز، تبين لنا أنه ثلاثة أنواع:

النوع الأول - نشوز الزوجة :

قال الله تعالى: ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضَرُّهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا^(١) إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا^(٢)﴾.

وحول هذه الآية عدة مسائل :

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ الخوف في لغة العرب يأتي بمعنى العلم، ففي لسان العرب: (... والخوف: العلم، وبه فسر الليحاني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا^(٣)﴾ (١).
ولذلك ذهب كثير من المفسرين إلى أن معنى قوله تعالى ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾: تعلمونه^(٣)، قال ابن جرير: (ووجه صرف "الخوف" في هذا الموضع إلى "العلم" في قول هؤلاء نظير صرف "الظن" إلى "العلم" لتقارب معنيهما، إذ كان "الظن" شكاً، وكان "الخوف" مقروناً برجاء، وكانا جميعاً من فعل المرء بقلبه، كما قال الشاعر^(٤) :

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤ .

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٨، لسان العرب (خوف) (٩/ ١٠٠) .

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٢٩٨) والبعوي (٢/ ٢٠٨) والمحرم الوجيز (٢/ ٤٨) .

(٤) هو أبو محجن الثقفي، انظر ديوانه : ص ٢٣ .

ولا تدفني في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها^(١)
وقال الفريق الآخر: "الخوف" في هذا الموضوع على بابه، وهو توقع
المكروه، وذلك بظهور أمارات النشوز وعلاماته^(٢)، والقول الأول أرجح
لما يأتي :

١ - ثبوت هذا المعنى في اللغة^(٣).

٢ - دلالة قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ فهو
تفسير للنشوز، وأنه عدم الطاعة، لا الخوف من عدم الطاعة .
٣ - أنه ترتب على ذلك هجر، وضرب، ومثل هذا لا يكفي فيه مجرد توقع
النشوز، والخوف منه .

٤ - أن كثيراً مما ذكره المفسرون من علامات النشوز، كالتأفف، والتكاسل،
والتغاضي عن بعض الأمور، وإظهار كراهية أمر يتعلق بالزوج، ونحو
ذلك لا تكاد تخلو منها أسرة، فهل يبيح ذلك للزوج الهجر والضرب؟! .
والنشوز في اللغة: الارتفاع، يقال: نشز الشيء، إذا ارتفع، وتل ناشز،
وأنشزت الشيء: إذا رفعت عنه مكانه^(٤).

ونشوز المرأة: ترفعها على بعلها، ومعصيتها له، وعدم طاعته،

(١) تفسير ابن جرير (٨/ ٢٩٨) (ط شاكر) .

(٢) انظر: المصدر السابق، وأحكام القرآن للجصاص (٢/ ١٨٩) ومعالم التنزيل (٢/ ٢٠٨) وتفسير القرآن
العظيم (١/ ٥٠٣) .

(٣) انظر: القاموس المحيط (خاف) (٣/ ١٣٩) .

(٤) انظر: تهذيب اللغة (نشر) (١١/ ٣٠٥) .

والتقصير في حقه الواجب، أو القيام بذلك على وجه التكره والتبرم^(١)، أو تعمد الأذى المادي أو المعنوي، مما يعد شذوذاً في العرف والعادة، ومما لا تستقيم معه عشرة، ولا تصفو به حياة .

الثانية - معنى قوله تعالى: " فَعِظُوهُنَّ " قال أهل اللغة: الوعظ والعظة والموعظة: النصيح والتذكير بالعواقب، وبما يلين قلب الإنسان من ثواب وعقاب^(٢).

وقال المفسرون: هذه هي المرحلة الأولى من مراحل علاج نشوز الزوجة، بأن توعظ بذكر تحريم النشوز، وأنه إثم عظيم؛ لما يترتب عليه من إضاعة واجب، وهو ترك حق الزوج .

والرجل العاقل لا يخفى عليه الوعظ الذي يؤثر على امرأته^(٣) ومن ذلك :

١ - تذكيرها بما يلين قلبها، مما أعد الله للزوجة المطيعة، كقول النبي ﷺ: "إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصنت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت"^(٤).

٢ - تذكيرها بالوعيد الشديد، للزوجة العاصية لزوجها، كقول النبي -صلى الله عليه

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٠٠) ومعالم التنزيل (٢/ ٢٠٨).

(٢) انظر: لسان العرب (وعظ) (٧/ ٤٦٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٢٩٩) وتفسير القرطبي (٥/ ١٧١) وتفسير ابن كثير (١/ ٥٠٣) وتفسير المنار (٥/ ٧٢).

(٤) رواه ابن حبان (ترتيب ابن بلبان) ح (٤١٦٣) (٩/ ٤٧١) وصححه المحقق شعيب الأرنؤوط، والألباني، انظر: صحيح الجامع الصغير، ح (٦٦٠) (١/ ١٧٤).

وسلم-: "إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت، فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح"^(١).

٣- تذكيرها بعظم حق زوجها، وأنه جنتها أو نارها، كما قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: "لو كنت امرأةً أحداً أن يسجد لأحد غير الله، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها كله، حتى لو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه"^(٢).

وعن الحصين بن محصن أن عمة له أتت النبي- صلى الله عليه وسلم- فقالت لها: "أذات زوج أنت؟" قالت: نعم! قال: "كيف أنت له؟"، قالت: لا آلوه إلا ما عجزت، قال: "فانظري أين أنت منه فإنما هو جنتك ونارك"^(٣).

٤- تذكيرها بما يؤول إليه نشوزها من منع نفقة، وطلاق، وتشتت أسرة، وضياع ذرية، وما آلت إليه حالة كثير من المطلقات، من عزوف الرجال عنهن.

ومما يُذكر الرجل به في هذا السياق، حثه على التفتيش عن سبب نشوز امرأته، فإن كان بخلاً أنفق، وإن كان إعراضاً أو سهراً أو سفراً، أو سوء منظر، أو رائحة، أصلح من شأنه، وأتم حق امرأته.

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، ح (٤٧) (٢٣٨/٤) ومسلم، كتاب النكاح، ح (١٤٣٦) (م/١٠٥٩).

(٢) رواه أحمد (٣٨١/٤) وحسنه الألباني، في صحيح الجامع الصغير، ح (٥٢٩٥) (٩٣٧/٢).

(٣) رواه أحمد (٣٤١/٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح (١٥٠٩) (٣١٦/١).

الثالثة - قوله تعالى: "وَأَهْجُرُوهُنَّ" الهجر: ضد الوصل، يقال: هجره يهجره هجراً وهجراناً: صرمه، ويقال: هجرت الشيء هجراً: إذا تركته وأغفلته^(١).

والمضاجع: جمع المضجع، واضطجع: نام، وقيل استلقى، ووضع جنبه بالأرض^(٢).

قال الأزهري: "يقال: ضاجع الرجل امرأته مضاجعة: إذا نام معها في شعار واحد، وهو ضجيعها، وهي ضجيعته"^(٣). وقد تعددت عبارات المفسرين في بيان المراد بالهجر في المضاجع، ومن أبرزها^(٤):

١ - قيل: هو ترك جماعها.

٢ - وقيل: هو ترك كلامها في المضجع، بأن يرقد عندها، ويوليها ظهره، ولا يكلمها.

٣ - وقيل: هو هجر المضجع، وعدم قرب فراشها.

وأرى أن اختلاف السلف في المراد بالهجر في المضاجع إنما هو اختلاف تنوع، فُصِدَ به التمثيل لا الحصر^(٥)، وعلى هذا، فالزوج أعلم بنفسية

(١) انظر: لسان العرب (هجر) (٥/ ٢٥٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (ضجع) (٨/ ٢١٩).

(٣) تهذيب اللغة (ضجع) (١/ ٣٣٤).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٠٦-٣٠٢) والدر المنثور (٤/ ٤٠٣-٤٠١).

(٥) يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن غالب ما صح عن السلف من الخلاف في التفسير يرجع إلى اختلاف تنوع، لا تضاد، وذلك صنفان: أحدهما - أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة =

زوجته، وما الهجر الذي يؤثر عليها، ويجعلها تفكر في عاقبة نشوزها .
 الرابعة- قوله تعالى: " وَأَصْرِيْهُنَّ " هذه المرحلة الثالثة في علاج
 النشوز، حيث لم تنفع الموعظة، ولم يؤثر الهجر، وأظهر أقوال المفسرين أن
 هذه العقوبات مرتبة، ولا يجمع بينها منذ الوهلة الأولى، بل الضرب
 كالكي، وهو آخر العلاج، فلا يُلجأ إليه لتقويم الاعوجاج، وعلاج
 النشوز، إلا حين لا تجدي الوسائل الأخرى، وثمت حول هذا العلاج
 وقفات :

١- لا يجوز الضرب إذا صلحت حال الزوجة بدونه، لأنه نوع
 اعتداء، أبيع للضرورة، والضرورة تقدر بقدرها، وقد جاء في الحديث أن
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا تضربوا إماء الله " فجاء عمر
 إلى رسول الله فقال: ذئرن^(١) النساء على أزواجهن، فرخص في ضربهن،
 فأطاف بآل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نساء كثير يشكون
 أزواجهن، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " لقد طاف بآل محمد نساء
 كثير، يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم "^(٢).

وعن معاوية القشيري قال: أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقلت:

= غير عبارة صاحبه، تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى .

الثاني- أن يذكر كل منها من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل، وتنبه المستمع على

النوع، لا على سبيل الحد . انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣/ ٣٣٣-٣٣٧)

(١) أي : نشزن واجترأ . انظر : النهاية في غريب الحديث (ذأر) (١/ ١٥١) .

(٢) رواه أبو داود كتاب النكاح، ح (٢١٤٦) (٢/ ٢٤٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير،

ح (٧٣٦٠) (٢/ ١٢٢٨) .

ما تقول في نسائنا؟ قال: "أطعموهن مما تأكلون، واكسوهن مما تكتسون، ولا تضربوهن، ولا تقبحوهن" وفي رواية: "أنت امرأتك أنى شئت، وأطعمها إذا طعمت، واكسها إذا اكتسيت، ولا تقبح الوجه، ولا تضرب"^(١).
إن خيار الرجال، والعالمين بفن قيادة النساء، لا يحتاجون إلى الضرب، تقول عائشة - رضي الله عنها -: "ما ضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله"^(٢).

٢- جاء في السنة بيان صفة الضرب، وذلك في قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح"^(٣)، ومعنى "غير مبرح" أي غير شاق، ولا مؤثر، ولا شائن^(٤) بل جاء عن عطاء، قال: قلت لابن عباس: ما الضرب غير المبرح؟ قال: "السواك وشبهه، يضربها به"^(٥)، وقال القاسمي: (... ومنهم من قال: ينبغي أن يكون الضرب بمنديل ملفوف، أو بيده، لا بسوط ولا عصا، قال عطاء: "ضرب بالسواك"^(٦)).

وقال الرازي: (... فالتخفيف مراعى في هذا الباب على أبلغ الوجوه

(١) رواه أبو داود كتاب النكاح، ح (٢١٤٣) وحسنه الألباني، صحيح الجامع الصغير ح (١٧) (٦٦/١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، ح (٢٣٢٨) (٤/١٨١٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب الحج، ح (١٢١٨) (٢/٨٩٠).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٨/٣١٤) والنهاية في غريب الحديث (١٣/١) ..

(٥) تفسير الطبري (٨/٣١٤).

(٦) محاسن التأويل (٥/١٢٢٢) وانظر قول عطاء في تفسير الطبري (٨/٣١٥).

... يدل عليه أنه تعالى ابتداءً بالوعظ، ثم ترقى منه إلى الهجران في المضاجع، ثم ترقى منه إلى الضرب، وذلك تنبيه يجري مجرى التصريح، في أنه مهما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به، ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق^(١).

وهذا يعلم أن المقصود من هذا الضرب إرسال رسالة إلى الزوجة، يعبر بها الزوج عن شدة غضبه، وعظيم انفعاله، بما لم تستطع العبارة إيصالها إليها لبلادتها، أو عدم مبالاتها.

٣- يعترض بعض علماء التربية الحديثة على الضرب، ويرون أنه وسيلة غير مجدية في التربية، بل قد يؤدي إلى عكس المقصود، وهذا القول بإطلاقه فيه نظر، فإن تجارب الأمم تثبت نفع الضرب، إذا كان في موضعه، وبيان ذلك فيما يلي:

أ - تختلف طبائع النساء، فمنهن من تردعها عن الخطأ الإشارة، ومنهن من تفهم بالعبارة، وصنف ثالث يحتاج إلى شيء من القسوة، وقديماً قيل:

العبد يقرع بالعصا والحر يكفيه الوعيد^(٢)

وقال بشار بن برد:

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحف مثل الرد^(٣)

ب- من خلال ترتيب القرآن لعلاج النشوز، وعلى ضوء السنة، يتبين لنا

(١) تفسير الفخر الرازي (٩٣/٥).

(٢) البيت لمالك بن الربيع، انظر الشعر والشعراء ص: ١٢٢.

(٣) انظر: المصدر السابق: الموضع نفسه.

أن الإسلام لا يحث على ضرب النساء، بل يبيحه عند الضرورة، وعلى قدر الحاجة، وخيار المسلمين لا يلجؤون إليه، وبناء على ذلك نقول: إن المقصود من الضرب علاج حالة طارئة، وإذا علم أن هذا العلاج قاتل فمقتضى العقل يردع عنه، وكثير من النساء ينفرن من الضرب، ولا يجدي معهن شيئاً، ومثل هذا الصنف لا يعالج بهذا العلاج .

ج- يقال للمعترض على الضرب: هذه المرأة التي تبلد إحساسها، أو ساءت تربيتها، أو نشأت في بيئة لا تأنف نساؤها من ضربهن، أيهما أنفع لها أن تطلق؛ لعجز الزوج عن ردعها عن غيها، أو تضرب ضرباً غير مبرح، فتستقيم العشرة معها، وتبقى في بيت زوجها، ومع ذريتها؟! .

إن من يعرف آثار الطلاق على المرأة والأولاد والمجتمع، يعرف الجواب الصواب .

الخامسة- ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ وهذا مناسب تمام المناسبة لمضمون الآية، إذ فيه تهديد للأزواج على ظلم النساء من غير سبب، وتنبية على أنهم وإن كانوا أعلى يداً، وأكبر درجة منهن، فإن الله سبحانه هو العلي القاهر، والكبير القادر، فلا يليق بمن يؤمن به أن يظلمهن، أو يبغى عليهن، فإن الله مع المظلوم، ولم يجعل بينه وبين دعوته حجاباً، فليحذر العاقل من ظلم البعداء، فضلاً عن الأقرباء، ممن ينتظر رفده، ويطمع في نصره .

النوع الثاني- نشوز الزوج :

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا

أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ ؕ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١﴾.

هذه الآيات تعالج نشوز الرجل، وترفعه على امرأته، وتعالیه عليها، أو إعراضه عنها لسبب من الأسباب، ولا يخفى أن العلاقات البشرية، ومنها العلاقة بين الزوجين، يكتنفها شيء من الفتور والصدود والإعراض، وقد سبق بيان العلاج إذا كان ذلك من قبل المرأة، أما إن كان ذلك من قبل الزوج فإن هذه الآيات القرآنية قد عالجت هذه الحالة، وبيان ذلك في الوقفات التالية :

أولاً- سبق بيان " الخوف " وأنه العلم واليقين بحدوث المكروه، أو الظن الغالب، لوجود أمارات تدل عليه .

أما الفرق بين "النشوز" و "الإعراض" في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ فإن النشوز: التجافي عن المرأة، ومنعها حقها من نفسه، أو نفقته، أو أذيته، بسبب، أو ضرب، أما الإعراض فهو أخف من النشوز، كأن يقلل من محادثتها ومؤانستها، أو يظهر بعض الصدود

(١) سورة النساء، الآيات: ١٢٨-١٣٠.

والتأفف^(١).

ثانياً - الوفاق خير من الفراق:

ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ والمعنى: لا إثم على الزوجين فيما تصالحا عليه، حتى تبقى المرأة في عصمة الرجل، مع زوال النشوز عليها، والإعراض عنها، قال القرطبي: (ويدخل في هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصلح بين الرجل وامرأته، في مال، أو وطء، أو غير ذلك)^(٢)

ومن صور هذا الصلح تنازل المرأة عن حقها أو بعضه، في القسم أو النفقة، أو هبة ليلتها لضرتها، أو تقول له: لا تطلقني وأنت حل من شأني^(٣).

وسبب نزول هذه الآيات يزيد الآية وضوحاً، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: "قالت سودة بنت زمعة حين أسنت، وفِرقت أن يفارقها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا رسول الله، يومي هو لعائشة، فقبل ذلك منها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت عائشة رضي الله عنها: في ذلك أنزل الله تعالى وفي أشباهها: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾^(٤).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦٨/٩) والبحر المحيط (٦/٤).

(٢) تفسير القرطبي (٤٠٦/٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٦٨/٥) وتفسير البغوي: (٢٩٤/٢).

(٤) رواه أبو داود ح (٢١٣٥) (٢٤٢/٢) والحاكم كتاب النكاح (١٨٦/٢) واللفظ له وصححه ووافقه الذهبي.

وفي رواية عنها: ﴿وَأَنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر، منها يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية في ذلك" (١).

وعن رافع بن خديج -رضي الله عنه- أنه كان تحتة امرأة قد خلا من سنهها، فتزوج عليها شابة، فأثر البكر عليها، فأبت امرأته الأولى أن تقرر على ذلك، فطلقها تطليقة، حتى إذا بقي من أجلها يسير قال: إن شئت راجعتك، وصبرت على الأثرة، وإن شئت تركتك حتى يخلو أجلك، قالت: بل راجعني، أصبر على الأثرة... قال: فذلك الصلح الذي بلغنا أن الله قد أنزل فيه: ﴿وَأَنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (٢).

وقوله تعالى "وَالصُّلْحُ خَيْرٌ" يرشد إلى أن الصلح بين الزوجين، والعفو عن بعض الحقوق، وحمل النفس على ما تكره، كالتنازل عن المرغوب، خير من الطلاق، وبعض الشيء خير من لا شيء، والمرأة العاقلة تفكر في عواقب الأمور، من تأمين سكن، ونفقة، وقرب من ذرية، وإعانة على غض البصر، وحفظ الفرج، وغير ذلك من مصالح الزواج، فلا تشتت في طلب الفراق، ورفض الصلح.

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم والغصب، ح(٢٣)(٣/٢٦٠) ومسلم كتاب التفسير، ح(٣٠٢١) (٢٣١٦/٤).

(٢) رواه الحاكم في المستدرک، كتاب التفسير (٣٠٨/٢) وقال صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

كما أن في هذه الجملة "وَالصُّلْحُ خَيْرٌ" ما يرشد إلى أن الوفاق أحب إلى الله من الفراق، بل إن الطلاق بغض إلى الله، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق" ^(١).

ثالثاً- الحذر من الشح ومعوقات الصلح :

قوله تعالى: "وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ" تذكير بطباع النفوس، فكل من الزوجين يشح بنصيبه من الآخر ^(٢)، والشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة ^(٣).

قال القرطبي: (قال ابن جبير: " هو شح المرأة بالنفقة من زوجها، وبقسمه لها أيامها"، وقال ابن زيد: " الشح هنا منه ومنها"، قال ابن عطية: وهذا أحسن، فإن الغالب على المرأة الشح بنصيبها من زوجها، والغالب على الزوج الشح بنصيبه من الشابة ^(٤).

وقوله سبحانه: "وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ" تذكير بأن المصالحة لا تتم - غالباً - إلا بمسايرة النفس، ومسايسة الطبع، فالرجل شحيح بنفسه وماله، ويحتاج إلى استمالة، وهذا يحمل المرأة على استمالاته ببذل بعض حقوقها، والمرأة شحيحة بحقوقها، وعلى الرجل أن يقتنع باليسير مما تبذله، ولا يكلفها بذل

(١) رواه الحاكم، كتاب الطلاق، (٢/١٩٦) وصححه، وقال الذهبي: على شرط مسلم، وضعفه الألباني، انظر ضعيف الجامع الصغير، ح (٤٩٨٨) (٥/٧٩) وهو الصواب لإرساله.

(٢) انظر: تفسير البغوي (٢/٢٩٥).

(٣) انظر: المفردات (شح) ص: ٢٥٦.

(٤) تفسير القرطبي (٥/٤٠٦).

الكثير .

رابعاً- عدم التكليف بالعدل المطلق :

قد يتخرج بعض الأتقياء من موقفه من امرأته إذا كبرت أو مرضت، أو ضعفت العلاقة بينه وبينها لسبب من الأسباب، ويخاف من ظلمها، أو عدم القدرة على العدل معها إن كان لها ضرة، وقد وسع الله على هذا وأمثاله، وحمى الأسرة من الانهيار، بسبب تلك الأفكار، وذلك من ناحيتين:

- ١- تشريع الصلح بين الزوجين، وقد سبق بيانه .
- ٢- بيان أن العدل المطلق بين النساء لا يمكن، والله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ .

قال المفسرون: المراد بذلك: عدم القدرة على العدل بين النساء في الحب، وميل القلب، والجماع، ونحو ذلك^(١).

وقال ابن كثير في معنى هذه الآية: (أي: لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن وقع القسم الصوري ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع، كما قاله ابن عباس وعبيدة السلماني ومجاهد...) ^(٢).

ويوضح هذا ما روته عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله - صلى

(١) انظر : تفسير الطبري (٩/ ٢٨٥) والبغوي (٢/ ٢٩٥) والقرطبي (٥/ ٤٠٧) وابن عطية (٢/ ١٢١).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٧).

الله عليه وسلم -يقسم فيعدل، ويقول: "اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" ^(١).

وهذا الحديث وإن اختلف في اتصاله وإرساله إلا أن معناه صحيح، ويشهد له قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ^(٢)، كما يشهد له قوله تعالى في سياق الآية: ﴿وإن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

قال ابن كثير: (أي: وإن أصلحتم في أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتقيتم الله في جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض) ^(٣).

وإذا علم أن العدل المطلق بين النساء غير مستطاع، فالواجب الحذر من إتباع ما تهوى الأنفس، وترك العدل الممكن، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي لا يبالغ أحدكم بالميل إلى من يحب، فيترك العدل الممكن، حتى يسوء الأخرى، بحيث تكون كالمعلقة ^(٤).

والمعلقة: هي المرأة التي يجرها بعلمها هجراً طويلاً، فلا هي مطلقة

(١) رواه أبو داود، كتاب النكاح، ح(٢١٣٤) والترمذي، كتاب النكاح، ح(١١٤٠) وصحح إرساله، والحاكم (١٨٧/٢) وقال صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير ح(٤٥٩٣٦) (٤/٢٢٨).

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

(٣) تفسير ابن كثير (١/٥٧٧).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٩/٢٨٤) والبعوي (١/٢٩٥).

تنظر في شأنها، ولا هي زوجة تُعاشر كسائر الزوجات .

قال الأزهري: (قال الله - عز وجل - في صفة المرأة التي لا ينصفها زوجها، ولا يحسن إليها، ولا يخلي سبيلها "فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلِّقَةِ" وامرأة معلقة: إذا لم ينفق عليها زوجها ولم يطلقها، فهي لا أيم، ولا ذات بعل^(١) . وفي حديث أم زرع: "إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق" ^(٢) أي أترك كالمعلقة، لا ممسكة ولا مطلقة .

وبناء على ما سبق فإن الرجل المعدد يطالب بأمرين، وينهي عن شيء واحد، ويعذر في شيء واحد، فيطالب بالآتي :

١- أن يعدل بين نسائه فيما هو في مقدوره، من القسم والنفقة والكلام عند الاجتماع وأن لا يخص إحداهن بسفر إلا بعد إذن أو قرعة، وأن يحرص على الابتعاد عما يثير غيرة الأخرى، إذ إن ذلك من الأذية من غير ضرورة، والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ^(٣) .

٢- أن يبقى شيئاً من الحب والحنو والرحمة لمن لا يميل إليها طبعه، فإن من الحب خطأ اختيارياً، وهو أن يروض نفسه على الإحسان لامراته، وتحمل ما لا يلائمه من أخلاقها، والبحث عن محاسنها، والهدية والتجيب والتقرب، وبذلك يحصل من الإلف بها، والحنو عليها، ما يقوم مقام الميل

(١) تهذيب اللغة (علق) (١/٢٤٦) .

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب النكاح، ح (١١٩) (٧/٤٧) .

(٣) سورة الأحزاب، الآية : ٥٨ .

الطبيعي، والحب من الوهلة الأولى .

أما ما ينهى عنه الزوج المعدد فهو الميل كل الميل مع من يهوى ويحب، حتى ينصرف انصرفاً تاماً عن الأخرى .

وأما ما يعذر فيه فهو الميل الذي لا يملكه، من حب واستحسان وجماع .

خامساً: الفراق خير من الشقاق :

لقد اعتنى القرآن الكريم بقضية الصلح بين الزوجين، وخاصة عند اقتحام الرجل ميدان التعدد، إذ إن ذلك مثير زوابع لا حصر لها، ومحرك أشجان لا نهاية لها، مما يجعل الأسرة تهتز من قواعدها، فالرجل قد يكون وجد البديل المناسب، بل المحبوب الذي جذب شغاف القلب، والمرأة تعميها الغيرة، وترفض الرضا بالواقع، وتعجز عن رؤية عيوبها، أو معرفة سبب إغراض زوجها أو نشوزه .

ومتى ما أبى الرجل أن يكون عادلاً فيما هو في مقدوره، ورفضت الزوجة الصلح، والتنازل عن بعض ما فرط فيه الزوج أو كله؛ إبقاءً على عقدة النكاح، وحفاظاً على أسرة قد تكون ظلالاً لأولاد وأحفاد، فحينئذ يكون الفراق خيراً من الشقاق، والطلاق هو البديل إذا تعسر الوفاق، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾^(١).

وثمت وقفات حول هذه الآية :

(١) سورة النساء، الآية : ١٣٠ .

١ - معنى قوله تعالى: ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ﴾ أي يغني كلاً من الزوجين عن الآخر، بأن يسلك عنه، ويكتفي بدونه، وليس هذا وعداً بالزواج كما قد يفهم من عبارة بعض المفسرين، فإن الواقع يخالفه، ويشهد بأن كثيراً من المطلقات لم يتيسر لهن الزواج، ولو كان وعداً بذلك لما أخلف الله وعده، ولذلك قال ابن جرير: ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ﴾ يقول: يغني الله الزوج والمرأة المطلقة من سعة فضله، أما هذه فبزوج هو أصلح لها من المطلق الأول، أو برزق أوسع وعصمة، وأما هذا فبرزق واسع، وزوجة هي أصلح له من المطلقة، أو عفة^(١).

وقال أبو السعود: ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ﴾ منهما، أي يجعله مستغنياً عن الآخر، ويكفه مهملاته^(٢).

وقال ابن عاشور: (ومعنى إغناء الله كلاً: إغناؤه عن الآخر)^(٣) ونحو ذلك قال القاسمي^(٤).

وممن اقتصر على ذكر الوعد بالزواج البغوي حيث قال: ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ﴾ من رزقه، يعني: المرأة بزواج آخر، والزوج بامرأة أخرى^(٥) وهذا

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢٩٤) وانظر النكت والعيون (١/ ٥٤٤) فقد ذكر الماوردي أن الوعد الحق له عدة احتمالات.

(٢) تفسير أبي السعود (٢/ ٢٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٢١٩).

(٤) محاسن التأويل (٥/ ١٦٠٠).

(٥) تفسير البغوي (٢/ ٢٩٦).

ما يفهم من عبارة ابن كثير حيث قال: (وقد أخبر الله تعالى أنها إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها، ويغنيها عنه، بأن يعوضه الله من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه)^(١).

وكذلك اكتفى أبو بكر الجزائري بهذا المعنى فقال: (... فالمرأة يرزقها زوجها خيراً من زوجها الذي فارقت، والرجل يرزقه كذلك امرأة خيراً ممن فارقتها)^(٢).

ولعل هؤلاء المفسرين أرادوا التمثيل لإغناء الله كلاً من فضله، لا أن الآية وعد بالزواج، بدلالة شهادة الواقع، وعلى المرأة قبل أن تلج في الخصومة، وتلج في طلب الفرقة، أن تبصر في مستقبلها، وأن تتوقع أن لا زواج حتى الممات .

٢- ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الوعد بالإغناء عن الطرف الآخر، والسلوان عنه، إنما هو خاص بمن عجز عن الوفاق بعد محاولة الصلح، قال ابن عاشور: (وفي الآية إشارة إلى أن إغناء الله كلاً إنما يكون عن الفراق المسبوق بالسعي في الصلح)^(٣).

وقال أبو بكر الجزائري: (هناك إشارة إلى أن هذا الوعد الإلهي مشروط بمحاولة الصلح أولاً، فإن لم يتم، وتفرقا على طاعة الله تعالى، أنجز الله تعالى لهما ما وعد)^(٤).

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٧).

(٢) أيسر التفاسير (١/ ٥٥١).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٢١٩).

(٤) نهر الخير، بهامش أيسر التفاسير (١/ ٥٥١)، حاشية رقم : ٤.

وقال المراغي: (ولن يكون كل منهما جديراً بعناية الله، وإغناؤه عن الآخر، إلا إذا التزما حدود الله، بأن اجتهدا في الوفاق والصلح، وظهر لهما بعد التفكير والتروي في الأسباب أنه غير مستطاع، فافترقا وهما حافظان لكرامتهما عما يجعلهما عرضة للنقد، ونهش العرض، فإن ذلك مما يرغب الناس فيهما، لما يرونه فيهما من الأخلاق الفاضلة، وعدم التلاحي والتناز، واختلاق الأكاذيب)^(١).

٣- في قوله تعالى: ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ ترغيب وترهيب، أما الترغيب فهو فيما تحمله الآية من تسلية لهما بعد الطلاق، ومرارة الفراق، وأما الترهيب فهو فيما تتضمنه الآية من زجر لهما عن المفارقة بقصد المراغمة للصاحب، والمضارة له، على الرغم من حرصه على الصلح، ورغبته في الوفاق، فليعلم الطرف المعاند المعارض، أن فضل الله واسع، وأن صاحبه سيستغني عنه، ولن يصله من إضراره شيء.

النوع الثالث - نشوز الزوجين معاً :

سبق بيان نوعين للنشوز، هما نشوز الزوجة وحدها، ونشوز الزوج وحده، وفيهما يكون أحد الطرفين راغباً في الإصلاح، كارهاً للنشوز، وثمت نوع ثالث، وهو كون الزوجين معاً متنافرين متناكدين، وهو ما وصفه القرآن بالشقاق بينهما، وهذه الحالة أعسر من الحالتين السابقتين؛ إذ إن الطرفين يتباعدان، والقليلين يتنافران، وكل طرف يزعم أن الآخر هو

(١) تفسير المراغي (٦/ ١٧٤).

المسيء، وعليه أن يصلح ما أفسد، أو يعتذر، فامتلاً صدرهما غضباً أو بغضاً، وُحِيلَ إليهما أن لا تقارب ولا تداني؛ إذ كل طرف غير مستعد لبداية الخطوة الأولى، وغير متهيئ لسماع الآخر، لثقتة بصواب نفسه، أو رغبته في الانفصال، لكن بعد الإضرار والتنكيد .

وقد تصدت آية في سورة النساء لعلاج مثل هذه الحالة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(١).
والوقفات التالية تكشف بعض جوانب العلاج :

أولاً- وصف الحالة :

سبق بيان معنى "الخوف" وأنه العلم بما حدث بين الزوجين، أو غلبة الظن وتوقع المكروه، بحيث يبادر العلاج عند ظهور أمارات الشقاق، وقبل تأزم الموقف .

والأول أظهر؛ إذ لا تخلو البيوت من شقاق عارض، ولا يليق التطفل على الزوجين عند شقاق طائف، وخلاف مؤقت، حتى يطفح الإناء، ويحتاجان إلى عون خارجي، ويدل على ذلك أن الله تعالى قدم قبل هذه الآية وسائل ثلاث لعلاج النشوز، وهي الموعظة، والهجر في المضاجع، والضرب غير المبرح، وهذه كلها علاجات داخلية، والتدخل الخارجي إنما يكون بعد ذلك .

(١) سورة النساء، الآية : ٣٥.

والشقاق : غلبة العداوة والخلاف، يقال: شاقه مشاقة وشقاقاً: خالفه^(١).
وأصل الشقاق مشتق من الشَّق - بكسر الشين - وهو الناحية، كأن كل واحد قصد شقاً وناحية غير شقِّ صاحبه وناحيته^(٢).
وقيل إن الشقاق مشتق من المشاقة والمضارة، يقال شاقَّ فلان فلاناً: إذا أتى ما يشق على صاحبه من الأمور^(٣).
وهناك احتمال ثالث، وهو أنه مشتق من الشَّق - بفتح الشين - وهو الصدع، فكأن بين الزوجين صدع وشق يحول دون التقائهما.
قال الأزهري: (قال الليث: يقال انشقت عصاهم بعد التأمها: إذا تفرق أمرهم)^(٤). ومعنى الآية إن علمتم مخالفة مفرقة بينهما، واشتبه عليكم أنه من جهته أو من جهتها، ولا يفعل الزوج الصلح، ولا الصفح، ولا الفرقة، ولا تؤدي المرأة حق زوجها، ولا تفتدي، فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها^(٥).
والظاهر أن الأمر للحاكم وولي الأمر، أو من ينبيه، وهذا قول الجمهور^(٦)، ولو كان الأمر للزوجين لقال: فليبعثا^(٧).

(١) لسان العرب (شقق) (١٠/١٨٣).

(٢) المصدر السابق، نفس الموضع.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/٣١٨).

(٤) تهذيب اللغة (شق) (٨/٢٤٨).

(٥) انظر: الأم للشافعي (٥/١٦٨) وحاسن التأويل (٥/١٢٢٣).

(٦) انظر: تفسير ابن كثير (١/٥٠٥).

(٧) انظر: البحر المحيط (٣/٦٢٩).

قال علي بن أبي طلحة عن عباس -رضي الله عنهما-: "فهذا الرجل والمرأة إذا تفسد الذي بينهما فأمر الله -سبحانه- أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، ومثله من أهل المرأة فينظران أيهما المسيء... فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز" (١).

ثانياً - معنى الحَكَم :

الحَكَم - بفتح الكاف - الحاكم (٢)، وَحُكِّمَ فلان في كذا: جُعل أمره إليه (٣).

والحَكَم: من يصلح للحكومة بين الناس، وللإصلاح (٤)، وكذلك من له ولاية الحُكْم والإلزام، وهو أبلغ من الحاكم؛ لأنه صفة مشبهة باسم الفاعل، يدل على الثبوت، ولا خلاف بين أهل اللغة في ذلك (٥).

ثالثاً - ماذا يملك الحَكَمَان ؟:

اختلف العلماء هل الحَكَمَان حاكمان، يستطيعان الجمع والتفريق والتأديب، أم هما وكيلان عن الزوجين، ينظران في مصلحتها، وينقلان وجهة نظرهما، في المسألة قولان مشهوران :

١ - إنها حاكمان، عليهما أن يجتهدا في الإصلاح بين الزوجين، ولهما أن

(١) رواه ابن جرير (٨/ ٣٢٥).

(٢) الصحاح للجوهري (حكم) (٥/ ١٩٠٢).

(٣) معجم مقاييس اللغة (حكم) (٢/ ٩١).

(٤) انظر: البحر المحيط (٣/ ٦٢٩).

(٥) انظر: زاد المعاد (٥/ ١٩٠).

يفعلا ما يريان من جمع أو تفريق، بعوض أو بغير عوض، ولا يحتاجان إلى توكيل الزوجين، ولا رضاهما، وما اتفق عليه الحكماء فهو حُكْمٌ نافذ، وأمر ملزم^(١)، وهذا القول ثابت عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وابن عباس ومعاوية^(٢) - رضي الله عنهم - ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة^(٣). وهذا مذهب الإمام مالك وقول للشافعي وأحمد^(٤).

٢- إنهما وكيلان عن الزوجين، فلا يجوز بعثهما إلا برضاهما، ولا يملكان الإلزام بشيء التفريق، أو إلا بإذنها^(٥).

وهذا مذهب أبي حنيفة^(٦)، والجديد من مذهب الشافعي^(٧)، والرواية الأخرى عن الإمام أحمد^(٨)، ولأصحاب هذا القول حجتان :

أ) قوله تعالى: "إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا" فذكر الله تعالى التوفيق دون التفريق.

وهذه الحجة فيها نظر؛ لأن الله تعالى إنما ذكر أن إرادة الإصلاح سبب

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٢٥) والبغوي (٢/ ٢٠٩) والمغني (١٠/ ٢٦٤).

(٢) انظر آثارهم في المصنف لعبد الرزاق (٦/ ٥١١) وسنن سعيد بن منصور (٤/ ١٢٤٣) والسنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٤٩٨).

(٣) انظر: زاد المعاد (٥/ ١٩٠-١٩١).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٢٥) المغني (١٠/ ٢٦٤) وروضة الطالبين (٧/ ٣٧١).

(٥) انظر: المغني (١٠/ ٢٦٤).

(٦) انظر: الأم (٥/ ١٦٨).

(٧) انظر: الكافي لابن قدامه (٤/ ٤٠٣).

(٨) انظر: المغني (١٠/ ٢٦٤).

للتوفيق، فلا ينبغي أن يحمل ذلك على سلب حق الحكمين في التفريق، كما يمكن أن يقال: إن الاختصار على ذكر الإصلاح والتوفيق لبيان أنه المقصد الأول، فلا يصار إلى التفريق إلا بعد العجز عن الإصلاح .

ب (أن البضع حقه، والطلاق بيده، كما أن المال الذي تفتدي به حقها، وهما رشيدان، فلا يجوز لغيرهما التصرف في حقها إلا بوكالة منهما، أو ولاية عليها .

وهذه الحجة فيها نظر أيضاً؛ لأن التطلاق قد يكون بيد غير الزوج، فإن ولي الأمر، أو من ينوب عنه من القضاة، يطلق عند وجود السبب المقتضي لذلك، وله أن يعاقب بالمال فيما أذن فيه الشرع، كالإزام المرأة بالمخالعة إذ تبين ظلمها^(١).

وبناءً على ذلك فإن الراجح، بل الصحيح هو القول الأول، قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذكر القولين: (والأول أصح؛ لأن الوكيل ليس بحكم، ولا يحتاج فيه إلى أمر الأئمة، ولا يشترط أن يكون من الأهل، ولا يختص بحال الشقاق، ولا يحتاج في ذلك إلى نص خاص، لكن إذا وقع الشقاق فلا بد من ولي لهما... فيفعلان ما هو الأصلح من جمع بينهما أو تفريق، بعوض أو بغيره، وهنا يملك الحكم الواحد مع الآخر الطلاق بدون إذن الزوج، ويملك الحكم الآخر مع الأول بذل العوض من مالها بدون إذنها، لكونها صاراً وليين لهما)^(٢).

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥/٣٨٦).

(٢) المصدر السابق (٣٢/٢٥).

وقال ابن القيم: (والعجب كل العجب ممن يقول هما وكيلان لا حاكمان، والله تعالى قد نصبهما حَكَمين، وجعل نصبهما إلى غير الزوجين... وأيضاً فلو كانا وكيلين لم يختصا بأن يكونا من الأهل، وأيضاً فإنه جعل الحُكْمَ إليهما فقال: "إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ كَك" والوكيلان لا إرادة لهما... وأيضاً فإن الوكيل لا يسمى حَكَمًا في لغة القرآن، ولا في لسان الشارع، ولا في العرف العام ولا الخاص، وأيضاً فالْحُكْمُ من له ولاية الحُكْم والإلزام، وليس للوكيل شيء من ذلك، وأيضاً فإن الحُكْمَ أبلغ من حاكم...^(١)).

رابعاً- الحُكْمُ من الأهل :

اتفقت كلمة العلماء على أنه ينبغي كون الحَكَمين من أهل الزوجين؛ لنص القرآن الكريم على ذلك، ولأنهما أعلم بسرائرهما، وما خفي من أمرهما، وأبصر في شأن ما يرجى من حالهما، وأكثر نصحاً لهما، وشفقة عليهما، وأدعى أن يفضيا إليهما بما لا يفضيان إلى الأجنبي .

لكن هل اختيار الحَكَمين من الأهل على سبيل الاستحباب، أم على سبيل الوجوب، ولا يصار إلى أجنبي إلا عند التعذر؟.

ذهب الجمهور إلى استحباب كونها من الأهل، ويجوز كونها أجنبيين، قال الموفق ابن قدامه: (لأنهما إما وكيلان أو حَكَمان، وأي ذلك كان فلا يشترط له القرابة)^(٢).

(١) زاد المعاد (٥/ ١٩٠).

(٢) الكافي (٤/ ٤٠٢).

وذهب بعض العلماء إلى وجوب كونها من الأهل، قال ابن العربي: (الأصل في الحكمين أن يكونا من الأهل، والحكمة في ذلك أن الأهل أعرف بأحوال الزوجين... فإن لم يكن لهما أهل، أو كان ولم يكن فيهم من يصلح لذلك؛ لعدم العدالة، أو غير ذلك من المعاني، فإن الحاكم يختار حَكَمَيْنِ عدلين من المسلمين... ويستحب أن يكونا جارين) ^(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ووجوب كونها من أهلها هو مقتضى قول الخرقي، فإنه اشترطه كما اشترط الأمانة، وهذا أصح فإنه نص القرآن، ولأن الأقارب أخبر بالعلل الباطنة، وأقرب إلى الأمانة، والنظر في الجمع والتفريق، وهو أولى من ولاية عقد النكاح) ^(٢).

خامساً- توجيه... وبشارة :

ذهب كثير من المفسرين إلى أن الضمير في قوله تعالى: "إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يَعُودُ إِلَى الْحَكَمَيْنِ، والضمير في قوله تعالى: "يُوفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا" يعود إلى الزوجين ^(٣).

قال القاسمي: ("إِنْ يُرِيدَا" أي الْحَكَمَانِ "يُوفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا" أي يوقع بينهما الموافقة، فيتفقان على الكلمة الواحدة، ويتساندان في طلب الوفاق، حتى يحصل الغرض، ويتم المراد، أو الضمير الأول للحَكَمَيْنِ، والثاني

(١) أحكام القرآن (١/٤٢٦).

(٢) الفتاوى الكبرى (٥/٤٨٤).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٢/٢٠٩) والقرطبي (٥/١٥٧) والزحشري (١/٥٢٥).

للزوجين، أي إن قصدا إصلاح ذات البين، وكانت نيتها صحيحة، وقلوبهما ناصحة لوجه الله، بورك في وساطتهما، وأوقع الله بحسن سعيهما بين الزوجين الوفاق والألفة، وألقى في نفوسهما المودة والرحمة^(١).

وبناء على القول الثاني في مرجع الضميرين، فإن في الآية توجيهها للحكمين بأن يصلحا نيتها، ويجتهدا في طلب الصلح بين الزوجين، وليعلما أن الله قدر الصلح والتوفيق حسب صدقهما في ذلك.

وكذلك في الآية بشارة للزوجين المتناكدين بأن التوفيق بينهما ممكن، مهما بدت الأمور غاية في العسر والتعذر.

وبهذا نعلم سنة في الحياة الزوجية، قضاها الله سبباً، وحكم بها شرعاً، وهي أن الحكمين العاقلين الناصحين يستطيعان بإذن الله إزالة الغشاوة عن أعين الزوجين، وإذابة الثلوج التي حالت بينهما، وإعادة الألفة والمحبة إلى قلبين أضناهما الشقاق، وعزما على الفراق.

ومما يعين الحكمين على تحقيق الإصلاح بين الزوجين ما يأتي :

- (١) طمأنة الزوجين بأن القضية ستحاط بالسرية التامة .
- (٢) التعرف على جميع ملابسات القضية .
- (٣) السماع من طرفي القضية مباشرة .
- (٤) ترك الزوجين يفضيان بكل ما لديهما، وعدم مقاطعتها إذ إن ذلك جزء من العلاج، وتخفيف لحدة التوتر .

(١) محاسن التأويل (٥/١٢٢٣).

- ٥) عدم جمع الزوجين في مكان واحد عند سماع القضية، إذ قد يسمع أحدهما من الآخر ما يسوؤه، ويكون ذلك معوقاً للإصلاح .
- ٦) العدل المطلق مع الطرفين، والصدق في نصره المظلوم، والأخذ على يد الظالم، بغض النظر عن القرابة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾^(١)، ولقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" فقال رجل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟! قال: "تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره"^(٢).

(١) سورة النساء، الآية ١٣٥.

(٢) رواه البخاري، كتاب الإكراه، ح (١٢) (٩ / ٤٠).

المبحث الرابع الإيلاء وتجربة الفرقة

الحياة الزوجية لا تخلو من ظروف قاهرة، وضغوط أسرة، ومشاكل ومشاكسة، وشدة أعصاب.. ومن ثم قد يتحفز الزوج فيحلف على أن لا يعاشر امرأته، وهذا هو الإيلاء .

والإيلاء وإن كان نوع بعد عن المرأة المشاكسة، وفيه إرجاء لمواجهة المشكلة، لكن من يعرف طبائع النفوس يعلم أن البعد عن المواجهة يكون أحياناً هو العلاج الناجع، والبلسم النافع، ثم إنه نوع تأديب للمرأة في سلاحها الذي تعتد به، وبه تصول وتجول وتتطاول، وهو سلاح فتنتها للرجل، وعدم صموده أمام إغرائها وجاذبيتها .

وفي الوقفات التالية ما يكشف اللثام عن هذا العلاج القرآني :
أولاً- تعريف الإيلاء :

الإيلاء مصدر، يقال : آلى يؤلي إيلاءً، وتآلى يتآلى تآلياً، وأتلى يأتلي اتلأً: أي: حلف^(١) ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾^(٢) أي: لا يحلف^(٣)، ومنه قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "أين المتألي على الله لا يفعل المعروف"^(٤) لما سمع حالفاً يحلف أن لا يضع من دين

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (ألوى) (١/ ١٢٧) ولسان العرب (ألا) (٤١/ ٤٠).

(٢) سورة النور، الآية ٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨٦).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الصلح، ح (١٤) (٤/ ٢٥).

دين خصمه شيئاً .

وظاهر كلام أهل اللغة أن كل حلف يسمى إيلاء، ولكن الراغب الأصفهاني قال: (وحقيقة الإيلاء والإلّية: الحلف المقتضي لتقصير في الأمر الذي يحلف عليه)^(١)، وبناء على قول الراغب فإن الإيلاء إنما يكون في الحلف على الترك والتقصير، وهذا هو مورد الاستعمال في القرآن الكريم. والإيلاء في كتاب الله: حلف الزوج المانع من جماع امرأته^(٢).

وجمهور الفقهاء يخصون الإيلاء بأن يحلف على أكثر من أربعة أشهر^(٣)، قال ابن عبد البر: (كل يمين لا يقدر صاحبها على جماع امرأته من أجلها إلا بأن يحنث فهو مولٍ، إذا كانت يمينه على أكثر من أربعة أشهر، فكل من حلف بالله أو بصفه من صفاته، أو قال: أقسم بالله، أو أشهد الله، أو عليّ عهد الله، وكفالتة، وميثاقه، وذمته، فإنه يلزمه الإيلاء)^(٤).

وقد بين الإمام الشافعي - رحمه الله - مراد الفقهاء بالإيلاء فقال: (كل حالف مولٍ، وإنما معنى قولي: ليس بمولٍ، ليس يلزمه حكم الإيلاء، من فيئة أو طلاق)^(٥).

(١) المفردات: (إلى) ص ٢٢.

(٢) انظر: تفسير البغوي (١/٢٦٤).

(٣) انظر: الأم للشافعي (٥/٣٨٦) وفتح الباري (١/٤٨٨) والمغني (١١/٥) وتفسير القرطبي (٣/١٠٤).

(٤) تفسير القرطبي (٣/١٠٣).

(٥) الأم (٥/٣٨٦).

وهذا نجمع بين قول الفقهاء إن الإيلاء حرام^(١)، وبين إعطاء القرآن المولي مهلة أربعة أشهر، مما يؤذن بإباحته، وكذلك ثبوت إيلاء النبي - صلى الله عليه وسلم - من نسائه شهراً^(٢)، إذ مراد الفقهاء ما زاد على ما حده الله تعالى من الأربعة أشهر، إذ هو تعدٍ لحدود الله، وإضرار بالمرأة^(٣)، روى البخاري عن نافع، أن ابن عمر كان يقول في الإيلاء الذي سمي الله تعالى: " لا يحل لأحد بعد الأجل إلا أن يمسه بالمعروف، أو يعزم بالطلاق، كما أمر الله عز وجل "^(٤).

ثانياً - الإيلاء في كتاب الله :

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۖ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٥).

والمعنى: إن الذين يحلفون ألا يقربوا نساءهم من غير تحديد مدة، أو مدة تزيد على أربعة أشهر، يمهلون أربعة أشهر كحد أقصى، لما في الزيادة على ذلك من إضرار بالمرأة، وإهانة لها، وإهدار لحقوقها " فَإِنْ فَاءُوا ": أي رجعوا إلى ما كانوا عليه قبل الحلف، وهو كناية عن الجماع، قال ابن المنذر: (أجمعوا على أن الفيء الجماع إذا لم يكن له عذر)^(٦) " فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "

(١) انظر: منتهى الإرادات مع حاشية المتهى (٤/ ٣٤١).

(٢) سيأتي تخريج الحديث.

(٣) انظر: روضة الطالبين (٨/ ٢٤٦).

(٤) صحيح البخاري كتاب الطلاق، ح (٣٥) (٧/ ٨٨).

(٥) سورة البقرة، الآيتان: ٢٢٦، ٢٢٧.

(٦) الإجماع لابن المنذر (١/ ٢٦).

لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين، ولا يعني ذلك سقوط كفارة اليمين على القول الصحيح "وَأِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ" أي: عزموا على تحقيقه، ولم يفيئوا إلى نسائهم؛ فليتقوا الله، وليفارقوا بإحسان، ولا يمسكوهن ضراراً ليعتدوا، "فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ" لأقوالهم "عَلِيمٌ" بأفعالهم ونياتهم، فليراقبوه، وليحذروا مخالفته^(١).

أما إن آلى مدة تقل عن أربعة أشهر، فهو بالخيار، إما أن يبرئ يمينه، فيعتزل امرأته حتى تنقضي المدة، كما فعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين آلى من نسائه شهراً، فإنه اعتزلهن حتى مضى الشهر، وإما أن يحنث في يمينه، ويطأ امرأته، وحينئذ تلزمه الكفارة، وكان ممثلاً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأتها، وليكفر عن يمينه"^(٢).

ثالثاً - الإيلاء في السنة:

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أصبحنا يوماً ونساء النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيكين، عند كل امرأة منهن أهلها، فخرجت إلى المسجد، فإذا هو مלא من الناس، فجاء عمر بن الخطاب فصعد إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في غرفة لفسلم فلم يجبه أحد، ثم سلم فلم يجبه أحد، فناداه فدخل على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: أطلقت نساءك؟! فقال النبي: "

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٦٥)، والبغوي (١/ ٢٦٥) وابن كثير (١/ ٢٧٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيلاء، ح (١٦٥٠) (٣/ ١٢٧١).

لا، ولكن آليت منهن شهراً^(١).

وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: "... فدخلت فسلمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإذا هو متكئ على رمل حصير، قد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟!، فرفع رأسه وقال: لا، فقلت: الله أكبر! لو رأيتنا يا رسول الله! وكنا - معشر قريش - قوماً تغلب النساء، فلما قدمنا إلى المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فتغصبتُ على امرأتي يوماً، فإذا هي تراجعني، فأنكرتُ أن تراجعني، فقالت تنكر أن أراجعك؟! فوالله إن أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - ليراجعنه، وتهجره إحداهن إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر، أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله - صلى الله عليه وسلم - فإذا هي قد هلكت؟! فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت: يا رسول الله! قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرنك أن جارتك هي أوسم منك، وأحب إلى رسول الله منك، فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ... وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً، من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله"^(٢).

وقد تعددت الروايات المبينة لسبب اعتزال النبي - عليه السلام - نساءه، ومن تلك الروايات:

(١) رواه البخاري، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم نساءه، ح (١٣٣) (٧/ ٥٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، ح (١٢١) (٧/ ٥٠) ومسلم كتاب الطلاق، ح (١٤٧٩) (٢/ ١١١٢) واللفظ له.

(١) حديث جابر- رضي الله عنه - وفيه: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: "هن حولي كما ترى، يسألنني النفقة... ثم اعتزلهن شهراً"^(١)، وهذا يفيد أن الاعتزال كان بسبب المطالبة بزيادة النفقة.

(٢) حديث عمر المتقدم، وفيه: "وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً، من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله"، وهذا يفيد أن الاعتزال إنما كان بسبب معاتبة الله له في تحريم ما أحل الله له، من أمته ماريه، أو غيرها^(٢).

(٣) وفي حديث عمر المتقدم سبب آخر، حيث قال عمر: "فاعتزل النبي- صلى الله عليه وسلم- نساءه من أجل ذلك الحديث، حين أفشته حفصة إلى عائشة"، وهذا من الأسباب، ولو كان هو السبب الوحيد لاعتزل الزوجتين فقط، ولذلك قال الحافظ ابن حجر: (ويحتمل أن يكون مجموع هذه الأشياء كان سبباً لاعتزالهن، وهذا هو اللائق بمكارم أخلاقه- صلى الله عليه وسلم- وسعة صدره، وكثرة صفحه، وأن ذلك لم يقع منه حتى تكرر موجهه منهن - صلى الله عليه وسلم- ورضي الله عنهن)^(٣).

رابعاً- الفرقة بسبب الإيلاء :

إذا حلف الرجل أن لا يقرب امرأته مدة تزيد على أربعة أشهر، فإنه يجبر بعد انقضاء الأربعة أشهر، إما أن يفيء بجماع امرأته، وإما أن يطلق، فإن

(١) رواه مسلم، كتاب الطلاق، ح (١٤٧٨) (٢/ ١١٠٤).

(٢) انظر: فتح الباري (٩/ ٢٨٩).

(٣) فتح الباري (٩/ ٢٩٠).

أبى طلق الحاكم عليه، إذا طلبت المرأة ذلك، ورفعت أمره إلى الحاكم . وهذا مذهب الجمهور، ومنهم الأئمة الثلاثة، مالك والشافعي وأحمد^(١)، قال البخاري: (عن عمر بن عبدالعزيز... إذا مضت أربعة أشهر يوقف حتى يطلق، ولا يقع عليه الطلاق حتى يطلق، ويذكر ذلك عن عثمان وعلي وأبي الدرداء واثنى عشر رجلاً من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-) ^(٢).

وذهب فريق من العلماء إلى أن الطلاق يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر، ولا يحتاج إلى تطليق الزوج، وهذا مذهب الأحناف^(٣). والقول الأول أظهر؛ لأن الله تعالى أعطى المولي أربعة أشهر، فلا سبيل عليه حتى تنقضي، ثم خيره بين الفیئة أو الطلاق، مما يدل على أن الطلاق لا يقع إلا بإيقاعه، ثم إن الله أحال على عزمته فقال تعالى: "وإن عزموا الطلاق لا" وقد نقل ابن المنذر عن بعض الأئمة، قال: (لم أجد في شيء من الأدلة أن العزيمة على الطلاق تكون طلاقاً، ولو جاز لكان العزم على الفیء يكون فيئاً، ولا قائل به)^(٤).

خامساً - الحكمة من تحديد مدة الإيلاء :

(١) انظر: المغني (٣١/١١) وتفسير القرطبي (٣/ ١٠٥) وتفسير ابن كثير (٢٧٥/١) وفتح الباري (٤٢٩/٩).

(٢) صحيح البخاري كتاب الطلاق، ح (٣٥) (٨٨/٠٧).

(٣) انظر: المغني (٣١/١١) وتفسير القرطبي (٣/ ١٠٥) وتفسير ابن كثير (٢٧٥/١) وفتح الباري (٤٢٩/٩).

(٤) فتح الباري (٤٢٩/٩). وانظر ترجيح مذهب الجمهور في تفسير ابن جرير (٤٩٨/٤).

كان أهل الجاهلية يؤلون من نسائهم، فيحلف أحدهم أن لا يقربها أبداً، فيتركها لا أيماً ولا ذات بعل، وكانوا على ذلك في ابتداء الإسلام^(١)، ثم ضرب الله للإيلاء أجلاً، وحدد له مدة، لا تزيد عن أربعة أشهر .

وهذه المدة كافية في تأديب المرأة، وإزالة ما علق في قلب الرجل، واتخاذ القرار المناسب بالعشرة الحسنة، أو الانفصال والفراق .

ويستأنس كثير من المفسرين في بيان الحكمة من هذه المدة بما روي عن عمر - رضي الله عنه - أنه خرج ذات ليلة، يطوف بالمدينة، فسمع امرأة مغلقة بابها تقول:

تطاول هذا الليل وأزور جانبه وأرّقني أن لا ضجيع ألاعبه
فو الله لو لا الله لأشيء غيره لنقض من هذا السرير جوانبه
ولكنني أخشى رقيباً موكلاً بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه
مخافة ربي والحياء يصدني وإكرام بعلي أن تنال مراكمه
فسأل عمر عن زوجها، فقالت: خرج في بعث العراق، فسأل ابنته
حفصة - رضي الله عنها - كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة
أشهر، أو أربعة، فقال عمر: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك^(٢).

سادساً - الإيلاء وعلاج الخلافات الزوجية:

الإيلاء علاج لبعض الخلافات الزوجية، وليس لها جميعاً، فقد يكون سبب الخلاف بين الزوجين ابتعاد الزوج، وإعراضه عن امرأته، وانشغاله

(١) انظر: تفسير البغوي (١/ ٢٦٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣/ ١٠٨) وابن كثير (١/ ٢٧٧) باختصار.

عنها، وفي هذه الحالة لا يكون الإيلاء هو العلاج المناسب، وعلى الزوج أن يكون حكيماً، وأن يختار لكل حالة ما يناسبها من علاج، وعلى أي حال فثمار الإيلاء كثيرة منها:

١ - الإيلاء فرقة مؤقتة، وتجربة لبعث الزوجين، وهو فرصة لاختبار الرجل نفسه ومشاعره وقدرته على فراق امرأته، فإما أن يفني ويستأنف حياة زوجية كريمة، فيها إمساك بالمعروف، وإما أن يفارق بإحسان، ويدع المرأة تختار طريقاً جديداً، وحياة أخرى .

٢ - الإيلاء فرصة للمرأة الذكية لتدارك ما فرط منها، وتصحيح أخطائها، إن شعرت بحاجتها إلى بعْلِها .

٣ - يعظم نفع الإيلاء في حالة المرأة المتكبرة على زوجها، المعتدة بجهاها، المختالة بقدرتها على إذلال الرجل أمام فتنها، فإذا صمد الرجل أمام هذه الفتنة، وأمام سلاحها البتار مدة قد تصل إلى أربعة أشهر، عادت المرأة إلى رشدها، وتطامت في نفسها.

٤ - الإيلاء فرصة لتنفيس الغضب الثائر، مما يحمي الحياة الزوجية من تفوه الرجل بكلمات الطلاق، فيهدم أسرته، ويندم ولات ساعة مندم .

٥ - الإيلاء فترة نقاهة، وفرصة لتجديد الحياة الزوجية، بعد سأم وملل، من طول المشاكل وكثرتها .

ولا يعني هذا الترويج للإيلاء، إذ هو علاج، ولا يصار إلى العلاج إلا في حالات مرضية معينة، أما في الحالات العارضة اليسيرة فيمكن الزوج البعد عن زوجته بغير إيلاء وحلف، كالتعب في مكة، والاعتكاف،

وسفر النزهة، أو الدعوة إلى الله، وإعطاء المرأة فرصة لزيارة أهلها فترة طويلة .

وقد يجد الرجل وسيلة للبعد عن مشكلة ما بغير افتراق، كالانخراط في دورة علمية أو ثقافية، أو المشاركة في مسابقة، أو عمل تطوعي يملأ فراغه، ويصرفه عن التفكير في مشكلته .

الخاتمة

الحمد لله الذي تمت بنعمته الصالحات، والصلاة والسلام على من
عمت ببعثته البركات، أما بعد :

فلقد تجسدت في ثنايا هذا البحث خطورة المشاكل الزوجية، وأنها
البوابة الكبرى لنكد الحياة، والمُعبر الواسع للطلاق، والفراق بين الزوجين،
وتهدم الأسرة، وشتات الذرية، مع ما يكتنف ذلك من حزن دائم،
وانشغال عن مهام الدنيا والآخرة، وفي خاتمة هذا البحث أذكر أهم ما
توصلت إليه من نتائج وتوصيات :

١ - أهمية الدراسة الموضوعية لقضايا الأسرة في الكتاب والسنة،
وينبغي إبرازها للأجيال المسلمة، حتى تستفيد منها في مواجهة تحديات
العصر.

إن على علماء الأمة، ورجال الإصلاح إيجاد الوسائل التي توصل
طريقة القرآن في إسعاد الإنسان، وربط الأجيال الناشئة بدينها، الذي
ابتعدت أو أبعدت عنه، فناها من الشقاء ما نالها .

٢ - وجوب تأهيل المقدمين على الزواج من الجنسين تأهيلاً علمياً
ونفسياً ودينياً؛ حتى يكونوا على بينة من أمرهم، ومعرفة بما يتطلب الزواج
من مسؤوليات، وتحلٍ بأخلاقيات، وتحلٍ عن حريات، وتوقع لخلافات،
ودربة على حلها، أو التكيف معها .

٣ - ينبغي مراعاة التكافؤ بين الزوجين، مادياً وعلمياً، حتى تقل
فرص احتقار أحد الطرفين للآخر، كما يتعين مراعاة التقارب بينهما من

ناحية التدين، والانفتاح على الثقافات الوافدة، وموقفهما من عادات المجتمع؛ إذ إن التباين الكبير في هذا الشأن مدعاة لشقاء وشقاق، وخلاف وطلاق .

٤- من رحمة الله بعباده المؤمنين أن أحسن إليهم بإنزال هذا الكتاب المبارك، المشتمل على الشفاء لكل داء ديني أو اجتماعي أو سلوكي، ومن قلة البصيرة عدم استفادة المسلم من توجيه الله تعالى لحل مشاكله، مع خطورة الداء وتيسر الدواء.

ولا يخفى على مستفيد من نصوص الوحيين حيوية هذه النصوص، وتفوقها في إصلاح ذات البين، ومسايرتها لمشاكل الإنسان، مهما تغير الزمان أو المكان أو البيئة.

٥- يتبين من اهتمام الإسلام بمشاكل الزوجين، وكثرة طرق العلاج، وحرصه على الصلح، وأمره بإمسك المرأة، حتى مع البغض والنفور- أن الطلاق مبغض لله، وإنما أباحه لأن مساوئ تحريره تفوق مساوئ إباحته، وعلى المسلم أن لا يتساهل فيما يكرهه ربه، ويفرح به شيطانه.

٦- بما أن كثيراً من الشباب يعيشون أمية فكرية، وانفصالاً عن الكبار، فرحمة بهم، ودرءاً لجهلهم، وحماية لهم من الاصطدام بالواقع، والمفاجأة بالعبء الثقيل، الذي يترتب على الزواج، فإني اقترح أمرين:

أ- إلزام المقدمين على الزواج من الجنسين بدورات تأهيليه، تشرح حقيقة الزواج ومشاكله، وكيفية التغلب عليها.

وما المانع أن تكون هذه الدورات جزءاً من المناهج الدراسية، فهي

أجدى على الفرد والأمة من بعض المقررات التي يتطلبها سوق العمل .
ب - أن يصاحب عقد النكاح كُتُباً على هيئة وثيقة رسمية ملزمة،
يوضح فيها حقوق وواجبات كل فرد، فيما يخص الحياة الزوجية، ولا يتم
عقد النكاح إلا إذا أيقن المأذون بالممام الطرفين بهذه الوثيقة .
وفي الختام أقول: لا سعادة للزوجين المسلمين، ولا نهاية لمشاكلهما،
إلا بالعودة الصادقة إلى كتاب الله، وسنة ورسوله - صلى الله عليه وسلم -
وجعل الآخرة في الحسبان، واليقين بأن الزواج، وما يترتب عليه من إنفاق
وبذل، وما ينتج عنه من ذرية، وما يقتضيه من صبر، وحسن خلق، وإيثار -
كل ذلك عبادة لله وقربة، يجده المرء في ميزان حسناته أحوج ما يكون إليه .
وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ثبت المراجع

- ١- أحكام القرآن، لأبي بكر ابن العربي، تحقيق : على البجاوي، طبعة عام ١٣٩٤هـ الناشر : دار الفكر / بيروت .
- ٢- أحكام القرآن لعماد الدين علي بن محمد الطبري، المعروف بالكنيا الهراسي، ط ٢ ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية / بيروت.
- ٣- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، تأليف : محمد ناصر الدين الألباني، ط ٢، ١٤٠٥هـ، الناشر : المكتب الإسلامي / بيروت .
- ٤- أسباب النزول للواحدي، تحقيق : عصام الحميدان، ط ٢، ١٤١٢هـ . الناشر : دار الإصلاح / الدمام .
- ٥- الإسلام وبناء المجتمع، تأليف : أ.د. حسن أبو غدة وآخرين، ط ١، ١٤٢٦هـ، مكتب الرشد / الرياض .
- ٦- الإسلام وبناء المجتمع، تأليف : د.أحمد محمد العسال، ط ٩، ١٤١٥هـ، دار القلم/ الكويت .
- ٧- أصول علم النفس، تأليف : د.أحمد عزت راجح، ط ٩، ١٩٧٣م، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر / القاهرة .
- ٨- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف : محمد الأمين الشنقيطي، طبعة عام ١٤٠٣هـ، توزيع صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبد العزيز.
- ٩- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأنديسي، إشراف : صدقي محمد جميل، طبعة عام ١٤١٢هـ، الناشر : دار الفكر / بيروت .

- ١٠- التحرير والتنوير (تفسير التحرير والتنوير) تأليف: محمد الطاهر ابن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر
- ١١- تحفة العروس، تأليف: محمد مهدي الاستانبولي، ط ٤، ١٤٠١هـ، الناشر: المكتب الإسلامي / بيروت .
- ١٢- تفسير آيات الأحكام في سورة النساء، تأليف: د. إبراهيم اللاحم، ط ١، ١٤٢٤هـ، الناشر: دار العاصمة / بيروت .
- ١٣- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ط ١، ١٤٠٦هـ، الناشر: دار المعرفة / بيروت.
- ١٤- التفسير المنير، تأليف: د. وهبة الزحيلي، ط ١، ١٤١١هـ، الناشر: دار الفكر المعاصر / بيروت .
- ١٥- تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف ط ٢، ١٣٩٥هـ، الناشر: دار المعرفة / بيروت.
- ١٦- تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، للحافظ ابن حجر العسقلاني، ط ١، ١٣٨٤هـ، الناشر: دار المعرفة / بيروت .
- ١٧- تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر، تحقيق: مصطفى عبد القادر، ط ١، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية / بيروت.
- ١٨- تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون وآخرين، طبعة عام ١٣٨٤هـ، الناشر: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر .
- ١٩- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي)، تأليف:

- عبدالرحمن السعدي، تحقيق: عبدالرحمن اللويحق، ط ١، ١٤٢١ هـ، مؤسسة الرسالة / بيروت.
- ٢٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) لابن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، ط ٢، الناشر: دار المعارف بمصر. وط ٣، ١٣٨٨ هـ، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر.
- ٢١- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، تصحيح: أحمد عبد العليم البردوني، ط ٢، ١٣٧٢ هـ، الناشر: دار إحياء التراث العربي / بيروت .
- ٢٢- حاشية الروض المربع، جمع عبد الرحمن بن محمد العاصمي، ط ٣، ١٤٠٥ هـ، توزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد .
- ٢٣- حقوق المرأة المسلمة في القرآن والسنة، تأليف: محمد فريجة، ط ١، ١٤١٦ هـ، المكتب الإسلامي .
- ٢٤- دور المرأة في المجتمع الإسلامي، تأليف: توفيق علي وهبة، ط ٣، ١٤٠١ هـ، دار اللواء / الرياض.
- ٢٥- رسائل في أبواب متفرقة، تأليف: د/ محمد بن إبراهيم الحمد، ط ١، ١٤٢٧ هـ، دار ابن خزيمة / الرياض .
- ٢٦- رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، تأليف: د/ محمد إبراهيم الحمد، ط ٢، ١٤٢٤ هـ، دار ابن خزيمة / الرياض .

- ٢٧- روضة الطالبين وعمدة المتقين، للإمام النووي، ط٣، ١٤١٢هـ .
المكتب الإسلامي .
- ٢٨- الزوج والزوجة ما لهما وما عليهما، تأليف : عبد العزيز بن ناصر
العبد الله، ط٢، ١٤٢٦هـ، مطبعة النرجس التجارية / الرياض .
- ٢٩- سنن الترمذي، لأبي عيسى الترمذي، تحقيق : أحمد محمد شاكر، ط١،
الناشر : المكتبة التجارية / مكة المكرمة .
- ٣٠- سنن أبي داود، للإمام أبي داود السجستاني، مراجعة وضبط : محمد
محي الدين عبد الحميد، ط١، دار الفكر / بيروت .
- ٣١- السنن الكبرى للإمام البيهقي، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، ط١،
١٤١٤هـ دار الكتب العلمية / بيروت .
- ٣٢- سنن ابن ماجه، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، ١٣٧٣هـ دار
الكتب العلمية / بيروت .
- ٣٣- سنن النسائي، بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية السندي، دار
الكتاب العربي / بيروت .
- ٣٤- شعب الإيمان للإمام البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني، ط٢،
١٤٢٩هـ، دار الكتب العلمية / بيروت .
- ٣٥- صحيح البخاري، ط٥، ١٤٠٦هـ عالم الكتب / بيروت .
- ٣٦- صحيح الجامع الصغير وزياداته ((الفتح الكبير))، تأليف : محمد
ناصر الدين الألباني، ط٢، ١٤٠٦هـ المكتب الإسلامي .
- ٣٧- صحيح مسلم، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، ط١٩٧٢، ٢م، دار

إحياء التراث العربي / بيروت

٣٨- صحيح مسلم بشرح النووي، ط ١، ١٣٤٩ هـ، المكتبة المنصورية / القاهرة.

٣٩- ضعيف الجامع الصغير وزياداته ((الفتح الكبير))، تأليف : محمد ناصر الدين الألباني، ط ٢، ١٣٩٩ هـ، المكتبة الإسلامية .

٤٠- فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق : عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الناشر : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / الرياض .

٤١- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، لأبي القاسم الزمخشري، طبعة عام ١٣٩٢ هـ، الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر.

٤٢- لسان العرب، لجمال الدين ابن منظور، تصحيح : نخبة من علماء اللغة، ط ٢، الناشر : دار صادر / بيروت .

٤٣- اللقاء بين الزوجين في ضوء الكتاب والسنة، تأليف : عبد القادر أحمد عطاء، طبعة عام ١٤٠٠ هـ، الناشر : دار التراث العربي / القاهرة.

٤٤- محاسن التأويل، تأليف : محمد جمال الدين القاسمي، ط ١، ١٣٧٦ هـ، تصحيح : محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر : دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة .

٤٥- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب : عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم، طبعة عام ١٤٠٤ هـ، الناشر : الرئاسة

- العامة لشؤون الحرمين الشريفين .
- ٤٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف عبد الحق ابن عطية الأندلسي، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، ط ١، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية / بيروت .
- ٤٧- المرأة في ميزان الطب والدين، للدكتور السيد الجميلي، ط ١، ١٤٠٣هـ، دار التراث العربي / القاهرة .
- ٤٨- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للذهبي، ط ١، ١٤٠٦هـ إشراف د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة / بيروت.
- ٤٩- المسند للإمام أحمد بن حنبل، ط ٥، ١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامي.
- ٥٠- المصنف لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، ط ٢، ١٤٠٣هـ المكتب الإسلامي .
- ٥١- معالم التنزيل للإمام البغوي، تحقيق : محمد عبد الله النمر وآخرين، ط ١، ١٤٠٩هـ، دار طيبة / الرياض .
- ٥٢- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية / قم .
- ٥٣- المغني لموفق الدين ابن قدامة، تحقيق : عبد الله التركي، وعبد الفتاح الحلو، ط ٣، ١٤١٧هـ، توزيع : وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية .
- ٥٤- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد

كيلاني، دار المعرفة / بيروت .

٥٥- منهج السنة في الزواج، تأليف: د/ محمد الأحمد أبو النور، ط٤،

١٤١٣هـ، دار السلام للطباعة والنشر / القاهرة .

٥٦- النظام الاجتماعي والخلقي في الإسلام، تأليف: د. محمد أحمد

حسن، ود. أحمد فؤاد محمود، ط١، ١٤٢٤هـ، دار النشر الدولي /

الرياض.

٥٧- النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام أبي السعادات ابن الأثير،

تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، ط١، ١٣٨٣هـ .

مباحث الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم

تعريفها، أهميتها، مجالاتها، التأليف فيها

إعداد

د. عبدالسلام بن صالح الجارالله

د. عبدالسلام بن صالح بن سليمان الجارالله

- عضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: (فضل القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: (نقد الصحابة والتابعين للتفسير، دراسة نظرية تطبيقية).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

فإن مباحث علوم القرآن الكريم كثيرة الأنواع متعددة الفروع، ومنها ما هو مشترك مع العلوم الأخرى، كمعرفة الفروق في المسائل والمصطلحات، وقد كثرت مؤلفات العلماء في الفروق على اختلاف فنونهم، فكتب أهل كل علم في الفروق المختصة بهم: كعلم العقائد، وعلم التصوف، وعلم الحديث، وعلم العربية، وعلم الفقه وأصوله، وعلم الطب، والآداب والسلوك، إضافة إلى علوم القرآن الكريم^(١)، والفروق في بعض العلوم أسعد بالبحث من بعض، ويرجع اهتمام العلماء بها لما لها من أثر ظاهر في ضبط العلوم وتحريرها، وللدراسات القرآنية قصب السبق في هذا الفن، بل لا يبعد القول بأن الدراسات القرآنية هي أكثر العلوم بحثاً لمسائل

(١) انظر طرفاً من هذه المؤلفات في: الفهرست (ص ٧٠، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٩٢، ١١٠، ١١٥، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ٢٩٤)، وكشف الظنون (٢/ ١٢٥٥-١٢٥٨)، وإيضاح المكنون (٢/ ١٨٧-١٨٨)، والفروق الفقهية والأصولية د. يعقوب الباحسين (ص ٥)، والفروق في مباحث الكتاب والسنة (ص ٣٣) وما بعدها.

الفروق، ولا تعجب إذا علمت أن أول جملة تستفتح بها كتاب الله تعالى فيها مبحث من مباحث الفروق، فالرحمن الرحيم في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ اسمان من أسماء الله تعالى يشتركان في الدلالة على صفة الرحمة، لكن بينهما فروق ؛ منها: عموم اسم الرحمن للخلق كلهم، واختصاص اسم الرحيم بالمؤمنين^(١).

والمجالات التي بحث العلماء فيها الفروق في التفسير وعلوم القرآن عديدة، وقد أحببت المشاركة في دراسة هذا الموضوع. وتعود فكرة البحث يوم أن كنت بصدد اختيار موضوع لرسالة الدكتوراه، فقد جمعت فروقاً كثيرة في التفسير وعلوم القرآن الكريم، ثم عرض لي ما صرفني عنه، فعاودت النظر فيه، وخطر لي أن أكتب فيه مقدمة أبين فيها أهميته، ومجالاته وأنواعه، وجهود العلماء في التأليف فيه. وقد دعاني لدراسة الفروق في التفسير وعلوم القرآن أسباب، من أهمها:

أولاً: أهمية معرفة الفروق في التفسير وعلوم القرآن، وسيأتي تفصيل ذلك.

ثانياً: أن أحداً لم يقوم بدراسة موضوع الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم مع كثرة حديث العلماء عن مباحث الفروق بمجالاتها

(١) انظر تفصيل الفروق بينهما في: معالم التنزيل (٥١/١)، والجامع لأحكام القرآن (٩١/١)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٥/١)، والدر المصون (٣٢/١).

المختلفة، والكتب المفردة في الفروق في الدراسات القرآنية قصرت الحديث على بيان الفروق في جزئية محددة ؛ مثل من ألف في الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي، أو الفرق بين التفسير والتأويل، أو من كتب في الفرق بين الضاد والطاء.

أما هذه الدراسة فهي دراسة وصفية لمباحث الفروق في التفسير وعلوم القرآن بعامة، دون الاقتصار على ذكر الفروق في جزئية محددة أو نطاق ضيق.

ثالثاً: الحاجة إلى دراسة هذا الموضوع دراسة تحدد معالمه وتضبط أصوله وتبين مجالاته، وتبرز معالمه، وأردت بهذه الدراسة أن أسهم في ذلك ولو بشيء يسير، أسوة بما كتبه العلماء في الفروق في الفنون الأخرى، وبخاصة الفروق في الفقه وأصوله، فقد عني أهل هذا الفن بالفروق سواء في بيانها وجمعها، أو في تأصيلها ودراستها^(١).

(١) هناك بحوث جامعية عديدة في الفروق الفقهية والأصولية وهي في أغلبها جمع لمسائل الفروق في الأبواب المختلفة، مثل: الفروق في مسائل الحكم عند الأصوليين، دراسة نظرية تطبيقية، رسالة دكتوراه أعدها الباحث راشد بن علي الحاي، والفروق في دلالة غير المنظوم عند الأصوليين جمعاً وتوثيقاً ودراسة، ماجستير أعدها الباحث محمد بن سليمان العريني، والفروق في مباحث الكتاب والسنة عند الأصوليين، إعداد: هشام بن محمد السعيد، والفروق الأصولية في الإجماع والقياس جمعاً وتوثيقاً ودراسة، ماجستير أعدتها الباحثة نوف بنت ماجد الفرم، وهناك دراسة نظرية تأصيلية للفروق الفقهية والأصولية، اسمها: الفروق الفقهية والأصولية، من تأليف أ. د. يعقوب الباحسين.

هدف البحث

يهدف البحث إلى لفت أنظار الباحثين إلى معرفة الفروق القرآنية المتفرقة في كتب التفسير وعلوم القرآن الكريم، وجمع النظر إلى نظيره، ثم دراسته وتحقيقه، ولا نبعد إذا اعتبرنا معرفة الفروق في القرآن وعلومه نوعاً مستقلاً من أنواع علوم القرآن التي لم يذكرها العلماء عند عددهم لأنواع علوم القرآن الكريم^(١).

خطة البحث

يشتمل البحث على: مقدمة وستة مباحث وخاتمة وفهارس:

المقدمة، وفيها أسباب اختيار الموضوع وخطة البحث.

المبحث الأول: تعريف علم الفروق.

المبحث الثاني: دواعي ذكر الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم.

المبحث الثالث: مجالات الفروق في التفسير وعلوم القرآن.

المبحث الرابع: أهمية معرفة الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم.

المبحث الخامس: التأليف في فروق التفسير وعلوم القرآن.

المبحث السادس: أثر إهمال الفروق في التفسير وعلوم القرآن.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

(١) وقد ذكر السيوطي رحمته الله في تدريب الراوي ثلاثة وتسعين نوعاً من أنواع علوم الحديث، فاستدرك عليه الشيخ بكر أبو زيد رحمته الله أنواعاً لم يذكرها، فعد منها: معرفة الفروق الحديثة، انظر التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل (ص ١٦٨-١٦٩).

منهج البحث

- البحث كما يبدو من خطته بحث نظري وصفي للفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم، وسوف أتبع في البحث ما يأتي:
- عزو الآيات إلى مكانها بذكر اسم السورة ورقم الآية.
 - دعم البحث بالأمثلة التطبيقية التي تجلي مقاصده وتبرز أهدافه.
 - في الأمثلة التي أذكر فيها تفصيل الفرق وبيان وجهه، أكتفي بمثال أو مثالين فقط.
 - أما عند ذكر أمثلة الفروق إجمالاً، فقد أستطرد في سردها، فأذكر أمثلة كثيرة، كما فعلت في الفروق الاصطلاحية؛ نظراً لأهميتها، ودفعاً لتوهم قلتها.
 - وليبيان أن الأمثلة التي أذكرها من مباحث التفسير وعلوم القرآن الكريم سأحرص - قدر الإمكان - على عزوها إلى الكتب المصنفة في التفسير وعلوم القرآن الكريم.
 - لا يعني ذكر أمثلة الفروق في هذه الدراسة التسليم بوجود الفرق في المسائل التي أذكرها، وإنما المراد بيان أنها من مباحث الفروق وحسب، فالعلماء قد يختلفون في الفرق بين مسألتين إثباتاً أو نفيًا، ولكل أدلته، وقد ينتهي الأمر عند النظر في أدلة الفريقين، والتحقيق في اختلافهم إلى عدم وجود الفرق، وهدف هذه الدراسة إبراز علم الفروق القرآنية، وجهود العلماء في بحث الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم.

- لم أترجم للأعلام الذين يرد ذكرهم ؛ رغبة في الاختصار، واكتفيت من ذلك بذكر تاريخ وفاة العلم.

والله أسأل أن يوفقني وقارئ هذا البحث للعلم النافع والعمل الصالح ؛ إنه نعم المولى ونعم النصير.

المبحث الأول

تعريف علم الفروق

أولاً: تعريف الفروق لغة.

الفروق جمع فرق، والفرق في اللغة يدور في أكثر تصاريفه حول معنى الفصل بين شيئين، وذكر ابن فارس (ت ٣٩٥) أن الفاء والراء والقاف أصيل صحيح يدل على تمييز وتزييل بين شيئين^(١).

والتفريق بين المتشابهات يعني بيان أوجه الخلاف بينها^(٢).

وفي مفردات ألفاظ القرآن: "فرقت بين الشيئين: فصلت بينهما سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة، قال تعالى:

﴿فَأَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾"^(٣).

ومن شواهد هذا المعنى في القرآن الكريم:

قول الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(٤)، أي: يفصل من غيره ويخلص^(٥).

(١) معجم مقاييس اللغة (ص ٨١٤).

(٢) المعجم الوسيط (٦٨٥).

(٣) سورة المائدة من الآية (٢٥)، وانظر مفردات ألفاظ القرآن (ص ٦٣٣).

(٤) سورة الدخان آية (٤).

(٥) المحرر الوجيز (٧/ ٥٧٠)، والتسهيل لابن جزي (٢/ ٣١٢)، وفتح القدير (٤/ ٥٧٠)،

والتحريير والتنوير (٢٥/ ٢٧٩).

ومن هذا المعنى سُمي القرآن الكريم بالفرقان، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(١).

وسُمي يوم بدر بيوم الفرقان، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

ويبدو بوضوح العلاقة بين المعنى اللغوي للفروق والمعنى الاصطلاحي، واجتماعهما في الفصل والتمييز بين شيئين بينهما اشتراك واشتباه في شيء ما.

ثانياً: تعريف الفروق اصطلاحاً.

تطرق العلماء في كل فن إلى تعريف الفروق المختصة بهم، فاللغويون والنحويون عرفوا الفروق اللغوية والنحوية، والفقهاء والأصوليون عرفوا الفروق الأصولية والفقهية.

ومن هنا نجد تعريفات متعددة لعلم الفروق، وعند تأملها نجدها تقرب علم الفروق في العلم الذي تتحدث عنه:

ومن تلك التعريفات: تعريف اللغويين للفروق اللغوية بأنها: الألفاظ التي تقاربت في معانيها وأشكال الفرق بينها، والوقوف على حقائق معانيها وأغراضها^(٣).

فاللغويون ينظرون إلى الألفاظ المتقاربة في معناها، واستخراج أوجه

(١) سورة الفرقان آية (١).

(٢) سورة الأنفال من الآية (٤١).

(٣) انظر الفروق اللغوية للعسكري (ص ٢١).

الاختلاف بينها.

أما تعريف الفروق في الفقه وأصوله، فقد عني الأصوليون والفقهاء بالفروق عناية خاصة قديماً وحديثاً، وهم أوسع من بحث في الفروق وصنف فيها، ولا يكاد يخلو مذهب من المذاهب الأربعة المتبوعة من عدة مصنفات مفردة في الفروق^(١).

وقد تناول الأصوليون الفروق في مجالات مختلفة من علم أصول الفقه، وتبعاً لهذا الاهتمام فقد كثرت تعريفاتهم للفروق، فعرفوا الفروق في باب القياس، وبالأخص في قواعد العلة التي من أجلها أعطي الفرع حكم الأصل، فوجود الفرق بين الأصل والفرع يمنع من اتحاد حكميهما عند

(١) وتمتاز مصنفاتهم بأن كثيراً منها يبحث الفروق بشكل شمولي، ولا يختص ببحث الفرق في قضية محددة، ومن المصنفات في الفروق الفقهية: الفروق لأبي الفضل محمد بن صالح الكرابيسي الحنفي (ت ٣٢٢)، وتلقيح العقول في فروق النقول لأحمد بن عبيد الله المحبوبي الحنفي (ت ٦٣٠)، والنكت والفروق لعبد الحق بن محمد القرشي الصقلي المالكي (ت ٤٦٦)، وعدة البروق في جمع ما في المذهب من الجُمُوع والفروق لأبي العباس الونشريسي المالكي (ت ٩١٤)، والفروق لأبي العباس أحمد بن عمر بن سريج الشافعي (ت ٣٠٦)، والجمع والفرق لأبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني الشافعي (ت ٤٣٨)، والفروق لأبي عبد الله محمد السامري الحنبلي (ت ٦١٦)، وإيضاح الدلائل في الفرق بين المسائل لعبد الرحيم الزريراني الحنبلي (ت ٧٤١).

وفي الفروق الأصولية: كتاب أنوار البروق في أنواع الفروق لأبي العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي المالكي المشهور بالقرافي (ت ٦٨٤)، وإدراج الشروق على أنواع الفروق لسراج الدين قاسم بن عبد الله الأنصاري (ت ٧٢٣)، وتقديم في المقدمة ذكر بعض الرسائل الجامعية المؤلفة في هذا الموضوع.

انظر: الفروق الفقهية والأصولية (ص ٨٥-١٢٨، ١٦٠-١٧٤)، وإيضاح الدلائل في الفرق بين المسائل (ص ٢٦) مقدمة المحقق، والفروق في مباحث الكتاب والسنة (ص ٣٩).

المعترض، وقد أفاض الأصوليون الكلام عن الفروق عند هذه المسألة. ومن تعريفاتهم للفروق هنا تعريف الجويني (ت ٤٧٨) بأن " حقيقة الفرق هي الفصل بين المجتمعين في موجب الحكم بما يخالف بين حكميهما"^(١). ويعرف القرافي (ت ٦٨٤) الفرق بأنه " إبداء معنى مناسب للحكم في إحدى الصورتين مفقود في الأخرى"^(٢).

وفي كشف اصطلاحات الفنون: " الفرق بالفتح وسكون الراء عند الأصوليين وأهل النظر هو أن يفرّق المعترض بين الأصل و الفرع بإبداء ما يختصّ بأحدهما لئلا يصح القياس، و يقابله الجمع، وبالجمله فالفرق: أن يبين المعترض في الأصل وصفاً له مدخل في العلّة"^(٣).

ومن أمثلة الفرق عندهم لو قال شخص: يقاد المسلم بالذمي قياساً على غير المسلم بجامع القتل العمد العدوان، فيقول المعترض: إن بينهما فرقا، فكون القاتل مسلماً يمنع من وجوب القصاص عليه لشرفه"^(٤).

ويبحث الأصوليون الفروق بإسهاب عند التفريق بين القواعد والمصطلحات المتشابهة في بعض الوجوه ببيان أوجه الاختلاف بينها"^(٥).

ومن أمثلته: الفرق بين الحكم التكليفي والحكم الوضعي"^(٦)، والفرق

(١) الكافية في الجدل (ص ٢٩٨).

(٢) شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول (ص ٣١٣)، وانظر شرح الكوكب المنير (٤ / ٣٢٠).

(٣) كشف اصطلاحات الفنون (٢ / ١٢٦٩).

(٤) شرح الكوكب المنير (٤ / ٣٢٣)، والفروق الفقهية والأصولية (ص ١٩).

(٥) الفروق الفقهية والأصولية (ص ١٣١).

(٦) انظر: الفروق للقرافي (١ / ١٦٣)، وشرح الكوكب المنير (١ / ٣٤٢).

بين الواجب الموسع والواجب المضيق^(١)، والفرق بين فرض العين وفرض الكفاية^(٢).

وقد تشترك بعض مباحث الفروق في أصول الفقه مع مباحث علوم القرآن الكريم، مثل: الفرق بين النسخ والتخصيص، والنسخ والبداء والنسخ والتقييد ونحوها.

أما الفقهاء فيبحثون الفروق الفقهية في المسائل التي يشبه بعضها بعضاً في الصورة وتختلف في الحكم، ولذا يعرفون الفرق الفقهي بأنه الفن "الذي يذكر فيه الفرق بين النظائر المتحدة تصويراً ومعنى، المختلفة حكماً وعلّة"^(٣).

أو هو المسائل المشتبهة صورة المختلفة حكماً ودليلاً وعلّة^(٤). ومن أمثلته قول الفقهاء: من أكل شاكاً في طلوع الفجر وبقي على شكه، فلا قضاء عليه، وإن أكل شاكاً في غروب الشمس، وبقي على شكه فعليه القضاء، والفرق بينهما: أن الأصل في المسألة الأولى بقاء الليل، فلا يزيله الشك، والأصل في المسألة الثانية بقاء النهار، فلا يزيله الشك^(٥). ومما سبق في تعريف الفروق الفقهية يتبين اهتمام الفقهاء ببيان الفروق في الأحكام وأدلتها وعللها.

(١) شرح مختصر الروضة للطوفي (١/٣١٢).

(٢) انظر: الفروق للقرافي (١/١١٦)، وشرح الكوكب المنير (١/٣٧٤).

(٣) الأشباه والنظائر للسيوطي (ص ٧).

(٤) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص ٢٣١)، والفروق للسامري (١/١١٥).

(٥) الفروق للسامري (١/٢٦٠)، وإيضاح الدلائل (ص ١٩٦).

وبه - أيضاً - يتضح الفرق بين الفروق الأصولية والفروق الفقهية، فالفروق الفقهية بيان أوجه الاختلاف بين الفروع المتشابهة في الصورة المختلفة في الحكم، أما الفروق الأصولية فهي تبحث في الفروق بين القواعد والأصول والمصطلحات^(١).

وأما الفروق المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه فهي أعم وأشمل، إذ تشمل الفروق اللغوية، والفروق بين معاني الآيات والأساليب القرآنية، بل إن هناك فروقاً متعلقة بنطق الآيات والكلمات ومخارج الحروف القرآنية، وهذه الفروق وغيرها مما سيأتي تفصيله كلها أمور أصيلة في مباحث الفروق القرآنية.

ومن خلال تعريف الفروق في الفنون الأخرى ومعرفة طبيعته يمكننا القول بأن المقصود بالفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم: بيان أوجه الاختلاف في اللفظ أو المعنى أو الحكم بين الأشياء المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه التي يقع بينها اشتباه أو اشتراك في شيء ما.

(١) انظر الفروق الفقهية والأصولية (ص ١٥، ١٣١).

المبحث الثاني

دواعي ذكر الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم

من المهم بيان الدواعي التي تدفع العلماء إلى ذكر الفروق القرآنية، وبذلك تتبين عناية العلماء ببيان الفروق، وأن ذكرهم لها له ما يبرره، وليس هو من قبيل الترف العلمي أو تشقيق المسائل وتفريعها.

وتتأكد أهمية معرفة الدواعي كونها تسهم في ضبط الفروق، وتحد من التوسع والاستطراد في ذكرها وتوجيهها، فليس كل أمرين يذكر الفرق بينهما، وإنما يذكر ما تدعو إليه الحاجة، ويكون لذكره داعٍ وجيه، ومبرر صحيح.

ومن أبرز دواعي العلماء في بيان الفروق في التفسير علوم القرآن الكريم ما يأتي:

أولاً: الاشتراك في بعض معاني الألفاظ، فتحتاج إلى بيان الفروق الدقيقة بينها.

ويرد هذا الداعي في الفروق اللغوية حين يكون بين كلمتين اشتراك في بعض المعاني، فالبخل والشح لفظان يشتركان في معنى الإمساك والمنع، فالاشتراك حقيقي في الأصل اللغوي^(١)، ومثل ذلك يقال في: الحمد والشكر، والخوف والخشية، والفقر والمسكين، والإسراف والتبذير، والرفقة والرحمة، والريب والشك^(٢).

(١) انظر: الفروق اللغوية للعسكري (ص ١٧٦)، ومفردات ألفاظ القرآن (ص ١٠٩، ٤٤٦).

(٢) انظر: الدر المصون (١/ ٨٦، ٣٥٦)، والتحرير والتنوير (٢/ ٢٥، ٧/ ٤٢١، ٢٨/ ٨٤، ٩٤،

ولذا يؤكد بعض المفسرين على الاشتراك والتقارب بين الألفاظ التي تحتاج إلى بيان الفرق، فأبو الحسن الماوردي رَحِمَهُ اللهُ (ت ٤٥٠) يقول عند قول الله تعالى: ﴿وَعَنْتَ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾^(١): "والفرق بين الذل والخشوع - وإن تقارب معناهما - هو أن الذل أن يكون ذليل النفس، والخشوع أن يتذلل لذي طاعة"^(٢).

ويقول عند قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾^(٣): "والفرق بين الجلاء والإخراج - وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً - من وجهين: أحدهما: أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد.

الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا للجماعة، والإخراج يكون لواحد وجماعة"^(٤).

ويرد هذا الداعي أيضاً في الفروق الاصطلاحية، فمن المعلوم أن لكل مصطلح معنى لغوي يرجع إليه، وقد يتقارب المعنى اللغوي لمصطلحين، فيقع التشابه بينهما كالتفسير والتأويل، فإنهما يشتركان لغة في معنى البيان^(٥)،

= ٣٥٤، ٣٠ / ٦٣٠)، وكتاب الفروق اللغوية د. محمد الشايع (ص ٢١٥ - ٢٩٠).

(١) سورة طه الآية (١١١).

(٢) النكت والعيون (٣ / ٤٢٧)، وانظر الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ١٤٢).

(٣) سورة الحشر الآية (٣).

(٤) النكت والعيون (٥ / ٥٠١)، وانظر الجامع لأحكام القرآن (٢٠ / ٣٣٩).

(٥) انظر في المدلول اللغوي لهما: لسان العرب (١ / ١٧٢، ٥ / ٣٤١٢).

وعند النظر في تعريف العلماء لهذين المصطلحين نجدهم يكثرون الأقوال في الفروق بينهما.

ثانياً: الاشتراك في الأحكام، فقد يقع اشتراك في أحكام بعض المسائل، فيقع التشابه بينها، فيحتاج الأمر إلى بيان الفرق، ومن أمثلته: اشتراك النسخ والتخصيص في كونها رفع للحكم، لكن النسخ رفع كلي، أما التخصيص فهو رفع جزئي عن بعض أفراد العام، بحيث لا يشملهم الحكم بعد تخصيصه^(١)، "يقول الآمدي: (ت ٦٣١): "إن التخصيص والنسخ وإن اشتركا من جهة أن كل واحد منهما قد يوجب تخصيص الحكم ببعض ما تناوله اللفظ لغة، غير أنها يفترقان من عشرة أوجه" ثم ذكرها^(٢).

ويقول الزرقاني رحمه الله (ت ١٣٦٧) بعد أن عرف النسخ والتخصيص: "وبالنظر في هذين التعريفين نلاحظ أن هناك تشابهاً قوياً بين المعرفين، فالنسخ فيه ما يشبه تخصيص الحكم ببعض الأزمان، والتخصيص فيه ما يشبه رفع الحكم عن بعض الأفراد، ومن هذا التشابه وقع بعض العلماء في الاشتباه"^(٣).

ومن ذلك: اشتراك القرآن الكريم والحديث في جواز نسبتها إلى الله تعالى، فيقال: قال الله في كتابه، وقال الله في الحديث القدسي، وهنا قد يقع الاشتباه، فيحتاج العلماء إلى ذكر الفروق بينهما، وقد ذكروا بينهما فروقاً

(١) شرح الأصول من علم الأصول لابن عثيمين (ص ٣٨٦).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام (٢/ ١١٣).

(٣) مناهل العرفان (٢/ ٨٠)، وانظر: الموافقات للشاطبي (٣/ ٣٤٤).

كثيرة^(١).

ثالثاً: التقارب اللفظي في نطق بعض الكلمات القرآنية، حيث تتقارب مخارج بعض الأحرف، مما يؤدي إلى الاشتباه^(٢) بينها في نظر كثير من الناس، وقد نص بعض من ألف في الفرق بين الضاد والطاء في القرآن الكريم إلى أن من دواعي تأليفه ما يحصل عند القراء وغيرهم من الاشتباه بين الضاد والطاء، يقول أبو عمرو الداني رَحِمَهُ اللهُ (ت ٤٤٤) في مقدمة كتابه الفرق بين الضاد والطاء في كتاب الله عز وجل^(٣): "وقد دعاني ما رأيته من حاجة الطالبين إلى معرفة ذلك مع غلط كثير من القراء وغيرهم فيه إلى أن أفرد كتاباً في الفرق بينهما في كتاب الله - عز وجل - خاصة نسقاً واحداً، وأجعل ذلك أبواباً وفصولاً، يقاس عليها ما يرد منها، مع تبين وجوه ذلك، وتفسير معانيه، وتصرف اشتقاقه، ودوره في الكلام ليعمل على حساب ما ورد".

رابعاً: ورود الإطلاق في بعض المسائل والمصطلحات ونحوها، والإطلاق من موارد الاشتباه، فيقع الخلط بين الأشياء، وهنا يحتاج لبيان الفرق. ومن أمثلته: أن المصطلح الواحد يطلق ويراد به أمران، فيقع الخلط

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان (ص ٢٠)، ودراسات في علوم القرآن د. فهد الرومي (ص ٢٤)، وقد ألف في هذه القضية بشكل مستقل كما سيأتي في مبحث التأليف في الفروق.

(٢) الاشتباه يرد بمعنى: الالتباس، وقد يكون نتيجة لوجود التشابه، وهو الاشتراك بين شيئين في معنى من المعاني، فيقع الاشتباه، وفي أساس البلاغة (ص ٣٢٠): "اشتبهت الأمور وتشابهت: التبتت لإشبه بعضها بعضاً"، وفي القاموس المحيط (ص ١٦١٠): "تشابه واشتبهت: أشبه كل منهما حتى التبس"، وقد يطلق الاشتباه ويراد به التشابه، انظر: تهذيب اللغة (٦/ ٩٢).

(٣) (ص ٢٢).

بينهما ؛ مثل المتشابه، فإنه نوعان: المتشابه المعنوي الذي هو ضد المحكم، وهو الوارد في قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾^(١)، وهو من اسمه متعلق بالمعنى، وللعلماء في تعريفه أقوال، من أحسنها: أنه ما التبس فهمه على كثير من الناس أو بعضهم، واحتاج في بيانه إلى غيره^(٢).

والنوع الثاني: المتشابه اللفظي الداخل في مفهوم قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ نَقَّشَ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾^(٣)، قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ١١٧) في معنى المتشابه هنا: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف.

وقال عكرمة (ت ١٠٥) والحسن (ت ١١٠) رحمهما الله: ثنى الله فيه القضاء، زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفي السورة الأخرى آية تشبهها^(٤).

والتعريف الاصطلاحي للمتشابه اللفظي هو: الآيات التي ترد في القرآن

(١) سورة آل عمران من الآية (٧).

(٢) انظر مضمون هذا التعريف في: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٤)،

(٣) سورة الزمر من الآية (٢٣).

(٤) جامع البيان (٢٠/ ١٩١)، وتفسير القرآن لعبد الرزاق (٢/ ١٤٠)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٨٤)، والدر المنثور (٥/ ٣٢٥)، والمفهوم الذي ذكرناه هو أحد مفهومين للآية، والمفهوم الآخر أنه متشابه في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه، وكلا المفهومين صحيح، انظر: زاد المسير (٧/ ٢٤)، وتيسير الكريم المنان لابن سعد (ص ٧٢٣)، والتحرير والتنوير (٢٣/ ٣٨٥).

في أكثر من موضع، ويكون بينها اتفاق في الألفاظ، لكنها تختلف بزيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف ونحو ذلك^(١)، وقد يقع الخلط بينه وبين المتشابه المعنوي، فيُظن أن الثاني هو الأول.

خامساً: من دواعي ذكر الفروق الرد على المغرضين والطاعنين، وموردي الإشكالات، أو مدعي التعارض بين آيات الكتاب العزيز، وذكر الفروق في هذه الحالة أقوى في إزالة الشبهة، ودفع إيهام التعارض، وسيأتي مزيد تفصيل لهذا الداعي والتمثيل له عند الحديث عن أهمية الفروق والتأليف فيها، ولا بن عقيل الحنبلي رحمته الله (ت ٥١٣) كلمة نفيسة في بيان أهمية الفروق في دفع الشبه، وإن كان كلامه يتعلق بالأدلة، لكن يمكن الاستفادة منه هنا، يقول رحمته الله: "وما قرع الناس في دفع الشبهة عن الحجة إلا بإظهار الفرق"^(٢).

وبتأمل الدواعي السابقة نجد بينها قدراً مشتركاً، وهو وجود الاشتراك والتقارب فيما يراد التفريق بينها، ولهذا جاء في التعريف الاصطلاحي للفروق التأكيد على وجود التشابه والاشتراك فيما يراد التفريق بينه، بل إن التعريفات للفروق في العلوم الأخرى أكدت هذه القضية كما تقدم.

وهذا الاشتراك والتقارب الذي يقع بين بعض الجزئيات قد يكون

(١) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي (ص ٢١٧)، والبرهان في توجيه متشابه القرآن للكرمانى (ص ٦٣)،

(٢) الواضح في أصول الفقه (٢/ ٣١٠).

حقيقاً، له أسبابه الواقعية المفضية إلى اشتباه المسائل لدى بعض الناس، فيقتضي الأمر بيان الفروق لإزالة اللبس، كما في الأمثلة السابقة.

وقد يقع الاشتباه في ذهن بعض الناس، ولا يكون له حقيقة واقعية، وهذا يكثر عند غير المتخصصين، وهنا يحتاج العلماء إلى بيان الفرق، ومن أمثله:

وقوع الاشتباه بين الأحرف السبعة والقراءات السبع، فهذا الاشتباه والاشتراك لم يخطر ببال مسبع السبعة أبو بكر بن مجاهد رحمته الله (ت ٣٢٤)، لكنه وقع في ذهن كثير من الناس، مما ألجأ العلماء إلى بيان الفرق بين الأحرف السبعة والقراءات السبع، يقول المهدوي رحمته الله (ت ٤٤٠): "ولقد فعل مسبع هؤلاء السبعة ما لم يكن ينبغي أن يفعله، وأشكل على العامة حتى جهلوا ما لم يسعهم جهله.... فأوهم كل من قلّ نظره، وضعفت عنايته أن هذه القراءات السبع التي قال فيها النبي صلّى الله عليه وآله: "أنزل القرآن على سبعة أحرف"^(١)، وأكد وهمه ما يراه من اجتماع أهل الأمصار عليها، واطراحهم ما سواها، وذلك لعمري موضع إشكال على الجهال، وليته إذ ذهب إلى الاقتصار على بعض قراء الأمصار، واجتهد في الاختيار جعلهم أقل من السبعة أو أكثر، فكان يزيل بعض الشبهة الداخلة على الأغمار"^(٢).

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض (٩٠/٣)، ومسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٥٦٠/١)، برقم (٨١٨)، كلاهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات (ص ٢٥٠) ضمن كتاب نصوص محققة في علوم القرآن الكريم، د. حاتم الضامن.

المبحث الثالث

مجالات الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم

من طبيعة الفروق بعامّة أنها تُذكر كلما دعت الحاجة إليها، وتقدم في المبحث السابق أن الذي يدعو إلى الحديث عنها الاشتراك والاشتباه، فمتى وجد الاشتباه احتيج لبيان الفروق، ولذا فإنّ مباحث الفروق متفرقة في شتى علوم القرآن الكريم، والمجالات القرآنية التي كانت محلاً لمباحث الفروق متنوعة، ونريد هنا وضع تصنيف للمجالات التي كانت محل بحث الفروق ليجمع النظير إلى نظيره، فتلتئم مباحث الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم، وسوف يكون النظر في هذا المبحث إلى الفروق - لأنها محل البحث - وليس إلى أنواع علوم القرآن الكريم، فنذكر المجال، ثم نذكر صوره وأمثله من التفسير وعلوم القرآن الكريم.

ويمكن تصنيف مباحث الفروق في الأنواع الآتية:

النوع الأول: الفروق اللفظية المتعلقة بنطق الأحرف والكلمات القرآنية، وهذا النوع متعلق بعلم القراءات والتجويد، فهناك حروف متقاربة في مخرجها، وهذا التقارب يؤدي إلى الخلط بينها والغلط في نطقها، ولا بد هنا من بيان الفروق بينها، مثل الذال والزاي والشين والسين، ويتأمل الفروق في هذا النوع نجدها على قسمين:

القسم الأول: الفروق اللفظية التي تؤثر في المعنى، فالخلط بين بعض الأحرف يؤدي إلى اختلاف المعنى، ومن أمثله: الفرق بين الضاد والطاء،

وبنظرة عابرة للحروف التي تكلم العلماء في الفرق بينها نجد أوفرها حظاً التفريق بين الضاد والظاء، وإنما كثر حديث العلماء عن الفرق بينهما لصعوبة التمييز بين مخرجيهما، يقول مكي بن أبي طالب رَحِمَهُ اللهُ (ت ٤٣٧) مبيناً صعوبة مخرج الضاد: "والضاد أصعب الحروف تكلفاً في المخرج، وأشدّها صعوبة على اللافظ، فمتى لم يتكلف القارئ إخراجها على حقها أتى بغير لفظها، وأخل بقراءته" (١).

ويقول ابن الجزري رَحِمَهُ اللهُ (ت ٨٣٣): "واعلم أن هذا الحرف ليس من الحروف حرف يعسر على اللسان غيره، والناس يتفاضلون في النطق به" (٢). ومع صعوبة النطق فإن المعنى يختلف بين ما ينطق بالضاد وما ينطق بالظاء، ومن لم يعرف الفرق أخل بالمعنى، يقول أبو عمرو الداني رَحِمَهُ اللهُ: "ومن أكد ما على القراء أن يخلصوه [يعني حرف الضاد] من حرف الظاء بإخراجه من موضعه وإيفائه حقه من الاستطالة، ولا سيما فيما يفترق معناه من الكلام، فينبغي أن ينعم بيانه ليطهر بذلك في نحو: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، و﴿الظَّالِمِينَ﴾ (٣)، و﴿ضَلَّ مَنْ دَعَاكَ﴾ (٤)، و﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ (٥)، و﴿وَعِصَ

(١) الرعاية (ص ١٨٥).

(٢) التمهيد (ص ١٤٠).

(٣) سورة الفتح من الآية (٦).

(٤) سورة الإسراء من الآية (٦٧).

(٥) سورة النحل من الآية (٥٨).

أَلَمَاءُ^(١)، و﴿وَمَا يَغِيْظُ الْأَرْحَامُ﴾^(٢)، ﴿وَالْكَنَظِمِينَ الْفَيْظُ﴾^(٣)،
و﴿كَيْدُهُ مَا يَغِيْظُ﴾..... وما أشبهه ألا ترى أنه متى لم يستعمل ذلك
اشتبه لفظ الجميع، وتغير المعنى، وفسد المراد"^(٤).

ولصعوبة التفريق بين الضاد والظاء في النطق فقد أغتفر الإخلال به
لمن لم يقصده وبخاصة في الفاتحة، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ (ت ٧٢٨): "وأما
من لا يقيم قراءة الفاتحة، فلا يصلي خلفه إلا من هو مثله، فلا يصلي خلف
الألثغ الذي يبدل حرفاً بحرف، إلا حرف الضاد إذا أخرج من طرف
الفم، كما هو عادة كثير من الناس، فهذا فيه وجهان:

منهم من قال: لا يصلي خلفه ولا تصح صلاته في نفسه ؛ لأنه أبدل
حرفاً بحرف ؛ لأن مخرج الضاد الشدق، ومخرج الظاء طرف الأسنان، فإذا
قال (ولا الظالين) كان معناه ظل يفعل كذا.

والوجه الثاني: تصح، وهذا أقرب، لأن الحرفين في السمع شيء
واحد، وحس أحدهما من جنس حس الآخر لتشابه المخرجين، والقارئ إنما
يقصد الضلال المخالف للهدى، وهو الذي يفهمه المستمع، فأما المعنى
المأخوذ من ظل فلا يخطر ببال أحد"^(٥).

(١) سورة هود من الآية (٤٤).

(٢) سورة الرعد من الآية (٨).

(٣) سورة آل عمران من الآية (١٣٤).

(٤) التحديد في الإتيان والتجويد (ص ١٦٢ - ١٦٣).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٣ / ٣٥٠).

ويقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ (ت ٧٧٤): "والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والطاء لقرب مخرجيهما ؛ وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الطاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، ولأن كلاً من الحرفين من الحروف المجهورة، ومن الحروف الرخوة، ومن الحروف المطبقة، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك، والله أعلم"^(١).

وقد يؤدي اختلاف الضاد أو الطاء إلى اختلاف المعنى، ويكون كلا المعنيين صحيحاً، ومثاله: قول الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾^(٢)، فإنها إذا قرئت بالضاد كان معناها البخل والشح، وإذا قرئت بالطاء صارت بمعنى التهمة، وكلا القراءتين متواترة، والمعنى صحيح في كلا القراءتين، فالنبي ﷺ غير متهم على الوحي، وليس هو ببخيل في تبليغه، فالاختلاف في المعنى من اختلاف التنوع^(٣).

والقسم الثاني: ما لا يؤثر الإخلال به في المعنى، ومن أمثلته: الفرق

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٤٣) ط. دار طيبة، ونحو هذا الكلام في التفسير الكبير للرازي (١/ ٦٩).

(٢) سورة التكوين آية (٢٤).

(٣) قرأ بالطاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس، وقرأ الباقر بالضاد، انظر القراءتين في: التيسير (ص ٢٢٠)، والنشر (٢/ ٣٩٨)، وانظر في معناهما: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٣٦٢)، وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦٢): "وإذ تواترت قراءة بضنين بالضاد الساقطة، وبظنين بالطاء المشالة علمنا أن الله أنزله بالوجهين، وأنه أراد كلا المعنيين".

بين الإدغام والإخفاء^(١)

ومع أن هذا القسم غير مؤثر في المعنى، فلا يعني أنه ليس له ثمرة البتة، فالتفريق بين الإدغام والإخفاء معتبر في تجويد القرآن وترتيبه، وقارئ القرآن الكريم مأمور - استحباباً في أقل الأحوال - بالتمييز بينهما حال التلاوة.

وهكذا الشأن في سائر الحروف التي بينها تقارب في المخرج مما يؤدي إلى الاشتباه بينها لدى بعض الناس، فينبغي العناية بالتفريق بينها لتقرأ على الوجه الصحيح، فإن ذلك من تمام ترتيل القرآن وتجويده.

النوع الثاني: الفروق اللغوية لألفاظ القرآن، والمراد بها بيان وجوه الاختلاف بين الألفاظ المتقاربة في معناها، وإيضاح وجوه المعاني لتلك الألفاظ، وقد جاء في الكتاب العزيز ألفاظ متقاربة، لكن بينها فروق دقيقة، والقول بوجود الفروق اللغوية في القرآن الكريم يرجع بنا إلى مسألة لغوية، وهي وقوع الترادف في اللغة العربية، والمقصود بالترادف: توالي الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد^(٢).

وقد أنكر كثير من العلماء وقوعه، وأثبته آخرون^(٣)، والأقرب - والله أعلم - أن الترادف واقع في اللغة العربية باعتبار، فإذا نظرنا مثلاً إلى القمح

(١) انظر: غاية المريد في علم التجويد (ص ٦٧).

(٢) انظر في تعريفه: التعريفات للجرجاني (ص ٨٣)، والمزهر في علوم اللغة (١/ ٤٠٢).

(٣) انظر الخلاف في هذه القضية: شرح الكوكب المنير (١/ ١٤١)، والمزهر في اللغة (١/ ٤٠٣)،

والفروق اللغوية د. محمد الشايع (ص ٣٩ وما بعدها).

والحنطة والبر، أو نظرنا إلى السيف والمهند والحسام والعضب من حيث دلالتها على ذات واحدة حكمنا بترادفها من هذا الوجه، ومن ثمَّ قال من قال من أهل اللغة بالترادف، وتقدم في التعريف الاصطلاحي للفروق أن ثمة اشتراكاً يقع بين ما يراد التفريق بينه، وهو هنا الاشتراك في الدلالة على الذات، والقول بالترادف على هذا الاعتبار لا يعني إلغاء وجود الفروق بين كثير من الألفاظ المتقاربة باعتبار آخر، فإنه " ما من اسمين لمسمى واحد إلا وبينهما فرق في صفة أو نسبة أو إضافة، سواء علمت لنا أو لم تعلم "(١).

وعليه فوقع الترادف في القرآن الكريم على الاعتبار الثاني ضعيف، ولا يبعد القول بعدم وجوده، ويؤكد ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أَنْ " الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه ؛ بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن، فإذا قال القائل: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (٢) إن المور هو الحركة كان تقريباً ؛ إذ المور حركة خفيفة سريعة، وكذلك إذا قال: الوحي: الإعلام، أو قيل: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ (٣): أنزلنا إليك، أو قيل: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٤) أي: أعلمنا، وأمثال ذلك، فهذا كله تقريب لا تحقيق، فإن الوحي هو إعلام سريع خفي، والقضاء إليهم أخص من الإعلام، فإن

(١) انظر: الصاحبى في فقه اللغة (ص ٩٧)، وروضة المحبين (ص ٥٤)، وما بين الحاصرتين منه.

(٢) سورة الطور الآية (٩).

(٣) جاءت هذه الآية في عشرة مواطن، أولها في النساء من الآية (١٦٣).

(٤) سورة الإسراء من الآية (٤).

الإعلام، فإن فيه إنزالاً إليهم، وإيحاء إليهم" (١).

إن التأمل في الكلمات والأساليب القرآنية، واستنباط الفروق الدقيقة بينها والاستعانة باللغة العربية وسياق الآيات سوف يفضي بالمرء إلى وجه من وجوه إعجاز القرآن، وهو مجيئه بهذه اللغة الفريدة والتراكيب البديعة، والدقة في اختيار ألفاظه وكلماته وأساليبه، ووضعها في مكانها المناسب، وكيف لا يكون ذلك وقد نزل من لدن حكيم عليم؟!.

ويؤكد هذه الحقيقة بعض من كتب في إعجاز القرآن من المتقدمين، فالخطابي رحمته الله (ت ٣٨٨) يقول في معرض حديثه عن إعجاز القرآن: "ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنعمة والصفة، وكقولك: اقعد واجلس، وبلى ونعم، وذلك وذاك، ومن وعن، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات" (٢).

ولما أدرك بعض المفسرين ممن لهم عناية ظاهرة باللغة العربية أهمية

(١) مقدمة في أصول التفسير ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣ / ٣٤١).

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (ص ٢٩)، وانظر نحوه من هذا الكلام للباقلاني في إعجاز القرآن

(٢ / ٥٩) بذيل الإتيان للسيوطي.

الفروق اللغوية في الدلالة على إعجاز القرآن الكريم، وبخاصة في أسلوبه وبيانه أولوها عناية خاصة، ومن أبرز هؤلاء الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللهُ (ت ٥٠٢)، فقد أشار إلى هذا في مقدمة كتابه "مفردات ألفاظ القرآن الكريم" وقال: "وأتبع هذا الكتاب - إن شاء الله تعالى ونسأ في الأجل - بكتاب ينبئ عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، وما بينها من الفروق الغامضة، فبذلك يعرف اختصاص كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من أخواته، نحو ذكر القلب مرة، والفؤاد مرة، والصدر مرة ونحو ذلك مما يعده من لا يحق الحق ويبطل الباطل أنه باب واحد، فيقدر أنه إذا فسر: ﴿أَحْمَدُ لِلَّهِ﴾ بقوله: الشكر لله، و﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ لا شك فيه، فقد فسر القرآن ووفاه التبيان" (١).

ومعرفة الفروق اللغوية من الأمور الدقيقة التي تحتاج إلى تبصر في علم اللغة العربية ومعرفة أساليب العرب في الكلام، ولذا تختلف فيه أنظار العلماء، فقد يلوح لبعضهم فرق بين لفظين، بينما لا يظهر لغيره فرق فيرى اللفظين من باب الترادف، والتنوع في الأساليب والألفاظ، فابن العربي رَحِمَهُ اللهُ (ت ٥٤٣) حين فسر قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢)، فذكر الفرق بين الشح والبخل، وأن البخل منع الواجب، والشح منع الذي لم يجد، ولما لم يرتض ما قيل في التفريق بينهما، عقب بقوله:

(١) المفردات (ص ٥٥) باختصار.

(٢) سورة الحشر من الآية (٩).

"وهذا لا يلزم ؛ فإن كل حرف يفسر على معنيين أو معنى يعبر عنه بحرفين، يجوز أن يكون كل واحد يوضع موضع صاحبه جمعاً أو فرقاً، وذلك كثير في اللغة، ولم يقم هاهنا دليل على الفرق بينهما"^(١).

والذي دعاه إلى عدم التفريق بين البخل والشح عدم قيام الدليل على الفرق بينهما كما يظهر من كلامه، في حين أنه في بعض المواطن يميل إلى التفريق بين بعض الألفاظ التي بينها قدر من الاشتراك، كالفرق بين القانع والمعتز في قول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَزَ﴾^(٢)، فقد ذكر الأقوال فيها، ثم قال: "والذي عندي فيه أن المعنى فيهما متقارب كتقارب معنى الفقير والمسكين، وحقيقة ذلك أن الله أمر بالأكل وإطعام الفقير، والفقير على قسمين: ملازم لك، ومار بك، فأذن الله في إطعام الكل منهما مع اختلاف حالهما"^(٣).

النوع الثالث: الفروق التفسيرية لمعاني الآيات، والفرق بين هذا النوع والذي قبله أن الأول يتناول تفسير المفردات القرآنية، وبيان الفرق بين الكلمة ونظيرها، أما هذا النوع فهو لتفسير الجمل القرآنية المركبة من عدة مفردات، وبيان الفرق بين الجملة وما يشبهها من الجمل الأخرى. ومن أبرز فنون التفسير التي تندرج في هذا النوع ما يعرف بتوجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، وله صور عديدة، منها: التشابه بين

(١) أحكام القرآن (٤/ ٢٢٠).

(٢) سورة الحج من الآية (٣٦).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ٢٩٧)، وانظر كلامه في الفرق بين الفقير والمسكين في (٢/ ٥٣٥).

الآيات في الأفراد والجمع، أو التشابه في التذكير والتأنيث، أو التشابه في التعريف والتنكير، أو التشابه في الذكر والحذف، أو التشابه في التقديم والتأخير، أو التشابه في الوصل والفصل^(١).

وقد نص بعض من ألف في توجيه التشابه اللفظي على بيان الفرق بين الآيات المتشابهة، فقد ذكر تاج القراء الكرمانى رحمه الله (ت ٥٠٥) في مقدمة كتابه: "البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان" أنه قصد بيان الفرق بين الآية ومثلها، يقول: "أفردت هذا الكتاب لبيان المتشابه، فإن الأئمة - رحمهم الله تعالى - قد شرعوا في تصنيفه، واقتصروا على ذكر الآية ونظيرتها، ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها، والفرق بين الآية ومثلها، وهو المشكل الذي لا يقوم بأعبائه إلا من وفقه الله لأدائه"^(٢). ويقول الخطيب الإسكافي رحمه الله (ت ٤٠٢) في "درة التنزيل وغرة التأويل" في جواب بعض الآيات: "والجواب عن ذلك مما يحتاج إليه في مواضع من القرآن في مثل هذه الآية التي قصدنا الفرق بين مختلفاتها"^(٣).

وتوجيه التشابه اللفظي من فنون التفسير؛ لأنه في الواقع بيان لمعنى الآية وبيان الفرق بينها وبين معنى نظيرتها، وقد ذكر ابن حجر العسقلاني رحمه الله (ت ٨٥١) أن ابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨) "جمع كتاباً في فن من

(١) انظر بحثاً موسعاً حول هذه الصور في كتاب: التشابه اللفظي وأسراره البلاغية، د. صالح عبد الله الشثري، وكتاب دراسة التشابه اللفظي من أي التنزيل، د. فاضل السامرائي.

(٢) البرهان (ص ٦٤).

(٣) درة التنزيل (ص ٢٣٨).

فنون التفسير سماه: ملاك التأويل^(١)، وكتاب ملاك التأويل من أبرز كتب توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم.

ومما يؤكد اهتمام هذا الفن بالفروق بين معاني الآيات أن أول قضية تكلم عنها ابن الزبير في كتابه ما يتعلق بقول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وأورد فيها أربعة أسئلة، فقال في السؤال الأول: "ما الفرق بين الوارد في أم القرآن، وما جرى مجراها مما افتتح بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وبين الواقع في سورة الجاثية من قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾؟"^(٢).

وحاصل ما أجاب به عن هذا السؤال أن قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾، لكن تأخر في الآية الثانية المبتدأ على خلاف الأصل، فما الموجب لتقديم الخبر على المبتدأ في سورة الجاثية؟. والجواب أنه قد يعرض من جهة المعنى، وتقدير الكلام ما يقتضى ذلك ويوجبه، وإذا تقرر هذا فإن قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ ورد على تقدير الجواب بعد إرغام المكذب وقهره، ووقوع الأمر مطابقاً لأخبار الرسل عليهم السلام، وظهور ما كذب الجاحد به، فعند وضوح الأمر كأن قد قيل: لمن الحمد ومن أهله؟، فكان الجواب على ذلك: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾.

نظير هذا قوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ﴾؟، ثم قال: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ

(١) الدرر الكامنة (١/ ٨٩).

(٢) من الآية (٣٦).

(٣) ملاك التأويل (٨/ ١).

أَلْقَهَارِ ﴿١﴾، ألا ترى تلاقي الآيتين فيما تقدمهما، فالمتقدم في سورة غافر قوله تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿٢﴾.

فعند ظهور الأمر للبيان ومشاهدة ما قد كان خبراً، قيل لهم: ﴿لَمَنِ أَلْمَلُكَ الْيَوْمَ﴾، وتقدم في سورة الجاثية قوله تعالى: ﴿وَبَدَأْهُمْ سِيقَاتٍ مَّاعِزِلُوا﴾ الآيات (٣)، وإنما ذلك يوم التلاق والعرض عليه سبحانه، فعند المعاينة وزوال الارتباب والشكوك كأن قد قيل لهم: لمن الحمد ومن أهله؟، فورد الجواب بقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾، فالآية كالآية، والمقدر المدلول عليه كالمنطوق، والإيجاز مستدع لذلك، ولما تقدم ذكر الملك في آية غافر منطوقاً به لم يحتاج إلى إعادة ذكره، فقيل: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ أَلْقَهَارِ﴾، ولم يقل: فلله الملك لتقدم ذكره، ولما كان الحمد في سورة الجاثية لم يتقدم ذكره، وإنما هو مقدر يدل عليه السابق لم يكن بد من الإفصاح به في الجواب، فقيل: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾، ولأجل ما قصد من تقرير المكذبين، وتوبيخهم عند انقطاع الدعاوى ووضوح الأمر، أتبع حمده تعالى بقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤)، فذكر ربوبيته تعالى لما أبداه وأوجده من أعظم مخلوقاته، وأبدع مصنوعاته، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (٥)، وأعاد ذكر

(١) سورة غافر من الآية (١٦).

(٢) سورة غافر من الآيتين (١٥، ١٦).

(٣) الآية (٣٣).

(٤) سورة الجاثية من الآية (٣٦).

(٥) سورة غافر من الآية (٥٧).

ربوبيته مع كل من هذه المخلوقات العظام، المنصوبة للاستدلال بها والاعتبار بعظيم خلقها وما فيها، فقال: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾، ثم أتبع بما يعم ربوبيته لذلك كله، فقال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فناسب ما ورد هنا من الإطالة بتكرار - ما ذكر - مقصود الآية، وذلك هو الجاري متى قصد تعنيف المشركين ومن عبدَ مع الله غيره، وهو وارد في غير ما موضع من كتاب الله تعالى، وتكرير لفظ "رب" في قوله: ﴿وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾، مما يشهد لهذا الغرض من قصد تقريع الجاحدين، ولما كان الوارد في أم القرآن خطاباً للمؤمنين وتعليماً للمستجيبين مجرداً عما قصد في آية الجاثية من توبيخ الكاذبين ورد على ما قدم من الاكتفاء، وكل على ما يجب ويناسب^(١).

ومن أمثلة هذا النوع أيضاً:

ما جاء في قول الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٢)، وقوله في سورة النحل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣)، حيث ختمت الأولى بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، وختمت الثانية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) ملاك التأويل (١/ ١٠-١٣).

(٢) آية (٣٤).

(٣) آية (١٨).

قال أبو حيان رحمه الله (ت ٧٤٥): "والفرق بين الختمين: أنه هنا [في آية إبراهيم] تقدم قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا﴾^(١)، وبعده: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾^(٢)، فكان ذلك نصاً على ما فعلوا من القبائح من كفران النعمة والظلم الذي هو الشرك بجعل الأنداد ناسب أن يختم بدم من وقع ذلك منه، فجاء: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

وأما في النحل فلما ذكر عدة تفضلات، وأطنب فيها، وقال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾^(٣) أي: من أوجد هذه النعم السابق ذكرها ليس كمن لا يقدر على الخلق، ولا على شيء منه، ذكر من تفضلاته اتصافه بالعذاب والرحمة تحريضاً على الرجوع إليه، وأن هاتين الصفتين هو متصف بهما، كما هو متصف بالخلق، ففي ذلك إطماع لمن آمن به، وانتقل من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق أنه يغفر زلله السابق ويرحمه، وأيضاً فإنه لما ذكر أنه تعالى هو المتفضل بالنعم على الإنسان، ذكر ما حصل من المنعم، ومن جنس المنعم عليه، فحصل من المنعم ما يناسبه حالة عطائه، وهو الغفران والرحمة، إذ لولاها لما أنعم عليه، وحصل من جنس المنعم عليه ما يناسبه حالة الإنعام عليه، وهو الظلم والكفران، فكانه قيل: إن صدر من الإنسان ظلم فאלله غفور، أو كفران نعمة فאלله رحيم، لعلمه بعجز الإنسان وقصوره^(٣).

(١) سورة إبراهيم من الآية (٢٨).

(٢) سورة إبراهيم من الآية (٣٠).

(٣) البحر المحيط (٤١٧/٥).

ومما ينبغي التنبيه إليه في هذا النوع والذي قبله ألا يلجأ المفسر إلى التكلف في إظهار الفروق بين الآيات والألفاظ القرآنية المختلفة^(١).

النوع الرابع: الفروق الاصطلاحية، فهناك تشابه بين بعض المصطلحات واشتراك في بعض الصور بحيث لا يمكن التمييز بينها إلا بإظهار الفروق، وأحياناً يستخدم المصطلح الواحد لأمرين أو أكثر، فلا بد من بيان الفروق، وأحياناً يتطور مدلول المصطلح بمرور الوقت وتداوله بين العلماء فيطرأ عليه التغير، فيحتاج العلماء إلى بيان الفروق بين اصطلاح المتقدمين واصطلاح المتأخرين.

ومن أمثلة الأخير: مفهوم النسخ، فمفهوم السلف للنسخ أوسع من مفهوم العلماء المتأخرين، فهم يطلقونه على النسخ عند المتأخرين، ويطلقونه على تخصيص العام، وتقييد المطلق، وتبيين المجمل، ومن لم يدرك الفرق وقع في الاضطراب، وقد يحاكم السلف في النسخ بمفهوم المتأخرين.

وقد يكون بين بعض المصطلحات تقارباً في المدلول اللغوي كما في الفرق بين التفسير والتأويل، وهنا يلجأ العلماء لبيان الفرق اللغوي والاستدلال به على الفرق الاصطلاحي، كما أنهم يلجؤون إلى بيان الافتراق في الأحكام بين المصطلحات للدلالة على تحقق الفرق بينها، مثل الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي، وتقدم الكلام عن هذا في المبحث السابق.

(١) الفروق اللغوية د. الشايع (ص ٣٥).

ومظنة معرفة الفروق الاصطلاحية عند تعريف العلماء للمصطلحات، فإن العلماء يذكرون تعريف المصطلح ومحترازته، وبيان المحترزات يتبين الفرق بين المصطلح وما يشبهه أو يشاركه من المصطلحات الأخرى.

ويمكن تقسيم الفروق الاصطلاحية في الدراسات القرآنية إلى قسمين:

القسم الأول: الفروق الاصطلاحية المتعلقة بالتفسير وأصوله، وهذا له أمثلة كثيرة، منها:

الفرق بين التفسير والتأويل^(١)، والفرق بين التفسير وعلوم القرآن^(٢)، والفرق بين التفسير والاستنباط^(٣)، والفرق بين التفسير وأصوله^(٤)، والفرق بين أصول التفسير وعلوم القرآن^(٥)، والفرق بين التفسير النبوي والتفسير بالسنة^(٦)، والفرق بين التفسير الصوفي النظري، والتفسير الصوفي الفيزي^(٧)، والفرق بين التفسير الإشاري والتفسير الباطني^(٨)، والفرق بين

(١) انظر: البرهان (٢/ ٢٨٥)، والإتقان (٢/ ٢٢١).

(٢) انظر أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم (ص ٢٣).

(٣) انظر منهج الاستنباط من القرآن الكريم (ص ٥٨).

(٤) انظر: تفسير القرآن، أصوله وضوابطه (ص ٢٧).

(٥) انظر: بحوث في أصول التفسير ومناهجه (ص ١٢)، وتفسير القرآن، أصوله وضوابطه (ص ٢٧).

(٦) انظر مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير (ص ١٣٨).

(٧) انظر التفسير والمفسرون (٢/ ٣٥٢).

(٨) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٥٤٧).

التفسير العلمي والإعجاز العلمي^(١)، والفرق بين التفسير والتدبر^(٢)، والفرق بين التدبر والتأثر من سماع القرآن^(٣)، والفرق بين ترجمة القرآن وتفسيره^(٤).

واكتفي من هذه الأمثلة بذكر الفرق بين التفسير وأصوله، فالتفسير: بيان معاني الآيات، وأصول التفسير: القواعد والأسس التي تعين على تفسير القرآن الكريم، وما يتبع ذلك من شروط المفسر وآدابه^(٥).

القسم الثاني: الفروق الاصطلاحية المتعلقة بعلوم القرآن الكريم،
وهذه الفروق منشورة في شتى أنواع علوم القرآن، وأمثلتها كثيرة جداً:
ففي تعريف القرآن الكريم بحث العلماء: الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي، ومنهم من أفرد هذه القضية في مصنف كما سيأتي، وبحثوا الفرق بين الكتاب والقرآن^(٦)، والفرق بين القرآن الكريم والمصحف^(٧)، والفرق بين المصحف والمصحف^(٨)، والفرق بين القرآن والقراءات^(٩).

(١) انظر دراسات في علوم القرآن الكريم (ص ٣٢١).

(٢) انظر مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر (ص ١٨٩).

(٣) انظر مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر (ص ٢٠٤).

(٤) انظر: مناهل العرفان (٢/ ١٠-١٣)، والتفسير والمفسرون (١/ ٢٨).

(٥) انظر: تفسير القرآن، أصوله وضوابطه (ص ٢٧)، وبحوث في أصول التفسير ومناهجه (ص ١١).

(٦) انظر: دراسات في علوم القرآن د. فهد الرومي (ص ٣٠).

(٧) انظر: دراسات في علوم القرآن د. فهد الرومي (ص ٣٠).

(٨) انظر: فتح الباري (٩/ ١٨)، ولطائف الإشارات (ص ٥٩)، ومناهل العرفان (١/ ٤٠١).

(٩) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٦٥)، ولطائف الإشارات (ص ١٧١).

وفي القراءات والتجويد بحث العلماء: الفرق بين علم القراءات وعلم التجويد^(١)، والفرق بين الأحرف السبعة والقراءات السبع^(٢)، والفرق بين القراءات والروايات والطرق والأوجه^(٣)، والفرق بين جمع القراءات وتركيب القراءات^(٤)، والفرق بين الترتيل والتحقيق^(٥)، والفرق بين الوقف والقطع والسكت^(٦)، والفرق بين الروم والإشمام^(٧)، والفرق بين الإمالة والترقيق^(٨)، والفرق بين النون الساكنة والتنوين^(٩).

وفي خصائص القرآن: الفرق بين خصائص القرآن وخواصه^(١٠).

وفي النسخ: الفرق بين النسخ والتخصيص^(١١)، والفرق بين النسخ والتقييد^(١٢)، والفرق بين النسخ والبداء^(١٣).

وفي العام والخاص: الفرق بين العام المراد به الخصوص، والعام

(١) انظر القراءات القرآنية لعبد الحليم قابة (ص ٣٤).

(٢) انظر: الإبانة عن معاني القراءات (ص ٢١)، والمرشد الوجيز (ص ١٤٦).

(٣) انظر: البدور الزاهرة (ص ١٠)، والقراءات وأثرها في التفسير والأحكام (١/ ١١٣).

(٤) انظر القراءات القرآنية لقابة (ص ٣٦).

(٥) انظر التمهيد في علم التجويد لابن الجزري (ص ٦١).

(٦) انظر النشر في القراءات العشر (١/ ٢٣٨).

(٧) انظر النشر (٢/ ١٢١).

(٨) إبراز المعاني من حرز الأماني (ص ٢٦٠)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٩٠).

(٩) انظر غاية المريد في علم التجويد (ص ٥١).

(١٠) انظر: خصائص القرآن الكريم د. الرومي (ص ١٣).

(١١) انظر: مناهل العرفان (٢/ ٨٠)، والنسخ في القرآن الكريم د. مصطفى زيد (١/ ١٣٠).

(١٢) انظر: النسخ في القرآن الكريم (١/ ١٥٣).

(١٣) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/ ٤٤١)، ومناهل العرفان (٢/ ٧٦).

المختص^(١).

وفي عد الآي: الفرق بين فواصل القرآن والسجع^(٢)، والفرق بين الفاصلة ورأس الآية^(٣).

واكتفي من هذه الأمثلة بمثال واحد:

وهو الفرق بين القراءات والروايات والطرق، ففي البدور الزاهرة^(٤): " خلاصة ما قاله علماء القراءات في هذا المقام: أن كل خلاف نسب لإمام من الأئمة العشرة مما أجمع عليه الرواة عنه فهو قراءة، وكل ما نسب للراوي عن الإمام فهو رواية، وكل ما نسب للآخذ عن الراوي وإن سفل فهو طريق، نحو: الفتح في لفظ ضعف في سورة الروم^(٥) قراءة حمزة [ت ١٥٦]، ورواية شعبة [ت ١٩٣]، وطريق عبيد بن الصباح [ت ٢١٩] عن حفص [ت ١٨٠]، وهكذا".

ولعلك - أخي القارئ - استطلت ذكر أمثلة الفروق الاصطلاحية، وإنما أطلت في ذكرها لدفع توهم قلتها، مع يقيني بأنه قد فاتني كثير من مباحث الفروق، إذ لم استقص في البحث.

النوع الخامس: فروق تتعلق بمسائل التفسير وعلوم القرآن، وفي هذا

(١) انظر: الإتيان في علوم القرآن (٢ / ٢١)، ومباحث في علوم القرآن (ص ٢٣١).

(٢) البرهان (١ / ١٥١)، والإتيان (٢ / ١٢٥).

(٣) انظر: البيان في عد آي القرآن للداني (ص ١٢٦)، والإتيان (٢ / ١٢٤)، والبيان للجزائري

(ص ٢٤٧)، والتحرير والتنوير (١ / ٧٥).

(٤) (ص ١٠).

(٥) الآية (٥٤).

النوع بحث العلماء:

الفرق بين مخرج الضاد ومخرج الظاء، والفرق بين قولهم: هذا تفسير معنى، وقولهم: هذا تفسير إعراب^(١)، والفرق بين قولهم: نزلت الآية في كذا، وقولهم: سبب نزول الآية كذا^(٢)، والفرق بين جمع أبي بكر للقرآن الكريم وجمع عثمان رضي الله عنه^(٣)، والفرق بين ياءات الإضافة، والياءات الزوائد. وأكفي من هذه الأمثلة بذكر الفرق بين ياءات الإضافة، وياءات الزوائد

قال ابن الجزري رحمته الله عن ياءات الإضافة: " والفرق بينها وبين ياءات الزوائد أن هذه الياءات تكون ثابتة في المصاحف وتلك محذوفة، وهذه الياءات تكون زائدة على الكلمة، أي: ليست من الأصول، فلا تجيء لأمّا من الفعل أبداً، فهي كهاء الضمير وكافه، فتقول في: نفسي: نفسه ونفسك، وفي فطرنى: فطره وفطرك، وفي يحزننى: يحزنه ويحزنك، وفي إني: إنه وإنك، وفي لي: له ولك . وياء الزوائد تكون أصلية وزائدة، فتجيء لأمّا من الفعل، نحو: (إذا يسر، ويوم يأت، والداع، والمناد، ودعان، ويهدين، ويؤتين)، وهذه الياءات الخلف فيها جار بين الفتح والإسكان، وياءات الزوائد الخلاف فيها ثابت بين الحذف والإثبات"^(٤).

(١) البرهان (١/٤١٢)، والإتقان (١/٢٣٩).

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ضمن مجموع الفتاوى (١٣/٣٣٩)، والإتقان (١/٤٠ -

٤٢)، ومناهل العرفان (١/١٠٧).

(٣) انظر الإتقان (١/٧٩).

(٤) النشر في القراءات العشر (٢/١٦١).

المبحث الرابع

أهمية معرفة الفروق في التفسير وعلوم القرآن

علم الفروق من حيث العموم من العلوم الدقيقة التي تحتاج إلى تأمل وإمعان نظر، لأن استنباط الفروق لا يكون إلا في المسائل والمعاني المتشابهة التي يقع فيها الخلط عند كثير من الناس، يقول الجرجاني رحمه الله (ت ٤٧١): "واعلم أن من شأن الوجوه والفروق أن لا يزال تحدث بسببها وعلى حسب الأغراض والمعاني التي تقع فيها دقائق وخفايا لا إلى حد ونهاية، وأنها خفايا تكتم أنفسها جهدها حتى لا ينتبه لأكثرها، ولا يعلم أنها هي، وحتى لا تزال ترى العالم يعرض له السهو فيه، وحتى إنه ليقصد إلى الصواب، فيقع في أثناء كلامه ما يوهم الخطأ، وكل ذلك لشدة الخفاء وفرط الغموض"^(١).

ومما يؤكد أهمية العلم بالفروق أن القرآن الكريم احتج بالفروق في الرد على المبطلين وتفنيد شبههم، ومن أمثلته:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (١٨) لَوَكَاتُ هَؤُلَاءِ إِلَهَةٌ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ^(٢)، حيث أخبر تعالى أن آلهة المشركين التي يعبدونها حصب

(١) دلائل الإعجاز (ص ٢٨٥).

(٢) سورة الأنبياء الآيات: (٩٨، ٩٩).

جهنم، مما يدل على انتفاء ألوهيتها، فعارض المشركون هذه الآية بقولهم: إذا كانت آلهتنا دخلوا النار لكونهم معبودين، وجب أن يكون كل معبود يدخل النار، والمسيح معبود، فيجب أن يدخلها، قال ابن تيمية: "فعارضوه بالقياس، والقياس مع وجود الفارق المؤثر قياس فاسد، فبين الله الفرق بأن المسيح عبد حي مطيع لله لا يصلح أن يعبد لأجل الانتقام من غيره بخلاف الأوثان، فإنها حجارة، فإذا عذبت لتحقيق عدم كونها آلهة، وانتقاماً ممن عبدها، كان ذلك مصلحة ليس فيها عقوبة لمن لا يصلح أن يعاقب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾^(١) أي جعلوه مثلاً لأهتهم فحاسوها به"^(٢).

ولذا قال تعالى بعد آية الأنبياء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾^(٣).

وجاء القرآن الكريم بإثبات الفروق وتقريرها في مواطن كثيرة، ففي كثير من الآيات يفرق الله تعالى بين الأشياء، وقد وصف جل ذكره القرآن بالفرقان، فقال تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾^(٤) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ^(٤).

(١) سورة الزخرف من الآية (٥٧).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٥٨/٧)، وانظر شرح العقيدة الأصفهانية (ص ٢٦٧).

(٣) آية (١٠١).

(٤) سورة آل عمران الآيتان (٣، ٤).

وفي "جامع البيان" ^(١): "الفرقان إنما هو الإعلان من قولهم: فرق الله بين الحق والباطل، يفصل بينهما بنصره الحق على الباطل، إما بالحجة البالغة، وإما بالقهر والغلبة بالأيدي والقوة".

وقال تعالى في وصف يوم بدر: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(٢)، وسماه فرقاناً لأن الله تعالى فرق به بين الحق والباطل ^(٣)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "يعني بالفرقان يوم بدر، فرق الله فيه بين الحق والباطل"، وعن مجاهد رضي الله عنه (ت ١٠٣) مثله ^(٤).

وقال الحسن رضي الله عنه عند قول الله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا أَنْتَ فِرْقَانَهُ لِنَقْرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنُنَزِّلَهُ لَنُرِيَهُمْ آيَاتِنَا﴾ ^(٥): "فرق الله به بين الحق والباطل" ^(٦).
وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ^(٧).

قال ابن كثير: "وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(١) (١٨٢/٥).

(٢) سورة الأنفال من الآية (٤١).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (ص ٦٣٤).

(٤) جامع البيان (٢٠١/١١).

(٥) سورة الإسراء الآية (١٠٩).

(٦) جامع البيان (١١٥/١٥).

(٧) سورة الزمر من الآية (٩).

أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل الله أنداداً ليضل عن سبيله؟! ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل^(١).

ومما يؤكد أهمية معرفة الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم ذكر الفوائد المترتبة على معرفتها، ومن أهمها:

أولاً: الفهم السليم للقرآن الكريم، فمن موانع الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى على بعض الناس اشتباه الآية بغيرها، وإذا عرف الفرق بين ما يُظن اشتباهه، وحملت كل آية على وجهها الصحيح، زال الاشتباه والإشكال، وفهمت الآية على وجهها الصحيح.

ومن أمثلته: أن بعض الناس قد يفهم من الآية الكريمة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَكَونَ﴾^(٢)، أن ظاهرها أن الله تعالى خلق الأنعام بيده، كما خلق آدم بيده، فهي مثل قول الله تعالى: ﴿قَالَ يَإِدْرِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾^(٣).

وهذا الفهم غير سليم؛ فهناك فرق بين الآيتين، فقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ عدي الخلق فيه بالباء، وفي قوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ لم يعد العمل بالباء، فهو لا يدل على المباشرة باليد بمقتضى اللسان العربي الذي

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٦).

(٢) سورة يس آية (٧١).

(٣) سورة ص من الآية (٧٥).

نزل القرآن به، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(١)، وقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٣)، فإن المراد في هذه الآيات: ما كسبه الإنسان بنفسه، وما قدمه وإن عمله بغير يده، بخلاف ما إذا قال: عملته بيدي، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(٤)، فإنه يدل على مباشرة الشيء باليد، ولو كان المراد أن الله تعالى خلق هذه الأنعام بيده، لكان لفظ الآية: خلقنا لهم بأيدينا أنعاماً، كما قال الله تعالى في آدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِيَّ﴾^(٥)، وعليه فظاهر قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ أن الله تعالى خلق الأنعام كما خلق غيرها، ولم يخلقها بيده، وإضافة العمل إلى اليد كإضافته إلى النفس بمقتضى اللغة العربية، بخلاف ما إذا أضيف إلى النفس وعدي بالباء إلى اليد.

وقد عقب ابن عثيمين رحمته الله (ت ١٤٢١) بعد أن ذكر هذا الفرق بين الآيتين، فقال: "فتنبه للفرق، فإن التنبه للفرق بين المتشابهات من أجود

(١) سورة الشورى آية (٣٠).

(٢) سورة الروم آية (٤١).

(٣) سورة آل عمران آية (١٨٢).

(٤) سورة البقرة من الآية (٧٩).

أنواع العلم، وبه يزول كثير من الإشكالات^(١).

إن إدراك الفروق القرآنية والعناية بها لا يؤدي إلى الفهم السليم لكتاب الله فحسب، بل إنه يقود إلى الفهم العميق للقرآن والتبحر في تفسيره، لأن استنباط الفروق قائم على النظر في سياق الآيات وربط بعضها ببعض، والتأمل في المعاني اللغوية الدقيقة للكلمات القرآنية، كما أنه قائم على التحليل والنقد، والجمع بين الآيات التي تشبه على بعض الناس. واستخراج الفروق الغامضة بين الآيات لا يقوم بأعبائه إلا من وهبه الله الفهم لكتابه، وأوتي حظاً وافراً من علم العربية وعلوم القرآن الكريم، وعرف أساليب القرآن وعاداته في الخطاب، وأدمن قراءة القرآن الكريم بتدبر وحضور قلب.

ثانياً: دفع الشبهات عن القرآن الكريم، فإن كثيراً من الطاعنين ومن في قلوبهم زيغ يلجؤون إلى الطعن في الكتاب العزيز وضرب الآيات بعضها ببعض، زاعمين أن القرآن الكريم يجمع بين المتناقضات ويفرق بين التماثلات، أو أن فيه تكراراً غير مفهوم المعنى، وقد ينخدع بهذه الشبهات من لا يعرف الفرق بين الآيات، فيقع في الحيرة والاضطراب والشك. وقد أشار بعض من صنف في توجيه المتشابه اللفظي - وتقدم أنه من العلوم التي عنيت كثيراً بذكر الفروق القرآنية - إلى هذه الفائدة.

يقول الغرناطي عن توجيه المتشابه الذي كتب فيه إنه: "باب لم يقرعه

(١) شرح القواعد المثل في صفات الله وأسمائه الحسنى (ص ٣١٧-٣٢١).

ممن تقدم وسلف، ومن هذا حذوهم ممن أتى بعدهم وخلف أحد فيما علمته على توالي الأعصار والمدد وترادف أيام الأبد، مع عظيم موقعه وجليل منزعه، ومكانته في الدين، وفته أعضاد ذوي الشك والارتياب من الطاعنين والملحدين^(١).

ولذا يؤكد أن كتابه موجه إلى الملحدين الطاعنين في الكتاب العزيز، واسم كتابه يؤكد ذلك، فقد سمي كتابه: "ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من أي التنزيل".

ويقول في بعض توجيهاته: "الكلام في هذه الآية ليس خاصاً بمن سلم القواعد المستقرأة من الكتاب والسنة، وإنما كلامنا معتمد فيه القطع لذوي الزيغ والارتياب ممن يتعلق بما تشابه منه طعناً في الدين، واتباعاً لسبيل الملحدين، وشأن هؤلاء التعلق بأدنى احتمال من غير تسليم لما وراء ذلك"^(٢).

ويقول الخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠) في مقدمة كتابه "درة التنزيل" مبيناً سبب تأليفه له: "فتتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقاناً، وصار لمبهم التشابه وتكرار المتكرر تبياناً، ولطعن الجاحدين رداً، ولمسلك الملحدين سداً"^(٣).

ويقول في خاتمة الكتاب: "وهذا آخر ما تكلمنا عليه من الآيات التي

(١) ملاك التأويل (١/٤).

(٢) (١/٩٨).

(٣) درة التنزيل (ص ٢١٨-٢١٩).

يقصد الملحدون التطرق منها إلى عيبتها" (١).

ثالثاً: إبراز إعجاز الكتاب العزيز، ويظهر ذلك بإبراز الفروق اللغوية، ودقة الأساليب القرآنية، من تقديم وتأخير وفصل ووصل ونحو ذلك، يقول الغرناطي في مقدمة "ملاك التأويل": "وإن من مغفلات مصنفي أئمتنا عليهم السلام في خدمة علومه، وتدبر منظومه الجليل ومفهومه، توجيه ما تكرر من آياته لفظاً، أو اختلف بتقديم أو تأخير، وبعض زيادة في التعبير، ففسر إلا على الماهر حفظاً، وظن الغافل عن التدبر والمخلد إلى الراحة عن التفكير، أن تخصيص كل آية من تلك الآيات بالوارد فيها مما خالفت فيه نظيرتها ليس لسبب تقتضيه، وداع من المعنى يطلبه ويستدعيه، وأن ليس على جميع الوارد من ذلك مرجحات من المعاني عند ذوي الأفهام، ومقتضيات من لوازم جليل التركيب من ذلك المعجز العلي من النظام، فلا يليق بكل من تلك المواضع إلا الوارد فيه، وإن تقرير وقوع آية منها في موضع نظيرتها ينافر مقصود ذلك الموضع وينافيه، فتعساً لمن تنكب عن واضح آياته، وكأن لم يقرع سمعه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَبَّ الرَّؤُوسُ﴾" (٢).

رابعاً: أن البحث في الفروق القرآنية من أقوى الدواعي لتدبر القرآن الكريم، ذلك أن العلم بالفروق يحتاج إلى طول فكرة وتأمل، وبعد نظر

(١) (ص ١٣٧٥).

(٢) ملاك التأويل (٣/١).

ودقة استنباط، لما يحتاجه من الربط بين الآيات والتفريق بين معانيها ومدلولاتها، وذلك لا يحصل إلا بطول تدبر . وتدبر القرآن الكريم من أعظم مقاصد إنزاله: ﴿ كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾^(١)، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^(٢).

ومن العجيب أن الآية الأخيرة جاءت بعد موطن يستوجب تدبر الآيات وبيان الفرق الدقيق بين معانيها، فإن الله تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ سَيَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾^(٣)، ثم قال: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾^(٤).

إن النظرة غير المتدبرة لهاتين الآيتين توحى بالتعارض بينهما، ففي الآية الأولى أخبر الله تعالى أن الحسنة والسيئة من عنده، وهو رد منه تعالى على الذين زعموا أن الحسنة من الله، وأن السيئة من عند محمد ﷺ، وفي الثانية يؤكد أن الحسنة منه تعالى، وأن السيئة من نفس الإنسان، ولا يمكن أن يكون بين الآيتين تعارض أو تناقض، ولذا أكد تعالى على قضية التدبر،

(١) سورة ص آية (٢٩).

(٢) سورة النساء آية (٨٢).

(٣) سورة النساء من الآية (٧٨).

(٤) سورة النساء الآية (٧٩).

وأن القرآن لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، وقد قال قبل ذلك: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

والفرق بين كون السيئة من عند الله في الآية الأولى وكونها من عند العبد في الآية الثانية، أنها من عند الله تعالى باعتبار أنه الخالق الموجد لها فهي من عنده خلقاً وإيجاداً، وكونها من عند العبد باعتبار أنه المتسبب في حصولها.

وأما كون الحسنة من عند الله وحده فلا أنه المتفضل المنعم بها، وهو الموفق لعبده في تحصيل أسبابها^(١).

خامساً: ومن فوائد معرفة الفروق في التفسير وعلوم القرآن الاحتراز من الخلط بين المعاني والمسائل والأحكام والمصطلحات، وفي هذه الأخيرة نجد بعض المصطلحات الخاصة بالقرآن الكريم وعلومه قد تتشابه مع المصطلحات في العلوم الأخرى، وبمعرفة الفروق يتضح الفرق، ومن أمثلته:

الفرق بين مفهوم الإشمام عند القراء ومفهومه عند النحويين، فهو عند النحويين: الإتيان بالحركة بين الكسرة والضمة^(٢).

أما القراء فلهم اصطلاح خاص للإشمام، وهو: ضم الشفتين بعد سكون الحرف أصلاً، ولا يدرك معرفة ذلك الأعمى، لأنه لرؤية العين لا

(١) انظر التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١/١٩٩).

(٢) انظر شرح التصريح على التوضيح (١/٤٣٧).

غير ؛ إذ هو إيهاء بالعضو إلى الحركة^(١).
ومن أمثلته الاختلاس عند الفقهاء وعند القراء، فهو عند الفقهاء:
أخذ الشيء بحضرة صاحبه وغفلته على وجه السرعة^(٢).
أما عند علماء القراءات فهو: عبارة عن الإسراع بالحركة إسراعاً
يحكم السامع له أن الحركة قد ذهبت، وهي كاملة في الوزن^(٣).
وختاماً لهذا المبحث فقد عقد ابن القيم رحمته الله (ت ٧٥١) فصولاً كثيرة
في كتاب الروح في بيان الفروق بين الأشياء، وقال في آخرها: "وهذا باب
من الفروق مطول، ولعل إن ساعد القدر أن نفرّد فيه كتاباً كبيراً، وإنما نبهنا
بما ذكرنا على أصوله، والليّيب يكتفي ببعض ذلك، والدين كله فرق،
وكتاب الله فرقان، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم فرق بين الناس، ومن
اتقى الله جعل له فرقاناً ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَفَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ
فُرْقَانًا﴾^(٤)، وسمى يوم بدر يوم الفرقان ؛ لأنه فرق بين أولياء الله وأعدائه،
فألهدى كله فرقان، والضلال أصله الجمع، كما جمع المشركون بين عبادة الله
وعبادة الأوثان، ومحبة ومحبة الأوثان، وبين ما يحبه ويرضاه، وبين ما قدره
وقضاه، فجعلوا الأمر واحداً والمقصود أن أرباب البصائر هم

(١) انظر: التيسير في القراءات السبع (ص ٥٩)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ١٢١).

(٢) انظر الموسوعة الفقهية الكويتية (٣١/ ٢٢٩).

(٣) التمهيد لابن الجزري (ص ٧٣)، ومن الأمثلة: الفرق بين التلفيق عند القراء، والتلفيق عند

الأصوليين، والتلفيق عند الفقهاء، انظر: القراءات القرآنية لقابة (ص ٣٧).

(٤) سورة الأنفال من الآية (٢٩).

أصحاب الفرقان، فأعظم الناس فرقاناً بين المشتبهات أعظم الناس بصيرة، والتشابه يقع في الأقوال والأعمال والأحوال والأموال والرجال، وإنما أتى أكثر أهل العلم من المتشابهات في ذلك كله، ولا يحصل الفرقان إلا بنور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده، يرى في ضوئه حقائق الأمور ويميز بين حقها وباطلها، وصحيحها وسقيمها، ﴿وَمَنْ لَّا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾^(١) (٢).

(١) سورة النور من الآية (٤٠).

(٢) الروح (ص ٣٨٨-٣٩٠).

المبحث الخامس

التأليف في فروق التفسير وعلوم القرآن الكريم

تعود أصول الحديث عن الفروق القرآنية إلى العصور الإسلامية المبكرة، فقد جاء عن السلف نصوص عديدة في بيان الفروق القرآنية، وتكلموا في غير مجال من مجالات الفروق، لكنهم لم ينصوا على مصطلح الفروق، ومن ذلك بيانهم للفروق بين معاني الآيات القرآنية التي توهم التعارض والتناقض، كالأثر المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أتاه، فقال: «إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي؟ قال: ﴿فَلَا أَفْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١)، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٢)، ﴿وَلَا يَكْنُفُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾^(٣)، ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(٤)، فقد كنتموا في هذه الآية؟، وقال: ﴿أَوِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿دَحَاهَا﴾^(٥)، فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال: ﴿قُلْ أَيْنَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾^(٦)، فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء؟، فقال ابن

(١) سورة المؤمنون من الآية (١٠١).

(٢) سورة الصفات آية (٢٧).

(٣) سورة النساء من الآية (٤٢).

(٤) سورة الأنعام من الآية (٢٣).

(٥) سورة النازعات الآيات (٢٧-٣٠).

(٦) سورة فصلت الآيات (٩-١١).

عباس: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ في النفخة الأولى، ثم ينفخ في الصور ﴿فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(١)، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾، وأما قوله: ﴿مَأْكَا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، وقال المشركون: تعالوا نقل: لم نكن مشركين، فختم على أفواههم فتنتطق أيديهم، فعند ذلك عُرف أن الله لا يكتُم حديثاً، وعنده ﴿يَوْمَ يَذِيذُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية^(٢).

وعن الربيع بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ت ١٣٩) قال: «قلت لأبي العالية قال الله: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾»^(٣)، وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْصِمُونَ﴾»^(٤)، فكيف هذا؟، قال: نعم، أما قوله: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾، فهو لاء أهل الشرك، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْصِمُونَ﴾، فهو لاء أهل القبلة يختصمون في مظالمهم»^(٥).

(١) سورة الزمر من الآية (٦٨).

(٢) سورة النساء من الآية (٤٢)، والأثر أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم السجدة (٦/ ٣٥)، وأخرجه مختصراً: الطبري في جامع البيان (٧/ ٤٢-٤٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٧٤).

(٣) سورة ق من الآية (٢٨).

(٤) سورة الزمر الآية (٣١).

(٥) الدر المنثور (٦/ ١٠٦) وعزاه لابن جرير وعبد بن حميد وابن المنذر، وهو في جامع البيان (٢٠/ ٢٠٢) مختصراً.

ومما جاء عن السلف في الفروق اللغوية:

ما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أتاه، فقال له: إني أخاف أن أكون قد هلكت؟، قال: وما ذاك؟، قال: أسمع الله يقول: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾^(١)، وأنا رجل شحيح، لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال ابن مسعود: ليس ذاك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، الشح أن تأكل مال أخيك ظلمًا، ذلك البخل، وبئس الشيء البخل^(٢).

وقال طاوس رضي الله عنه (ت ١٠٦): البخل أن يبخل الإنسان بما في يديه، والشح أن يشح على ما في أيدي الناس، يحب أن يكون له ما في أيدي الناس بالحل والحرام، لا يقنع^(٣).

وجاء عن عكرمة رضي الله عنه (ت ١٠٥) التفريق بين السد - بفتح السين - والسُد - بضم السين -، ففي قول الله تعالى: ﴿قَالُوا يَذَّابُنَا اللَّهُ يَوْمَئِذٍ خَالِدِينَ فِيهِ أَوْ نَكُونُ مِنْ الْخَالِدِينَ﴾^(٤)، قال عكرمة: "ما صنع الله فهو السُد، وما صنع الناس فهو السد"^(٥).

(١) سورة الحشر من الآية (٩).

(٢) جامع البيان (٥٢٩/٢٢) واللفظ له، ومصنف ابن أبي شيبة (٩٨/٩)، والمستدرك للحاكم (٤٩٠/٢)، والدر المنثور (١٩٦/٦).

(٣) جامع البيان (٢١/٧)، وتفسير القرآن لابن المنذر (٧٠٧/٢)، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩٥١/٣) مختصراً.

(٤) سورة الكهف آية (٩٤).

(٥) الدر المنثور (٢٥١/٤) وعزاه لابن أبي حاتم.

أما كلام العلماء في مصنفاتهم عن مباحث الفروق، فإنه لا يكاد يخلو كتاب في التفسير وعلوم القرآن الكريم من مبحث أو أكثر في الفروق القرآنية، لما سبق من أن مباحث الفروق متفرقة في شتى فنون علوم القرآن، ومن أبرز المصنفات التي تناولت مباحث الفروق الكتب المصنفة في توجيه المتشابه اللفظي، غير أنها تبحث في مجال واحد من مجالات الفروق القرآنية المتعلق بالفروق بين معاني الآيات المتشابهة.

والحديث في هذا المبحث سوف يقتصر على المصنفات المفردة في الفروق، وأغلبها المصنفات المفردة في الفرق بين الضاد والطاء، وقد أشبع علماء القراءات وعلماء العربية هذا النوع من الفروق بحثاً وتصنيفاً، ولهم فيه مؤلفات كثيرة^(١).

ونظراً لكثرة المؤلفات في الفرق بين الضاد والطاء في القرآن الكريم وغيره، وقد يصعب التمييز بينها لأن أغلبها مخطوط أو مفقود، وعليه سوف أذكر ما ثبت لدي أنه في الفرق بين الضاد والطاء في القرآن خاصة، وبخاصة المؤلفات التي ينص مؤلفوها على مصطلح الفروق.

ومما يلاحظ في المؤلفات التي ألفت في الفرق بين الضاد والطاء ما يأتي:

١ - عناية بعض المؤلفات ببيان الفرق في النطق بين الضاد والطاء، وبيان مخرج الضاد والفرق بينه وبين مخرج الطاء ؛ علاوة على ذكر الفروق

(١) وقد جمع جمال بن السيد الشايب ما وقف عليه من تراث العلماء في الفرق بين الضاد والطاء في كتابه: إتحاف الفضلاء في بيان من ألفت في الضاد والطاء.

في المعنى بين ما ينطق بالضاد وما ينطق بالطاء، مثل كتاب أبي عمرو والداني: الفرق بين الضاد والطاء في كتاب الله عز وجل.

٢ - اقتصرت بعض المؤلفات على نظم الكلمات التي وردت في القرآن الكريم بالطاء ؛ تسهياً لحفظها وللاحتراز من نطقها بالضاد، مثل كتاب: درة القارئ في الفرق بين الضاد والطاء في القرآن الكريم للرسعني.

٣ - تفاوت المؤلفون في الفرق بين الضاد والطاء في القرآن الكريم في ذكر المفردات التي وردت بالطاء، وسبب التفاوت أن بعضهم يرجع الكلمة إلى مادتها وأصلها، وبعضهم يرجعها إلى معناها، فيقع التفاوت، فبعض العلماء جعل: ظهر، والظهار، والظهير، والظهر، والظهير، في خمس مواد، وآخر جعلها تحت مادة واحدة^(١).

٤ - اهتمام تلك الكتب - غير المنظومة - بالاستشهاد بالقرآن الكريم على ما ينطق بالطاء وما ينطق بالضاد.

والكتب التي سأوردها هي في الفرق بين الضاد والطاء، سوى كتاب في الفرق بين التفسير والتأويل، وكتاب في الفرق بين القرآن والحديث القدسي، وثلاثة كتب في الفروق اللغوية.

وسوف أرتب المؤلفات بحسب الترتيب الزمني لوفاة مؤلفيها، الأقدم فالأقدم، مع وصف مختصر لما طبع منها، أما المخطوط فسوف أشير إلى رقمه ومكانه.

(١) انظر شرح أبيات الداني الأربعة في أصول طاءات القرآن (ص ٨).

والكتب هي:

- الفرق بين الضاد والظاء في كتاب الله عز وجل وفي المشهور من الكلام،
لأبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي القرطبي الداني
(ت ٤٤٤)، والكتاب مطبوع بتحقيق محسن جمال الدين، نشر دار
المعارف، ونشر أيضاً بتحقيق د. غانم قدوري الحمد، نشرته دار عمار
بالأردن^(١).

والكتاب كما يظهر من عنوانه ليس خاصاً بما جاء في القرآن الكريم،
فقد ذكر ما جاء في المشهور من كلام العرب، وقد عقد في أول الكتاب باباً:
في ذكر الفرق بين الضاد والظاء في المخرج، وحال كل واحدة منهما، وعقد
فيه فصلاً في اختصاص لغة العرب بحرف الظاء دون سائر الأهم، ثم عقد
باباً في الكلمات التي وردت في القرآن الكريم بالظاء، فذكر ثنتين وثلاثين
كلمة، وبين الفرق في المعنى بين ما ينطق بالظاء وما ينطق بالضاد، ثم عقد
باباً فيها ورد من حرف الظاء في المتعارف عليه من الكلام، فذكر أربعة
وخمسين مفردة دون الشاذ النادر، وبيّن معانيها، والفرق في المعنى بين ما
ينطق بالضاد والظاء، وقد اختصر الكلام في هذا الباب مقارنة بالباب
المتعلق بظاءات القرآن الكريم.

ولأبي عمرو الداني: أربعة أبيات في الظاءات القرآنية، وقد شرحها
أحد العلماء، والشرح مطبوع بتحقيق د. حاتم الضامن، وطريقة المؤلف في

(١) وله طبعة ثالثة بتحقيق د. حاتم الضامن، نشر دار البشائر بدمشق عام ١٤٢٧.

شرحه أنه يذكر بيت أبي عمرو الداني، ثم يتبعه بالشرح وبيان الفرق بين الضاد والطاء، مستشهداً على ما يذكره بالقرآن الكريم.

وهناك شرح لهذه الآيات الأربعة ينسب لأبي عمرو الداني نفسه، نشره د. محسن محمد جمال في مجلة البلاغ ببغداد^(١).

- وللداني - أيضاً - كتاب الطاءات في القرآن الكريم، حققه د. علي البواب، يقول د. غانم الحمد في مقدمة تحقيقه لكتاب: الفرق بين الضاد والطاء في كتاب الله عز وجل وفي المشهور من الكلام: "ويبدو أن هذا الكتاب مختصر من كتاب الفرق بين الضاد والطاء الذي نكتب له هذه المقدمة، فقد قال الداني في مقدمته: "أما بعد، فإني اختصرت في هذا الجزء ورود حرف الطاء خاصة في كتاب الله تعالى"^(٢)، ومعلوم أن كتاب الفرق بين الضاد والطاء في كتاب الله عز وجل وفي المشهور من الكلام يشمل ما ورد في القرآن الكريم، وما جاء في كلام العرب، كما هو ظاهر من عنوانه.

- منظومة في الفرق بين الضاد والطاء، لمحمد بن أحمد بن الحسين الفروزي الأواني (ت ٥٥٧)، مخطوط في مكتبة يهودا (برنستون) برقم (٤٠٧٦)، وعدد أوراقها أربع ورقات^(٣).

- طاءات القرآن الكريم، لأبي الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله

(١) انظر الفرق بين الضاد والطاء في كتاب الله عز وجل للداني، مقدمة د. غانم الحمد (ص ١٣).

(٢) (ص ١٤).

(٣) الأعلام (٥/ ٣١٧)، والفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (تجويد) (١/ ٦١).

التجبيي البرقي، متوفى في النصف الثاني من القرن الخامس، والكتاب مطبوع بتحقيق محمد سعيد المولوي، وقد شرح أبو الطاهر أربعة أبيات في ظاءات القرآن الكريم، نظمها أبو العباس أحمد بن عمار المهدي المقي (ت ٤٤٠)، قال أبو الطاهر: "هذه أبيات نظمها الشيخ أبو العباس أحمد بن عمار المقي - أيده الله - في جميع أجناس الظاءات ما سبق إليها، ليعول طالبوا معرفة الفرق بين الظاء والضاد في القرآن عليها"^(١)، وقد قام بشرح الأبيات والكلمات الظائية المشتملة عليها، وما يقابلها من حرف الضاد، مستشهداً على معانيها بالقرآن الكريم والحديث والشعر العربي، وقد بلغت الكلمات التي شرحها تسعاً وعشرين كلمة.

- ما وقع في القرآن الكريم من الظاء لأبي الربيع سليمان بن أبي القاسم التميمي السرقوسي، من علماء القرن السادس، والكتاب حققه د. حاتم الضامن^(٢).

وحققه - أيضاً - د. علي بن حسين البواب^(٣).

والكتاب رسالة مختصرة في شرح أبيات نظمها في ظاءات القرآن الكريم، وهي:

(١) ظاءات القرآن الكريم (ص ٣٥).

(٢) انظر نصوص محققة في علوم القرآن الكريم (ص ٢٩٩).

(٣) في مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء بالسعودية عدد

(٢١ ص ١٩٥)

ظَفِرْتُ بِحَظٍّ مِنْ ظُلُومٍ تَعَاظَمَتْ طَوَاهِرُهُ لِلنَّاطِرِ الْمُتَيَقِّظِ
ظَمِئْتُ فَلَمْ تُحْظَرْ عَلَيَّ ظِلَالُهَا فَظَاظَةَ أَلْفَاظٍ وَلَا غَيْظَ وَغَظٍ
ظُنُونٌ تَلْظِي لِلْكَظِيمِ شَوَاطِئُهَا تُغَلِّظُ عَتَبَ الظَّاعِنِ الْمُتَحَفِّظِ

وقد استشهد للكلمات التي يوردها بالقرآن الكريم، وعدد الكلمات

التي شرحها واحد وعشرون كلمة.

- المصباح في الفرق بين الضاد والطاء في القرآن العزيز نظماً ونشراً، لأبي العباس أحمد بن حماد بن أبي القاسم الحراني (ت ٦١٨)، مطبوع بتحقيق د. حاتم الضامن، وقد أبان المؤلف عن منهجه في كتابه في المقدمة، فقال: " نظرت في أصول طاءات القرآن، فوجدتها في اثنين وثلاثين أصلاً، وهذا أكثر ما جاء من الأصول، فنظمتها في أربعة أبيات من الشعر، وقدمت قبل الأربعة الحاوية للأصول عشرة أبيات، نبهت فيها على مخرج الضاد والطاء"، ثم قال بعد أن ذكر الأبيات: " لما جمعت أصول طاءات القرآن العظيم في هذه الأربعة الأبيات، جاءت على غير ترتيب كتاب الله عز وجل، فأحببت أن آتي بها على ترتيب ما جاء في الكتاب العزيز، الأول فالأول"^(١)، ثم شرع في ذكر أصول الطاءات مع شرحها، وبيان الفرق في المعنى بين ما ينطق بالطاء وما ينطق بالضاد.

ولما انتهى من شرحها قال: " وقد نظمت ما ذكرته من الأصول في قصيد من الشعر، مرتباً على ترتيب الأصول المذكورة"^(٢)، ثم ذكر الأبيات

(١) المقدمة (ص ١٣).

(٢) (ص ٢٢).

وبلغت أربعة وخمسين بيتاً.

- منظومة ظائية للفرق بين الظاء والضاد، لعلم الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي الشافعي (ت ٦٤٣)، مخطوط في التيمورية برقم (٣٦٥)^(١).
- درة القارئ في الفرق بين الضاد والطاء في القرآن الكريم، لعز الدين عبد الرزاق رزق الله الرسعني الجزري الحنبلي (ت ٦٦١).
- والكتاب مطبوع بتحقيق د. محمد بن صالح البراك، وهو منظومة في ثلاثة وثلاثين بيتاً، ذكر فيها تسعاً وعشرين مفردة، وقد جمعها في أول المنظومة في أربعة أبيات، ثم شرع في بيان الفرق بين معانيها نظماً، والأبيات الأربعة هي:

حَفِظْتُ لَفْظاً عَظِيماً الْوَعْظُ يُوقِظُ ظَمًا لَطَى وَشَوَاطِ الْحَظَرِ وَالْوَسَنِ
مَنْ يَكْظِمُ الْغَيْظَ يَظْفَرُ بِالظَّلَالِ يَظْعَنُ عَنِ الظُّلَمِ يَظْلُلُ رَاكِدَ السُّفْنِ
لَا تَنْظُرِ الظَّنَّ وَالْفَظَّ الْغَلِيظَ وَلَا تُظْهِرُهُ ظَهْرَ ظُهُورٍ تَخْطُ بِالْإِحْنِ
أَنْظُرُ تَظَاهِرَ فَمَنْ لَمْ يَنْتَظِرْ خَلِيَتْ عِظَامُهُ ظُفَرَ الظُّلَمَاءِ وَالْمِحْنِ

- قال في كشف الظنون: "هي أنفع ما صنف في الفرق بين الضاد والطاء، شرحها بعض القراء، وسماه: كاشف محاسن الغرة لطالب منافع الدرة"^(٢).
- قصيدة في الفرق بين الظاء والضاد في القرآن الكريم، لعلي بن أبي

(١) الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (التفسير وعلوم القرآن) (١/٢٤٨).

(٢) (١/٧٤٣).

- محمد الواسطي الديواني (ت ٧٤٣)، لها نسخة خطية في مكتبة عارف حكمت بالمدينة برقم (٣٩١٦/٤)^(١).
- عمدة القراء وعدة الإقراء، منظومة في الفرق بين الضاد والطاء في القرآن مع شرحها، لعبد الله بن أحمد بن علي بن الفصيح الهمداني الكوفي المقرئ (ت ٧٤٥)، مخطوط بمكتبة الدولة ببرلين تحت رقم (١٠٢٣٦)، وعدد أوراقها أربع ورقات^(٢).
- الفرق بين الضاد والطاء، لمحمد بن أحمد النجار الدمشقي الشافعي المقرئ (ت ٨٧١)، مخطوط بالظاهرية برقم (٥٩٨٧)، وعدد أوراقها أربع ورقات^(٣).
- الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي، ليحيى بن محمد بن مسعود التفتازاني (ت ٨٨٧)، له نسخة خطية بمكتبة أيا صوفيا برقم (٤٧٩٩/١٨) وهو رسالة قصيرة تقع في أربع ورقات^(٤).
- التفصيل في الفرق بين التفسير والتأويل، لحامد بن علي بن إبراهيم العمادي الدمشقي الحنفي (ت ١١٧١)، والكتاب له نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم (٣٤٤٤) ضمن مجموع، وعدد أوراقها خمس

(١) إتحاف الفضلاء (١٢٥).

(٢) ولهذا الكتاب نسخ أخرى، انظرها في الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (التجويد) (١٢٧/١)، وانظر الأعلام (٦٨/٤).

(٣) الأعلام (٣٣٤/٥)، والفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (التجويد) (٢٣٩/١).

(٤) انظر الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (التفسير وعلوم القرآن) (٥٠٥/١).

ورقات^(١).

- الفرق بين القرآن العظيم والأحاديث القدسية، لعبد الكريم بن أحمد بن علوان الشراباتي الحلبي الشافعي (ت ١١٧٨) ^(٢).
- النبراس الوضاء في الفرق بين الضاد والطاء، لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد العباسي الهاشمي الحنفي (ت ١٣٨٩)، مخطوط في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية برقم (١٥٦٨)، ويقع في ست عشرة صفحة^(٣).

- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، لشيخنا الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع، والكتاب في أصله رسالة ماجستير، وقد جعله المؤلف في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في الترادف والفروق عند علماء العربية، وذكر فيه تعريف الترادف ومذاهب القائلين بالترادف والقائلين بالفروق.

وبالباب الثاني: في الترادف عند الأصوليين وذكر فيه مذاهبهم فيه، وذكر في هذا الباب أسباب الترادف.

وبالباب الثالث: في الترادف والفروق عند علماء التفسير، وذكر فيه مذاهب العلماء في وجود الترادف في القرآن الكريم، وختم هذا الباب بذكر أمثلة

(١) انظر: إيضاح المكنون (١/ ٣١١١)، والأعلام (٢/ ١٦٢)، والفهرس الشامل للتراث العربي

الإسلامي المخطوط (التفسير وعلوم القرآن) (٢/ ٧٦٧).

(٢) فهرس الفهارس (٢/ ١٠٧٦)، والأعلام (٤/ ٥١).

(٣) انظر الأعلام (٦/ ١٩٩).

تطبيقية من القرآن الكريم لألفاظ ظاهرها الترادف، وقام بدراستها محتكماً إلى أسلوب القرآن الكريم وبيانه، وقد ذكر أربعة عشر مثلاً فقط، وهذه الأمثلة قليلة مقارنة بما يذكره المفسرون، والسبب - كما يبدو - أن الدراسة في معظمها دراسة نظرية لقضية الترادف والفروق عند علماء العربية والأصوليين والمفسرين وموقفهم منها، وقد خلص في نهاية البحث إلى نتيجة مفادها أنه " يتأكد التحذير من إهمال الفروق بين الألفاظ، أو الغفلة عنها لما يعنيه ذلك من فقدان الدقة في التعبير والفهم، ولما يؤدي إليه من الوقوع في الأخطاء والأغلاط بسبب استعمال الكلمات في غير محلها الخاص بها، فينبغي منع الترادف ما أمكن"^(١).

- دقائق الفروق اللغوية وأثرها في البيان القرآن، رسالة دكتوراه أعدها محمد ياسر الدوري، والرسالة في أغلبها دراسة تطبيقية للفروق اللغوية في القرآن الكريم، وجعلها في أربعة فصول؛ الفصل الأول في بيان أثر الفروق في التعبير القرآني، وتكلم فيه عن تعريف الفروق اللغوية والخلاف فيها، وأثر السياق القرآني في كشف الفرق، أما الفصول الثلاثة الأخرى فهي في الدراسة التطبيقية، وقد استطرد الباحث في ذكر الفروق اللغوية:

ففي الفصل الثاني: ذكر فروق الألفاظ، مثل: الفرق بين الإنس والناس، وبين القلب والفؤاد، وبين الكأس والكوب، وبين الإملاق والفقر.

(١) الفروق اللغوية (ص ٣٠٦).

وفي الفصل الثالث: ذكر فروق الأبنية، مثل: الفرق بين سقى وأسقى، وبين مشته ومتشابه، وبين أسرى وأسارى، وبين نعمة ونعمة.

وفي الفصل الرابع: ذكر فروق الألفاظ المتقاربة الأصوات، مثل: الفرق بين الهز واللمز، وبين الأَزَّ والهَزَّ، وبين الرجز والرجس، وبين الوقر والوَقَر.

- الفروق اللغوية بين ألفاظ العلم ومراتبه ووسائله في القرآن الكريم، بحث من إعداد د. محمود الأطرش، والبحث يتكلم عن الألفاظ المتعلقة بالعلم بمراتبه المختلفة مثل: العلم والمعرفة والإدراك والفهم والفقه والتفكير والتدبر ونحوها، وقصد الباحث بيان دقة القرآن في وضع هذه الألفاظ في أماكنها بحيث لو استبدلت كلمة بأخرى لتغير المعنى المقصود من الآية، مما يؤكد - كما ذكر الباحث - إعجاز القرآن البياني في استخدام كل لفظة في مكانها اللائق بها، ولا يمكن تأكيد ذلك إلا ببيان الفروق اللغوية بين الألفاظ المتقاربة.

المبحث السادس

أثر إهمال الفروق في التفسير وعلوم القرآن

تقدم الحديث عن أهمية معرفة الفروق القرآنية، والفوائد المترتبة على إدراكها، وبها يتبين أن إهمال الفروق سواء كان ذلك الإهمال في معرفة الفروق بين الكلمات القرآنية ومدلولاتها، أو الفرق بين المصطلحات ونحو ذلك يؤدي إلى الخلل في العلم والعمل.

والخلل الذي يحدث بسبب إهمال الفروق له صور عديدة، سأكتفي ببعض منها:

١ - الخلل في الاعتقاد، فالغفلة عن الفرق بين معاني الآيات أدى ببعض الناس إلى اعتقادات باطلة، ومن أمثلته عدم التفريق بين الإدراك والرؤية أدى ببعض الناس أن يفهم من قول الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(١) نفي رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وجعلها بمنزلة قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِيْ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِيْ﴾^(٢)، فمعنى قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي : لا تراه، وهذا بعيد، فهناك فرق بين

(١) الأنعام من الآية (١٠٣).

(٢) الأعراف من الآية (١٤٣)، وهذه الآية لا تدل على نفي رؤية المؤمنين لربهم في الجنة، بل إنها تدل على ثبوتها من وجوه عديدة، انظرها في: شرح العقيد الطحاوية لابن أبي العز (٢١٣/١).

الإدراك والرؤية " لأن الشيء قد يدرك الشيء ولا يراه، كما قال جل ثناؤه مخبراً عن قيل أصحاب موسى ﷺ لموسى حين قُرب منهم أصحاب فرعون: ﴿ فَلَمَّا تَرَوْا الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ ﴾^(١)، لأن الله قد كان وعد نبيه موسى ﷺ أنهم لا يُدْرَكُون، لقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾^(٢)، قالوا: فإن كان الشيء قد يرى الشيء ولا يدركه، ويدركه ولا يراه، فكان معلوماً بذلك أن قوله: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾، من معنى: لا تراه الأبصار بمعزل، وأن معنى ذلك: لا تحيط به الأبصار، لأن الإحاطة به غير جائزة، فالمؤمنون وأهل الجنة يرون ربهم بأبصارهم، ولا تدركه أبصارهم، بمعنى: أنها لا تحيط به، إذ كان غير جائز أن يوصف الله بأن شيئاً يحيط به، ونظير جواز وصفه بأنه يُرى ولا يُدْرَك، جواز وصفه بأنه يعلم ولا يحاط بعلمه، وكما قال جل ثناؤه: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾^(٣)..... وكما جاز أن يعلم الخلق أشياء، ولا يحيطون بها علماً، كذلك جائز أن يروا ربهم بأبصارهم ولا يدركوه بأبصارهم، إذ كان معنى "الرؤية" غير معنى "الإدراك"، ومعنى "الإدراك" غير معنى "الرؤية"، وأن

(١) الشعراء الآية (٦١).

(٢) سورة طه الآية (٧٧).

(٣) سورة البقرة من الآية (٢٥٥).

معنى "الإدراك"، إنما هو الإحاطة ^(١).

ويقول الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: "أن المنفي في هذه الآية الإدراك المشعر بالإحاطة بالكنه، أما مطلق الرؤية فلا تدل الآية على نفيه، بل هو ثابت بهذه الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة، واتفاق أهل السنة والجماعة على ذلك .

وحاصل هذا الجواب : أن الإدراك أخص من مطلق الرؤية ؛ لأن الإدراك المراد به الإحاطة، والعرب تقول: رأيت الشيء وما أدركته، فمعنى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ لا تحيط به، كما أنه تعالى يعلمه الخلق، ولا يحيطون به علماً .

وقد اتفق العقلاء على أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، فانتفاء الإدراك لا يلزم منه انتفاء مطلق الرؤية، مع أن الله تعالى لا يدرك كنهه على الحقيقة أحد من الخلق ^(٢).

٢ - عدم التفريق بين التفسير والتدبر، أدى ببعض الناس إلى الامتناع عن تدبر القرآن الكريم، وقال بعضهم بعدم جواز التدبر إلا للمتخصصين في علم التفسير، حاملاً الوعيد الوارد فيمن فسر القرآن بلا علم على تدبر القرآن الكريم، مع الفرق البين بين تفسير القرآن وتدبره، فالله جل ذكره أمر الناس جميعاً بتدبر القرآن، يقول الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ عند تفسير قول الله تعالى:

(١) جامع البيان: (٩/ ٤٦٠).

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب (ص ٩٢).

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾^(١) في معرض رده على من زعم من متأخري الأصوليين أن التدبر لا يجوز إلا للمجتهد خاصة: "ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس، ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، ليس أحد منهم مستكماً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلاً، فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون - بالإصطلاح الأصولي - لما وبخ الله الكفار، وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى، ومعلوم أن من المقرر في الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، وإذا فدخل الكفار والمنافقين في الآيات المذكورة قطعي، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المجتهدين لما أنكر الله على الكفار عدم تدبرهم كتاب الله، وعدم عملهم به، وقد علمت أن الواقع خلاف ذلك قطعاً"^(٢).

وقد سبب هذا الفهم القاصر للمراد بالتدبر إعراض بعض الناس عن تدبر القرآن، واقتصر كثير منهم على التلاوة المجردة فحسب، فلم ينتفعوا بمواعظ القرآن، وما فيه من الحكم والآداب والأحكام، فوقعوا في صورة من صور هجر القرآن، يقول الشنقيطي: "ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك

(١) سورة محمد الآية (٢٤).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٤٥٩ - ٤٦٠).

معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات، إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكّا النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(١).

٣ - عدم التفريق بين النسخ والتخصيص أدى بالبعض إلى الحكم بنسخ بعض الآيات مع إمكانية القول بتخصيصها، وإعمال النص أولى من إهماله، ومن فروعه عدم التفريق بين مفهوم النسخ عند السلف ومفهومه عند المتأخرين، وترتب عليه أن حكم البعض بتخطئة بعض السلف في حكمه بنسخ بعض الآيات بناءً على مفهوم المتأخرين للنسخ.

٤ - ومن الآثار المترتبة على إهمال الفروق تغيير معاني الآيات وتبديلها، فعدم التفريق بين الكلمات التي تنطق بالظاء والكلمات التي تنطق بالضاد أدى إلى الإخلال بالنطق وترتب عليه الإخلال بالمعنى، وقد مر تأكيد أبي عمرو الداني على أهمية إخراج حرف الضاد من مخرجه وإيفائه حقه من الاستطالة ولا سيما فيما يفترق معناه من الكلام، ثم ذكر جملة من الأمثلة، وأكد أن الإخلال بالنطق يؤدي إلى اشتباه الألفاظ وتغير المعاني وفساد المراد^(٢).

(١) سورة الفرقان الآية (٣٠)، وانظر كلام الشيخ في أضواء البيان (٧/٤٥٨)، وقد ذكر ابن القيم في الفوائد (ص ١٤٠) أنواع هجر القرآن، فذكر منها: "هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه".

(٢) انظر (ص ١٨).

الخاتمة

تبين من خلال البحث أهمية الفروق في التفسير وعلوم القرآن الكريم، وتشعب موضوعاته، ومن أهم النتائج والتوصيات التي خرجت بها من هذا البحث ما يأتي:

١- اهتمام العلماء بعلم الفروق على اختلاف فنونهم وتنوع تخصصاتهم، وقد أخذت جانباً كبيراً من حديثهم.

٢- أهمية معرفة الفروق القرآنية لأثرها في فهم القرآن فهماً سليماً، وأثرها في إظهار عظمتها والذب عنه ودفع شبه الطاعنين، وكذا أثرها في بيان إعجازه من خلال إبراز دقة الأسلوب القرآني، وبيان الفروق الغامضة بين الآيات المتشابهة.

٣- تبين من خلال الدراسة أن بعض مباحث الفروق لا أثر لها في معاني الآيات، لكن لها أثر في جوانب أخرى، كما تقدم في الفرق بين الإدغام والإخفاء.

٤- تعدد مجالات الفروق القرآنية وعدم اقتصارها على مجال واحد، وقد ذكرت منها: الفروق اللغوية، والفروق الأسلوبية، والفروق اللفظية، والفروق الاصطلاحية.

٥- المؤلفات في الفروق القرآنية عديدة، والسمة الغالبة عليها جمع الفروق، وأغلبها في الفرق بين الضاد والظاء.

٦- أهمية العناية بجمع الفروق بحسب مجالاتها المختلفة، وقد ظهر لي أنه لم يلق العناية الكافية من قبل العلماء والباحثين سوى ما يختص

بالفروق بين الظاء والضاد، إذ أكثر الكتب المفردة في الفروق القرآنية هي في الفرق بين الضاد والطاء، وسائر الفروق متفرقة في كتب التفسير وعلوم القرآن وكتب اللغة وغيرها، وحبذا لو انبرى بعض الباحثين فجمع ما يتعلق بالمصطلحات، وجمع آخر ما يتعلق بالفروق الأسلوبية.

٧- يمكن معالجة كثرة مباحث بعض المجالات بأن تدرس في نطاق محدد، مثل دراسة الفروق الأسلوبية في سورة محددة، أو جزء معين، أو دراسة الفروق الاصطلاحية من خلال كتاب محدد، ككتاب البرهان للزركشي أو الإتقان للسيوطي.

٨- ومما يمكن أن يدرس هنا اهتمام بعض المفسرين ببعض مجالات الفروق القرآنية وكيفية تناوله لها، فقد لاحظت اهتمام الماوردي : في تفسيره النكت والعيون بالفروق اللغوية، ووقفت فيه على ما يربو على ستين موضعاً، وهي جديرة بالدراسة والتمحيص، وبيان علاقتها بفهم الآيات، وبمثل هذه الدراسات الجادة يجمع شتات الموضوع، ويلم ما تفرق منه، ثم بعد الجمع تحقق الفروق وتدرس دراسة وافية، فتبين الفروق المعتمدة الصحيحة، والفروق الباطلة الفاسدة.

٩- ينبغي تناول الفروق بقدر الحاجة وبما يدفع الالتباس، ويزيل الإشكال، ويرفع الاشتباه، والحذر من الاندفاع والتوسع في البحث عن الفروق وتوجيهها، فقد يجبر ذلك إلى التكلف.

هذا ما تيسر تدوينه في هذا الفن، وأحسب أن الموضوع ما زال بحاجة إلى مزيد بحث وتأمل، وأرجو أن أكون وفقت فيما كتبت، ومهدت الطريق، وفتحت الباب لمن أراد الولوج، وجمع الفروق ودراستها؛ كل في مجاله.

والله ولي التوفيق وصلى وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

- ١ - الإبانة عن معاني القراءات، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق د. محيي الدين رمضان، دار المأمون للتراث دمشق، الطبعة الأولى عام ١٣٩٩.
- ٢ - إبراز المعاني من حرز الأماني، لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، تحقيق عبد الرحمن عطوه عوض، دار الكتب العلمية.
- ٣ - إتحاف الفضلاء في بيان من ألف في الضاد والطاء، جمال بن السيد الشايب، مكتبة السنة بالقاهرة، الطبعة الأولى عام ١٤٢٣.
- ٤ - الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، مطبعة الحلبي بمصر، الطبعة الرابعة عام ١٣٩٨.
- ٥ - الإحكام في أصول الأحكام، لسيف الدين علي بن أبي علي الأمدي، تعليق عبد الرزاق عفيفي، الطبعة الأولى عام ١٣٨٧.
- ٦ - أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبد الله المالكي (ابن العربي)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثالثة عام ٢٠٠٣.
- ٧ - أساس البلاغة، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار صادر - بيروت عام ١٣٩٩.
- ٨ - الأشباه والنظائر، لجلال الدين السيوطي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الأخيرة ١٣٧٨.
- ٩ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي،

- بإشراف بكر أبو زيد، نشر مجمع الفقه الإسلامي بجدة ودار عالم الفوائد، الطبعة الأولى عام ١٤٢٦.
- ١٠- إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، مطبوع بحاشية الإتيقان للسيوطي "مرجع سابق".
- ١١- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ببيروت، الطبعة الخامسة عشرة عام ٢٠٠٢م.
- ١٢- أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم، د. مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، عام ١٤٢٣.
- ١٣- إيضاح الدلائل في الفرق بين المسائل، عبد الرحيم بن عبد الله الزيراني، تحقيق عمر السبيل، دار ابن الجوزي بالدمام، الطبعة الأولى ١٤٣١.
- ١٤- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، لإسماعيل باشا البغدادي، دار العلوم الحديثة ببيروت.
- ١٥- البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١٣.
- ١٦- بحوث في أصول التفسير ومناهجه د. فهد الرومي ن مكتبة التوبة بالرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٦.
- ١٧- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبد الفتاح القاضي، دار الكتاب العربي - بيروت.

- ١٨ - البرهان في توجيه متشابه القرآن لتاج القراء محمود بن حمزة الكرمانى، تحقيق عبد القادر عطا، دار الفضيحة.
- ١٩ - البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الزركشى، تحقيق د. يوسف بن عبد الرحمن المرعشلى وزميليه، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية عام ١٤١٥.
- ٢٠ - بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات: لأبي العباس أحمد بن عمار المهدي، تحقيق د. حاتم الضامن، مطبوع ضمن كتاب نصوص محققة في علوم القرآن، نشر وزارة التعليم العالي بالعراق عام ١٤١١.
- ٢١ - البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق د. غانم الحمد، نشر مركز المخطوطات والتراث والوثائق بالكويت، الطبعة الأولى ١٤١٤.
- ٢٢ - التاصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل، لبكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤١٣.
- ٢٣ - التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتيقان، لطاهر الجزائري الدمشقي، تحقيق د. عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة الثالثة، عام ١٤١٢.
- ٢٤ - التحديد في الإتيقان والتجويد، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق د. غانم الحمد، دار عمار بالأردن، الطبعة الأولى ١٤٢١.
- ٢٥ - التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، نشر الدار التونسية بتونس، عام ١٩٨٤م.

- ٢٦- التسهيل لعلوم التنزيل: لمحمد بن أحمد بن جزى الكلبي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١٥.
- ٢٧- التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٠٧.
- ٢٨- تفسير ابن أبي حاتم؛ أبي محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي، تحقيق أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز بمكة، الطبعة الثالثة، عام ١٤٢٤.
- ٢٩- تفسير عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١١.
- ٣٠- تفسير القرآن، لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر، تحقيق د. سعد السعد، دار المآثر - المدينة، الطبعة الأولى عام ١٤٢٣.
- ٣١- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق عبد العزيز غنيم وآخرين، دار الشعب - القاهرة، وطبعة أخرى بتحقيق سامي السلامة، دار طيبة - الرياض، الطبعة الثانية عام ١٤٢٠.
- ٣٢- تفسير القرآن الكريم، أصوله وضوابطه د. علي العبيد، مكتبة التوبة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨.
- ٣٣- التفسير الكبير، لفخر الدين محمد بن عمر البكري الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة عام ١٤٢٠.
- ٣٤- التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة

بمصر.

٣٥- التمهيد في علم التجويد لشمس الدين ابن الجزري، تحقيق د. غانم الحمد، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الرابعة ١٤١٨.

٣٦- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، طبعة عام ١٣٨٤.

٣٧- التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق أوتوبرتزل، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة عام ١٤٠٦.

٣٨- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق د. عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٢٣.

٣٩- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦.

٤٠- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار الشعب - القاهرة.

٤١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار هجر - القاهرة، الطبعة الأولى عام ١٤٢٢.

٤٢- خصائص القرآن الكريم: د. فهد الرومي، الطبعة الخامسة عام ١٤١٠، بدون ناشر.

٤٣- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف (السمين

- الحلبي)، تحقيق د. أحمد الخراط، دار القلم بدمشق.
- ٤٤ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، دار المعرفة بيروت، مصورة عن الطبعة الميمنية بمصر عام ١٣١٤.
- ٤٥ - درء تعارض العقل والنقل، لأبي العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تیمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الطبعة الثانية.
- ٤٦ - دراسات في علوم القرآن الكريم د. فهد الرومي، الطبعة الخامسة عشرة ١٤٢٨.
- ٤٧ - دراسة المتشابه اللفظي من أي التنزيل في كتاب ملاك التأويل، د. محمد فاضل السامرائي، دار عمار بالأردن، الطبعة الثانية عام ١٤٣٠.
- ٤٨ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لأبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة بمصر، الطبعة الثانية عام ١٣٨٥.
- ٤٩ - درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد الأصبهاني (الخطيب الإسكافي)، تحقيق د. محمد مصطفى آيدن، نشر معهد البحوث بجامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٢٢.
- ٥٠ - درة القارئ في الفرق بين الضاد والطاء في القرآن الكريم، عبد الرزاق الرسعني، تحقيق د. محمد البراك، دار ابن الجوزي بالدمام، الطبعة الثانية عام ١٤٢٩.
- ٥١ - دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: لمحمد الأمين الشنقيطي،

- مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، الطبعة الأولى عام ١٤١٧.
- ٥٢- دقائق الفروق اللغوية وأثرها في البيان القرآن، رسالة دكتوراه أعدها محمد ياس الدوري، من كلية التربية بجامعة بغداد، عام ١٤٢٦.
- ٥٣- دلائل الإعجاز لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة ٢٠٠٤.
- ٥٤- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دار عمار بالأردن، الطبعة الثالثة عام ١٤١٧.
- ٥٥- الروح، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، مكتبة محمد صبيح بالقاهرة، عام ١٣٩٣.
- ٥٦- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار النبلاء ببيروت.
- ٥٧- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى عام ١٣٨٤.
- ٥٨- شرح أبيات الداني الأربعة في أصول ظاءات القرآن، مؤلف مجهول، تحقيق د. حاتم الضامن، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى عام ١٤٢٤.
- ٥٩- شرح الأصول من علم الأصول، لمحمد بن صالح العثيمين، نشر دار البصيرة بمصر.
- ٦٠- شرح التصريح على التوضيح، لخالد بن عبد الله الأزهرى، تحقيق

- محمد السود، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٢١.
- ٦١- شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، لشهاب الدين القرافي، دار الفكر بيروت عام ١٤٢٤.
- ٦٢- شرح العقيدة الأصفهانية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق سعيد محمد، مكتبة الرشد بالرياض، الطبعة الأولى عام ١٤٢٢.
- ٦٣- شرح العقيدة الطحاوية، لعلي بن علي بن أبي العز الحنفي، تحقيق د. عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط، نشر مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى عام ١٤٠٨.
- ٦٤- شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، لمحمد بن صالح بن عثيمين، دار التيسير، الطبعة الأولى عام ١٤٢٦.
- ٦٥- شرح الكوكب المنير، لابن النجار محمد بن أحمد الفتوحي، تحقيق نزيه حماد الزحيلي، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة، عام ١٤٠٠.
- ٦٦- شرح مختصر الروضة، لأبي الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق د. عبد الله التركي، نشر وزارة الشؤون الإسلامية بالسعودية، الطبعة الثانية عام ١٤١٩.
- ٦٧- الصاحب في فقه اللغة العربية، لأبي الحسين أحمد بن فارس الرازي، تحقيق د. عمر الطباع، مكتبة المعارف بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١٤.
- ٦٨- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة

- الإسلامية بتركيا، نشر عام ١٩٧٩م
- ٦٩- صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية - تركيا.
- ٧٠- ظاءات القرآن الكريم، لأبي العباس أحمد بن عمار المقرئ، شرح أبي الطاهر إسماعيل بن أحمد التجيبي، تحقيق محمد بن سعيد المولوي، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١١.
- ٧١- غاية المريد في علم التجويد، لعطية قابل نصر، مكتبة الحرمين بالرياض، الطبعة الثانية عام ١٤١٠.
- ٧٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، أشرف على طبعه محب الدين الخطيب، الطبعة السلفية - القاهرة.
- ٧٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لأبي عبد الله محمد بن علي الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الثانية عام ١٣٨٣.
- ٧٤- الفرق بين الضاد والظاء في كتاب الله عز وجل وفي المشهور من الكلام، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق د. غانم الحمد، دار عمار بالأردن، الطبعة الأولى عام ١٤٢٨.
- ٧٥- الفروق، لأبي العباس أحمد بن إدريس القرافي، دار عالم الكتب بيروت، مصورة عن طبعة دار إحياء الكتب العربية عام ١٣٤٧.
- ٧٦- الفروق لأبي عبد الله السامري، تحقيق محمد اليحيى، دار الصميعي

- باليضا، الطبعة الأولى عام ١٤١٨.
- ٧٧- الفروق الفقهية والأصولية د. يعقوب الباحسين، مكتبة الرشد
باليضا، الطبعة الثانية عام ١٤٣٠.
- ٧٨- الفروق في مباحث الكتاب والسنة عند الأصوليين، هشام السعيد،
رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية الشريعة
باليضا، عام ١٤٢٣.
- ٧٩- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، تحقيق محمد سليم، دار العلم
بالقاهرة.
- ٨٠- الفروق اللغوية بين ألفاظ العلم ومراتبه ووسائله في القرآن الكريم،
د. محمود أحمد الأطرش، بحث منشور في مجلة معهد الإمام الشاطبي
للدراسات القرآنية بجدة، العدد الثالث، ١٤٢٨.
- ٨١- الفروق اللغوية وأثرها في التفسير، د. محمد الشايع، دار العبيكان
باليضا الطبعة الأولى عام ١٤١٤.
- ٨٢- الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (تجويد)، نشر
المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمان، شعبان ١٤٠٦
- ٨٣- الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط "التفسير
وعلومه"، نشر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمان عام
١٤٠٩.
- ٨٤- فهرس الفهارس والأثبات، لعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق
إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ببيروت، الطبعة الثانية عام

١٤٠٢.

٨٥- الفهرست، لأبي الفرج محمد بن إسحاق بن النديم الوراق، تحقيق د.

يوسف طويل، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى عام ١٤١٦.

٨٦- الفوائد لشمس الدين ابن قيم الجوزية، نشر المؤسسة السعيدية

بالرياض عام ١٩٨٢م.

٨٧- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي،

مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧.

٨٨- الكافية في الجدل لأبي المعالي الجويني، تحقيق د. فوقية محمود، مطبعة

عيسى البابي الحلبي بمصر، عام ١٣٩٩.

٨٩- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، لمحمد علي التهانوي، تحقيق د.

علي دحروج ورفاقه، مكتبة لبنان بيروت، الطبعة الأولى عام

١٩٩٦م.

٩٠- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لمصطفى بن عبد الله

المشهور بحاجي خليفة، دار العلوم الحديثة - بيروت، مصورة عن

طبعة استنبول عام ١٣٦٠.

٩١- القراءات القرآنية لعبد الحليم قابة، دار الغرب الإسلامي بيروت

الطبعة الأولى عام ١٩٩٩.

٩٢- القراءات وأثرها في التفسير والأحكام: د. محمد عمر بازمول، دار

الهجرة بالرياض، الطبعة الأولى عام ١٤١٧.

٩٣- لسان العرب، لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور، تحقيق عبد الله

- علي الكبير وزميليه، دار المعارف - مصر.
- ٩٤ - لطائف الإشارات لفنون القراءات، لشهاب الدين القسطلاني، تحقيق عامر عثمان، ود. عبد الصبور شاهين، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر، نشر عام ١٣٩٢.
- ٩٥ - مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، مكتبة المعارف الرياض، الطبعة الأولى عام ١٤١٣.
- ٩٦ - المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية، د. صالح عبد الله الشري، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى، عام ١٤٢١.
- ٩٧ - مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء بالسعودية عدد (٢١) عام ١٤٠٨.
- ٩٨ - مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، تصدر عن مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي بجدة، العدد الثالث، عام ١٤٢٨.
- ٩٩ - مجموع الفتاوى، لأبي العباس أحمد بن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة عام ١٤١٦.
- ١٠٠ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق الرحالة الفاروق وآخرين، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر، الطبعة الثانية عام ١٤٢٨.

- ١٠١ - المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لعبد القادر أحمد بن مصطفى (ابن بدران)، المطبعة المنيرية بمصر.
- ١٠٢ - المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لشهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي، تحقيق طيار قولاج، دار صادر بيروت عام ١٣٩٥.
- ١٠٣ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وزميليه، مكتبة دار التراث بالقاهرة، الطبعة الثالثة.
- ١٠٤ - المستدرک على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري "الحاكم"، دار الكتاب العربي بيروت، مصورة عن الطبعة الهندية عام ١٣٣٥.
- ١٠٥ - المصنف، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق مختار الندوي، الدار السلفية - بومباي بالهند، الطبعة الأولى عام ١٤٠٠.
- ١٠٦ - المصباح في الفرق بين الضاد والطاء في القرآن العزيز نظماً ونثراً، لأبي عباس أحمد بن حماد الحراني، تحقيق د. حاتم الضامن، دار البشائر بدمشق، الطبعة الأولى عام ١٤٢٤.
- ١٠٧ - معالم التنزيل، لمحيي السنة الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر وزميليه، نشر دار طيبة بالرياض عام ١٤٠٩.
- ١٠٨ - معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس الرازي، تحقيق د. محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الأولى عام

١٤٢٢.

١٠٩- المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وآخرين، المكتبة الإسلامية بتركيا، الطبعة الثانية.

١١٠- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت، الطبعة الثانية عام ١٤١٨.

١١١- مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر د. مساعد الطيار، دار ابن الجوزي بالدمام، الطبعة الثانية عام ١٤٢٧.

١١٢- مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، د. مساعد الطيار، دار المحدث - الرياض، الطبعة الأولى عام ١٤٢٥.

١١٣- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، لابن الزبير الغرناطي، تحقيق د. محمود أحمد، دار النهضة العربية ببيروت، عام ١٤٠٥.

١١٤- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية بمصر.

١١٥- منهج الاستنباط من القرآن الكريم، فهد الوهبي، نشر مركز الدراسات بمعهد الشاطبي بجدة، الطبعة الأولى عام ١٤٢٨.

١١٦- الموسوعة الفقهية الكويتية، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الأولى عام ١٤١٤.

١١٧- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، لأبي جعفر أحمد بن محمد

- النحاس، تحقيق شعبان محمد إسماعيل، عالم الفكر بالقاهرة، الطبعة الأولى عام ١٤٠٧.
- ١١٨ - النسخ في القرآن الكريم، د. مصطفى زيد، دار البشر بالقاهرة، الطبعة الثانية عام ١٤٢٨.
- ١١٩ - النشر في القراءات العشر، لأبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، تحقيق علي الضباع، دار الكتب العلمية بيروت.
- ١٢٠ - النكت والعيون، لأبي الحسين علي بن محمد الماوردي، مراجعة عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية عام ١٤٢٨.
- ١٢١ - الواضح في أصول الفقه: لأبي الوفاء علي بن عقيل الحنبلي، تحقيق د. عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٢٠.

تدبر القرآن الكريم

مفهومه . أساليبه . أسبابه . آثاره

إعداد

د. فهد بن مبارك بن عبدالله الوهبي

د. فهد بن مبارك بن عبدالله الوهبي

- وكيل عمادة شؤون الطلاب للنشاط الطلابي بجامعة طيبة بالمدينة المنورة.
- حصل على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بأطروحته (منهج الاستنباط من القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه في الكتاب والسنة من جامعة أم القرى بأطروحته: (المسائل المشتركة بين علوم القرآن وأصول الفقه وأثرها في التفسير).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

فقد اختصت هذه الأمة - والله الحمد - بمنهج فريد في ضبط العلوم: تأصيلاً، وتفصيلاً، وتفریعاً، وتدقيقاً، وتصنيفاً، وتدريساً.

وعلمائنا - رحمهم الله - أحكموا التأصيل، وأحسنوا القول في التفصيل، فكان منهجهم في كتابة العلوم منهجاً فريداً، حقيقاً بالإعجاب، والإكبار، ونحن في هذه العصور نتلمس في صفحات ذلك التراث الضخم، ما يؤلف دراسةً حديثةً جامعةً للمتشابهات والمتفرقات منه.

ومن تلك المواضيع الحرية بالدراسة والبحث والتأصيل؛ موضوع تدبر القرآن الكريم، الذي هو بحاجة للمزيد من الأبحاث والدراسات التي يمكن أن تؤسس ذلك المنهج الصحيح لتدبر القرآن الكريم. وتدبر القرآن واجب على الأمتين: أمة الدعوة، وأمة الاستجابة.

وقد وردت الأدلة العامة الدالة على ذلك كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا

يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢)

[النساء] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤)

[محمد]، وقال جل وعلا: ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ

﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿كُنْتُ أَنْزِلُهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذْكُرُوا عَايَتِهِ

وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٩١) [ص]. وقال جل وعلا: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى

جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ، خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ [الحشر].

قال القرطبي: "حُتَّ عَلَى تَأْمُلِ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ التَّدْبِيرِ، فَإِنَّهُ لَوْ خُوِطِبَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْجِبَالُ - مَعَ تَرْكِيبِ الْعَقْلِ فِيهَا - لَانْقَادَتْ لِمَوَاعِظِهِ، وَلَرَأَيْتَهَا - عَلَى صَلَابَتِهَا وَرِزَانَتِهَا - خَاشِعَةً مُّتَصَدِّعَةً، أَيُّ: مُتَشَقِّقَةً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ" (١).

والمؤمنون بفضل الله تعالى يتأملون آيات الله فتتشعر جلودهم خوفاً من الوعيد، ثم تلين جلودهم عند سماع الوعد.

وأما الكافرون فإنهم أعرضوا عن التدبر فكانوا كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل].

وفي هذه الدراسة المتواضعة حاولت إبراز بعض الجوانب المهمة في تأصيل منهجية التدبر، أسأل الله تعالى أن تكون متقبلة لديه، خالصة لوجهه، إنه جواد كريم.

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٨ / ٤٤).

ملهيّد

مفهوم التدبر

التدبر في اللغة:

تدور مادة الكلمة حول أواخر الأمور وعواقبها وأدبارها، فالتدبر هو: النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه.

قال الزجاج (ت: ٣١١ هـ): "التدبر: النظر في عاقبة الشيء" ^(١).

وقال ابن فارس (ت: ٣٩٥ هـ): "دبر: الدال والباء والراء. أصل هذا الباب أن جُلّه في قياس واحد، وهو آخر الشيء" ^(٢).

وقال الجرجاني (ت: ٨١٦ هـ) في تعريف التدبر: "عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكير، إلا أن التفكير تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب" ^(٣).

والتدبر والتدبر: نظرٌ في عواقب الأمور ^(٤). فتنظر إلى ما يؤول إليه عاقبته ^(٥).

التدبر في الاصطلاح ^(٦):

يمكن الخروج بتعريف لكلمة التدبر بمعناها الاصطلاحي عند

(١) انظر: زاد المسير: (٣٠٥).

(٢) معجم مقاييس اللغة: (٢ / ٢٦٦)، وانظر: العين: (٨ / ٣١).

(٣) التعريفات: (٥٤).

(٤) العين للخليل: (٨ / ٣٣)، والقاموس المحيط: (٣٩٠).

(٥) انظر: الصحاح تاج اللغة: (٢ / ٦٥٥).

(٦) انظر تحرير معنى التدبر عند المفسرين: (٧).

المفسرين بأن التدبر هو:

(تأمل القرآن بقصد الاتعاظ والاعتبار والاستبصار)

• فكلمة (تأمل) قد اتفق عليها أغلب المعرفين للتدبر.

• وكلمة (القرآن) هي الواردة في نص الآية الكريمة: ﴿ أَفَلَا

يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤]، وهو المقصود في قوله تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَذَبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وفي قوله: ﴿ كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ

لِيَذَبَّرُوا عَائِتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص].

• وجملة (بقصد الاتعاظ والاعتبار والاستبصار): هي نتيجة

التدبر وثمرته، كما قال تعالى: ﴿ لِيَذَبَّرُوا عَائِتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص].

ص [ص]. ومما يدل على كون هذا هو المقصود من التدبر؛ توجيه الخطاب في

الآيات الآمرة به للكفار والمنافقين، والمقصود من ذلك اتعاظهم بما ورد في

القرآن، واعتبارهم الهادي إلى الإيمان واتباع الشرع. وهكذا يكون المقصود

عند تعميم الأمر ليشمل المسلمين فالتدبر متوجه إلى اتعاظ القلب

واعتباره مما يثمر بعد ذلك آثاراً دالة على الخشوع: كوجل القلب، والبكاء،

والخشية، وزيادة الإيمان، وغير ذلك مما ذكره الله تعالى في كتابه نتيجة التأثر

بالقرآن كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ

مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَدِّهَا مَتَانِي نَقْشِرُهُ

مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ

هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ [الزمر]
[وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾] الأنفال].

المبحث الأول أساليب القرآن في الدعوة إلى التدبر

دعا القرآن إلى التدبر في مواضع كثيرة، وحثَّ عليه، وتفنن في ذلك غاية التفنن، وحرَّك القلوب والعقول إلى تأمل المعاني، والاتعاظ والاستبصار بما جاء من الله تعالى من التخويف والترهيب والترغيب، وما ذكر من مصير الأمم السالفة، حين استجابوا أو كذبوا الرسل عليهم الصلاة والسلام.

لذلك فإن المواضع التي يذكر فيها القرآن القصص، والأمثال، والتي يذكر فيها الحثَّ على: التَعَقُّل^(١)، والتَّذَكُّر^(٢)، والتَّفَكُّر^(٣)، والتقوى^(٤)،

(١) ورد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن الكريم، وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في سبعة مواضع، كما ورد قوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ في ثمانية مواضع. وقد ورد غيرها من الآيات في نفس الموضوع بصيغ مختلفة.

(٢) ورد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في سبعة مواضع من القرآن الكريم، كما ورد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ في موضعين. وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ في سبعة مواضع، وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ في ستة مواضع.

(٣) قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام]. وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في موضعين، وقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في سبعة مواضع، وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في موضعين.

(٤) ورد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَنْفَعُونَ﴾ في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وورد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ﴾ في خمسة مواضع أيضاً، وورد قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَنْفَعُونَ﴾ في ستة مواضع.

والإيمان^(١)، والرؤية والإبصار^(٢)، والسمع^(٣)؛ فإننا يدعو فيها إلى تدبر القرآن، والتأمل فيها فيه من المواعظ والآيات، القائد بعد ذلك إلى التصديق والإيمان واتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

ولقد تنوعت الأساليب التي دعا فيها القرآن إلى التدبر، ويمكن بيان بعض تلك الأساليب فيما يأتي:

■ الأسلوب الأول: الحث المباشر على التدبر العام للقرآن:

وقد ورد ذلك في عدد من الآيات الكرييات منها:

أ - قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجُدُوا فِيهِ أَخْبَلْنَا كَثِيرًا ﴾ [٨٢] [النساء].

(١) كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُ سَمَاءً وَتَلًّا ﴾ [٣٠] [الأنبياء].

(٢) كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [٨١] [طه]، وقوله تعالى: ﴿ بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [١١] [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [١٧] [الغاشية]، وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [١٧] [السجدة]، وورد قوله تعالى: ﴿ فَانظُرُوا ﴾ في خمسة مواضع، وورد قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ في ثلاثة مواضع.

(٣) كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ [١٣] [السجدة]، وقوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ [٧] [القصص]، وورد قوله تعالى: ﴿ لَقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ في ثلاثة مواضع.

- ب - ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ﴿٢٤﴾ [محمد].
- ج - ﴿ أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمَ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٦٨﴾ [المؤمنون].
- د - ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذْكُرُوا عَائِنَتِهِ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿٢٩﴾ [ص].

فقد دعا القرآن هنا إلى التدبر دعوة مباشرة صريحة، وأبان أن علة إنزال القرآن؛ التدبر، ولا شك أنها علة عظيمة قائمة إلى كل فلاح وفوز في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف].

■ الأسلوب الثاني: توجيه الخطاب لأصحاب العقول والنهى^(١):

فقد ورد توجيه الخطاب في القرآن الكريم إلى أصحاب العقول، والألباب، والنهى.

وسر ذلك: حث أصحاب تلك العقول والألباب إلى استعمالها في تدبر النص القرآني، والاهتداء بما فيه، ومن تلك الآيات:

(١) ورد قوله تعالى: ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وورد قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَذْكُرُوا الْأَلْبَابِ ﴾ في موضعين، وورد قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَذْكُرُوا إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ في موضعين أيضاً، وورد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّعَى ﴾ في موضعين، وورد قوله تعالى: ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوهُ بِهِ وَيُعَلِّمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿٥٢﴾ [إبراهيم]، وقوله: ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذْكُرُوا عَائِنَتِهِ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿٢٩﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ ﴿٥﴾ [الفجر]، وورد قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَمِثْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ في موضعين.

أ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران].

ب - وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

ج - وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه].

د - وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه].

قال ابن جرير الطبري: "وخصَّ - تعالى ذكره - بأنَّ ذلك آياتٌ لأولي النُّهى؛ لأنهم أهل التفكير والاعتبار، وأهل التدبر والاتعاظ"^(١).

وقال في تفسير الآية الثالثة: "إن فيما وصفتُ في هذه الآية من قدرة ربكم، وعظيم سلطانه لآيات: يعني لدلالات وعلامات تدلُّ على وحدانية ربكم، وأن لا إله لكم غيره"^(٢).

■ الأسلوب الثالث: ضربُ الأمثال بقصد التفكير والتذكر:

فقد ضرب الله تعالى الأمثال في القرآن الكريم، وحث على تأملها وتذكرها، في آيات عديدة، وفي مجالات متعددة، فضرب الله الأمثال: للإيمان، والكفر، والعلم النافع، وفضح النفاق، والحث على الإنفاق،

(١) جامع البيان: (١٦ / ٨٦).

(٢) السابق نفس الصفحة.

والترغيب في الخير، والتنديد بالشر، وتصوير الطيب والخبيث، والصالح والطالح، ولإقامة الأدلة والبراهين، وبيان خيري الدنيا والآخرة^(١).

وقد قال الله تعالى في بيان الهدف من تلك الأمثال: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٣٥) ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ نَصْرٌ مِنْهَا وَلِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عِلْمٌ بِمَا يُخْتَصِرُ﴾ (٤٣) ﴿الْعَنْكَبُوتِ﴾، وقال: ﴿وَلِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ نَصْرٌ مِنْهَا وَلِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عِلْمٌ بِمَا يُخْتَصِرُ﴾ (٢١) ﴿الْحَشْرِ﴾.

وأبان القرآن مصير مَنْ لم ينتفع بتلك الأمثال كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ (٣٥) ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْغْنَاهُمْ نَذْمِيرًا﴾ (٣٦) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٧) ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ (٣٨) ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْنِيرًا﴾ (٣٩) ﴿الْفُرْقَانِ﴾.

قال ابن جرير الطبري: "يقول تعالى ذكره: وكل هذه الأمم التي أهلكناها، التي سمّيناها أو لم نسمّها، ﴿ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَالَ﴾ يقول: مثلنا له الأمثال، ونَبَّهْنَاهَا عَلَى حُجُجِنَا عَلَيْهَا، وَأَعْدَرْنَا إِلَيْهَا بِالْعِبَرِ وَالْمَوَاعِظِ، فلم تُهْلِكْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ إِلَّا بَعْدَ الْإِبْلَاحِ إِلَيْهِمْ فِي الْمَعْذَرَةِ"^(٢).

(١) انظر: أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم: (٧).

(٢) جامع البيان: (١٧ / ٤٥٥ - ٤٥٦).

■ الأسلوب الرابع: تعليل الآيات وختمها بما يدعو إلى التدبر:

فإن كثيراً من الآيات قد خُتِمَتْ بعِلل تدعو إلى التدبر والتفكير، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣١٩) [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٣٣١) [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣٣١) [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ (٦٥) [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦) [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٥) [إبراهيم]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (١١٣) [طه]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَنتَهُم مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٣) [السجدة]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) [ق]، وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨) [الزمر]، وقوله تعالى: ﴿فَاتِمَّا يَسِرَّنْهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨) [الدخان]، وغيرها من الآيات الكثيرة.

ولا شك أن المؤمن يسعى لتحقيق تلك الغايات التي نزلت من أجلها الآيات، ولا يكون ذلك إلا بتدبر القرآن والتأمل فيه والعمل بما يتضمنه من أوامر وتوجيهات.

وقد أخبر الله تعالى أن الغافلين والكافرين والمتكبرين والمكذابين؛

ومصروفون عن تدبر آياته وفهمها والانتفاع بها - ومنها القرآن - كما قال جل وعلا: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف].

قال سفيان بن عيينة: "أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي" (١).

وقال ابن جرير الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه سيصرف عن آياته، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده وفرض عليهم من طاعته في توحيده وعدله، وغير ذلك من فرائضه. والسموات والأرض، وكل موجود من خلقه؛ فمن آياته، والقرآن أيضاً من آياته، وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حَقَّتْ عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار والادِّكار بها مصروفون، لأنهم لو وفقوا لفهم بعض ذلك فهدوا للاعتبار به، اتعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم" (٢).

■ الأسلوب الخامس: ذكر القصص القرآني للتفكير والعبرة:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ

(١) جامع البيان: (١٣ / ١١٣).

(٢) السابق نفس الصفحة.

لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَانْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾ [يوسف].

فقد صرَّح القرآن بأن في تلك القصص عبرة، وطريق الاعتبار بتلك القصص هو تدبر القرآن.

وقد أحسن الإمام أبو جعفر الطبري - رحمه الله - عند تفسير آية الأعراف السابقة حيث كان عمله مثالا يُحتذى للتدبر فقال: "وأما قوله: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ﴾، فإنه يقول لنبى محمد صلى الله عليه وسلم: فاقصص - يا محمد - هذا القصص، الذي اقتصصته عليك من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبار الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصصت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حل بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رُسُلَنَا من نعمتنا؛ على قومك من قريش، وَمَنْ قَبْلَكَ من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينبوا إلى طاعتنا، لئلا يحل بهم مثل الذي حل بمن قبلهم من النقم والمثلات، ويتدبره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقة أمرك وصحة نبوتك، إذ كان نبأ ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ بَيِّنَاتًا﴾ من خفي علومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلا أخبارهم، ومن قرأ الكتب ودرسها منهم. وفي علمك بذلك - وأنت أُمِّي لا تكتب، ولا تقرأ، ولا تدرس الكتب، ولم تجالس أهل العلم - الحُجَّةُ البينة لك عليهم بأنك لله

رسول، وأنت لم تعلم ما علّمت من ذلك، وحالُك الحال التي أنت بها، إلا
بوحى من السماء"^(١).
وهذا يتبين أثر قصص القرآن في الهداية والإيمان واليقين عند التدبر
الصحيح والتأمل بقصد الاعتبار والاستبصار.

(١) جامع البيان: (١٠ / ٥٨٩).

المبحث الثاني

الأسباب المعينة على تدبر القرآن الكريم

١ - معرفة الله تعالى وتعظيمه:

فإن معرفة الله سبحانه وتعظيمه هي الباب العظيم لتدبر كلامه جل وعلا، فإن مَنْ امتلأ قلبه معرفة بالله وتعظيماً له؛ عَظَّمَ كلامه، وتمعَّن فيه، وأصغى إليه متأملاً متدبراً.

وقد أخبر سبحانه أن المشركين - وهم الذي لا يعرفونه حَقَّ المعرفة - لا ينتفعون بهذا الكتاب الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر].

قال ابن جرير الطبري: "وما أنت يا محمد بمسمع من في القبور كتاب الله، فتهديهم به إلى سبيل الرشاد، فكذلك لا تَقْدِرُ أَنْ يَنْفَعَ بمواعظ كتاب الله وبينات حججه، مَنْ كان ميت القلب من أحياء عباده، عن معرفة الله، وفهم كتابه وتنزيله"^(١).

وبين سبحانه أن سبب تكذيب المشركين؛ عدم معرفتهم الله حق المعرفة كما قال تعالى: ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف].

قال ابن عباس: "عميت قلوبهم عن معرفة الله وقدرته وشدة

(١) جامع البيان: (١٩ / ٣٥٩).

بطشه" (١).

وقال السعدي: "فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل" (٢).

وقال: "فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر: معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك، الظالمون المعرضون" (٣).

ولا شك أن مطالعة التفاسير لا تكفي وحدها في تدبر القرآن ما لم ينضم إلى ذلك الإحساس والإيمان العميق بأن هذا الكلام كلام الله تعالى (٤).

قال سلم بن ميمون الخواص: "قلت لنفسي: يا نفس، اقربي القرآن كأنك سمعته من الله حين تكلم به، فجاءت الحلاوة!" (٥).

ولا شك أن تعظيم القرآن من تعظيم الله تعالى، فكما أنه سبحانه عظيم في ذاته، فإنه عظيم في صفاته ومنها كلامه القرآن، وقد سماه سبحانه برهاناً، ونوراً، وهدى، وفرقاناً، وشفاء لما في الصدور، فعظمه عند المؤمنين؛ ليعظموا قدره ويفهموه، لينالوا شفاء قلوبهم (٦).

(١) تفسير البغوي: (٣ / ٢٤٢)، زاد المسير: (٥٠٣)، وانظر: الوجيز للواحدي: (٣٩٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن: (٨١٣).

(٣) السابق: (٨٧٢).

(٤) تدبر القرآن الكريم: (٤٦).

(٥) سير أعلام النبلاء: (٨ / ١٨٠).

(٦) انظر: فهم القرآن: (٢٨٢).

قال الحارث المحاسبي: "فإذا عَظُمَ في صَدْرِكَ تعظيمُ المتكلم به، لم يكن عندك شيءٌ أرفعُ، ولا أشرفُ، ولا أنفعُ، ولا ألدُّ، ولا أحلى، من استماعِ كلامِ الله عزَّ وجلَّ، وفهمِ معاني قوله، تعظيماً وحبّاً له وإجلالاً، إذ كان تعالى قائله، فحبُّ القولِ على قَدَرِ حُبِّ قائله"^(١).

وقد أحسن الإمام الغزالي في تصوير أثر ذلك التعظيم حيث يقول: "ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله. فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم بفضله وإن عاقب فبعد له، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي وهذا غاية العظمى والتعالي. فبال تفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام"^(٢).

٢ - التمهّل والتأني عند القراءة:

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل]، قال ابن كثير: "أي: اقرأه على تمهّل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره"^(٣).

والتمهّل في قراءة القرآن أدعى للفهم والتدبر، وهذه صفة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم كما وَرَدَ ذلك في عدة أحاديث منها:

(١) فهم القرآن: (٣٠٢) وله كلام جميل في هذا الموضع.

(٢) إحياء علوم الدين: (١ / ٢٨١).

(٣) تفسير القرآن العظيم: (١٤٢٧).

- عن حفصة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في سبخته قاعداً، حتى كان قبل وفاته بعام، فكان يصلي في سبخته قاعداً، وكان يقرأ بالسورة فيرتهاها، حتى تكون أطول من أطول منها^(١).
- وعن أنس: أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: كانت مداً، ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يمد بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ويمد بـ ﴿الرَّحْمَنِ﴾، ويمد بـ ﴿الرَّحِيمِ﴾^(٢).
- وعن أم سلمة: أنها سئلت عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: كان يقطع قراءته آية آية، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ ﴿٤﴾^(٣).
- وعن ابن مسعود أنه قال: لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذّوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة^(٤).

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين: باب جواز النافلة قائماً وقاعداً: (٧٩٣) رقم (٧٣٣).

(٢) رواه البخارى فى فضائل القرآن: باب مد القراءة: (٤٣٧) رقم: (٥٠٤٦).

(٣) رواه أحمد في مسنده: (٤٤ / ٢٠٦) رقم : (٢٦٥٨٣) قال الأرئوط في تخريجه: "صحيح لغيره وهذا سند رجاله ثقات رجال الصحيحين"، ورواه أبو داود في سننه في الحروف والقراءات: (١٥٦٦) رقم (٤٠٠١)، والترمذي في سننه في فضائل القرآن: باب كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم: (١٩٤٥) رقم (٢٩٢٣) وفي أبواب القراءات: باب في فاتحة الكتاب: (١٩٤٥) رقم (٢٩٢٧).

(٤) رواه البغوي في تفسيره: (٨ / ٢٥١)، والآجري في أخلاق حملة القرآن: (١٠ - ١١)، وأصله في الصحيح:

- وعن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هَذَا كَهَذَا الشعر، لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهما، فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين من آل حم في كل ركعة^(١).

٣ - فهم القرآن:

فهم القرآن هو أساس التدبر الصحيح، وذلك بفهم المراد من كلام الله تعالى، وفهم القرآن شامل لفهم معنى الآيات - بحيث يفهم القارئ معاني الكلمات، ويقرأ تفسيرها - وفهم المقصود من إيراد الآيات: وبهذا يفهم القارئ مقاصد القرآن.

قال ابن جرير الطبري: "وفي حَثِّ الله عز وجلَّ عباده على الاعتبار بما في أي القرآن من المواعظ والبيّنات... ما يدلّ على أنّ عليهم معرفة تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه. لأنه محالّ أن يُقال لمن لا يفهم ما يُقال له ولا يعقل تأويله: (اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة من القيل والبيان

= فقد روى البخاري في الأذان: باب الجمع بين السورتين في ركعة: (٦١) رقم (٧٧٥) عن أبي وائل: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هَذَا كَهَذَا الشعر!، لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهما، فذكر عشرين سورة من المفصل، سورتين من آل حم في كل ركعة. ورواه أيضاً في فضائل القرآن: باب الترتيل في القراءة: (٤٣٧) رقم (٥٠٤٣).

وروى مثله مسلم في صلاة المسافرين: باب ترتيل القراءة واجتناب الهذ: (٨٠٦) رقم (٨٢٢).

(١) رواه البخاري: (٦١) رقم (٧٧٥).

والكلام) - إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به. فأما قبل ذلك، فمستحيل أمره بتدبره وهو بمعناه جاهل. كما محال أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلام العرب ولا يفهمونه^(١).
وينبغي للقارئ أن يتعد عن موانع الفهم كالتكلف في القراءة والانشغال بها عن الفهم، واتباع الهوى فإنه من أعظم موانع تدبر القرآن الكريم.

٤ - تحسين الصوت عند القراءة:

وللصوت الحسن أثر كبير في تدبر كلام الله تعالى، وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على تزيين الصوت عند القرآن فقال صلى الله عليه وسلم: (زينوا القرآن بأصواتكم)^(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن)^(٣).

قال ابن كثير: "قد فهم من هذا أن السلف - رضي الله عنهم - إنما

(١) جامع البيان: (١ / ٧٦ - ٧٧).

(٢) رواه أبو داود في سننه في الوتر: باب كيف يستحب الترتيل في القراءة: (١٣٣٢) رقم (١٤٦٨)، والنسائي في سننه في الافتتاح: باب تزيين القرآن بالصوت: (٢١٥٣) رقم (١٠١٦) و (١٠١٧)، وابن ماجه في سننه في إقامة الصلوات: باب في حسن الصوت بالقرآن: (٢٥٥٦) رقم (١٣٤٢) عن البراء بن عازب رضي الله عنه، وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني: (٢ / ٤٠١) رقم (٧٧١).

(٣) رواه البخاري في التوحيد: باب قول الله تعالى: (وأسرؤا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور) لا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير: (٦٢٨) رقم (٧٥٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فهموا من التغني بالقرآن: إنها هو تحسين الصوت به، وتخزينه، كما قاله الأئمة، رحمهم الله^(١).

وقال: "والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه وتخزينه والتخشع به"^(٢).

وقال النووي: "أجمع العلماء - رضي الله عنهم - من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورةً نهاية الشهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها، ودلائل هذا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ مستفيضةً عند الخاصة والعامة"^(٣).

والمطلوب من تحسين الصوت الوصول للخشوع والتأثر، قال السندي: "المطلوب من تحسين الصوت بالقرآن أن تنتج قراءته خشية الله فمن رأيت فيه الخشية فقد حسن الصوت بالقرآن المطلوب شرعاً فيعد من أحسن الناس صوتاً"^(٤).

هـ - فهم لوازم النص ومقاصده:

وهذا من أعظم أسباب تدبر القرآن الكريم، فإن القرآن كثيراً ما يذكر في القصص مواطن العبرة، ويترك للفؤاد والعقل مطلق التأمل والتدبر في

(١) تفسير القرآن العظيم: (١ / ٦٠) طبعة دار طيبة.

(٢) السابق: (١ / ٦٣) طبعة دار طيبة.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن: (١٠٩).

(٤) نقله عنه في مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٧ / ٥٨٧).

ما لم يذكر، وقد يختم الآية بعلّة لم تعلق بشيء، ليتأمل العقل، كما قال تعالى:

﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ۖ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ (٢)﴾ [التكاثر].

قال الشوكاني: "ولم يقل عن كذا، بل أطلقه؛ لأن الإطلاق أبلغ في الذم؛ لأنه يذهب الوهم فيه كلّ مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، ولأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم، كما تقرّر في علم البيان"^(١).

ويدخل في هذا السبب معرفة مقاصد سور القرآن وآياته، وهو باب عظيم لتدبر القرآن الكريم، وتطبيقاته في كتب التفسير كثيرة.

وهذا السبب مؤثر جداً في التدبر، خاصة في القصص القرآني، والأمثال القرآنية.

(١) فتح القدير: (١٩٧٠).

المبحث الثالث

ثمرات تدبر القرآن الكريم

عند تأصيل منهج تدبر القرآن الكريم؛ لابد من ذكر الثمرات التي يُرجع إليها لمعرفة المنهج الصحيح لتدبر القرآن الكريم، حيث قد وُجد خلط بين بعض السلوكيات المصاحبة لتلاوة القرآن الكريم، وبين تدبر القرآن الكريم، فظنَّ كلُّ من عمَلَ عملاً متأثراً بالقرآن أنَّ ذلك نتيجة التدبر، وهو غير صحيح.

بل لابد من التمعن في هذه الثمرات، وقياس الإنسان نفسه عليها حتى يعلم موافقته للتدبر الصحيح من عدمها. ومن تلك الأصول ما يأتي:

■ الثمرة الأولى: التدبر الصحيح يهدي إلى الإيمان ويزيده:

وقد دلَّ على ذلك أدلة من كتاب الله تعالى منها:

أ - قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة].

ب - وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال].

فالآية الأولى صريحة في زيادة إيمان المؤمنين بسبب ما أنزل من القرآن الكريم، وإنما يكون ذلك عند تأمل القرآن وتدبره وفهم ما فيه، مما ينتج عنه الخوف والفرح والرجاء بما عند الله، والعمل بما يتضمن من أوامر ونواهٍ.

قال مجاهد والسدي وغيرهما: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: فرقت، أي: فرعت

وخافت^(١).

وقال الربيع بن أنس: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: زادتهم خشية^(٢).

وليس مجرد السماع كافياً في حصول ذلك الإيمان، فإن المشركين قد سمعوا القرآن ولكن كان عملهم الإعراض والكفر والتكذيب والاستهزاء والتولي وعدم العمل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦) [التوبة]، وقال: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧) [التوبة]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ (٢٠) [محمد]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (٥١) [القلم].

فتزيدهم لذلك الآيات رجساً وكفراً، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٢٥) [التوبة].

وأما المؤمنون فإنهم بخلاف ذلك كما قال ابن كثير: "وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أوامره، وترك

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٥٧٤).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: (١٦٥٦ / ٥) رقم (٨٧٧٩).

زواجه" (١).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان] (٢): "أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين، بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم" (٣).

وقال السعدي: "﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: وجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يُحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان" (٤).

والمؤمن يقيس تدبره بهذا الأصل العظيم؛ فإن أورثه إيماناً بالله، وتصديقاً برسوله صلى الله عليه وسلم؛ فهو على جادة السلف الصالح - رحمهم الله - في تدبر القرآن، وإن كانت تلاوته مجرد ألفاظٍ يرددها أو أصواتٍ يسمعها فإنه لم يصل بعد إلى المعنى الحقيقي لتدبر القرآن الكريم.

(١) تفسير القرآن العظيم: (٥٧٤).

(٢) تنبيه: كلام ابن كثير حول هذه الآية ليس في تفسير سورة الفرقان وإنما في تفسير سورة الزمر عند الآية رقم: (٢٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم: (١١٨٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن: (٣١٥).

■ الثمرة الثانية: التدبر يبعث على الخشية والخوف والرجاء والدمع:

وقد دلَّ على ذلك آيات منها:

أ - قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَدِّهَا مَثَانِي نَقْشَعُرٍ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ﴾ [الزمر].

ب - وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة].
قال ابن كثير: "هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه" (١).

وقد وصف الله الذين أوتوا العلم بالخشوع والبكاء عند استماع القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا أَنْفَرَقْنَهُ لِنَقْرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ۝١٠٦ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْلاً تُوْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٠٩﴾ [الإسراء].

■ مسألة: التدبر الصحيح يبعث على التأثر بلا تكلف:

وهذا هو حال الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، والتابعين رحمهم الله،

(١) تفسير القرآن العظيم: (١١٨٣).

فقد كان تدبرهم للقرآن أعظم التدبر وأعلاه، مُورثاً العمل والإيمان والتأثر بلا تكلف، وقد نبه العلماء إلى حال بعض الناس الذين فهموا التدبر على غير وجهه، فكان تدبرهم صراخاً وعويلاً وتكلفاً، ومن تلك الأقوال التي تحذر من ذلك:

- قال عروة بن الزبير: قلت لجدي أسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عز وجل: تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. قال فقلت لها: إن ناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشياً عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم^(١).

- وقال عكرمة: سُئِلَتْ أسماء بنت أبي بكر: هل كان أحد من السلف يُعشى عليه من الخوف؟ قالت: لا، ولكنهم كانوا يكونون^(٢).

- وعن ابن عمر أنه: مر برجل من أهل العراق ساقطاً، فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط، قال ابن عمر: إنا لنخشى الله وما نسقط!^(٣). وقال ابن عمر: إن الشيطان ليدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد صلى الله عليه

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: (١٠ / ٣٢٤٩) رقم (١٨٣٧٩)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور: (٧ / ١٩١) إضافة إليه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر. وانظر: زاد المسير: (١٢٢٩)، والمحرم الوجيز: (٤ / ٥٢٨).

(٢) زاد المسير: (١٢٢٨ - ١٢٢٩).

(٣) انظر: البحر المحيط: (٩ / ١٩٦)، والجامع لأحكام القرآن: (١٥ / ٢٤٩)، وتفسير البغوي: (٧ / ١١٦)، وزاد المسير: (١٢٢٨)، والمحرم الوجيز: (٤ / ٥٢٨).

وسلم^(١).

- وقال عامر بن عبد الله بن الزبير: جئتُ أبي، فقال لي: أين كنت؟ فقلت: وجدتُ قوماً ما رأيتُ خيراً منهم قطُّ، يذكرون الله عز وجل فيرعد واحداهم حتى يُغشى عليه من خشية الله عز وجل، فقعدتُ معهم، فقال: لا تقعد معهم بعدها أبداً. قال: فرآني كأني لم يأخذ ذلك فيّ، فقال: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن، ورأيتُ أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يُصيبُهُم هذا من خشية الله تعالى، أفترى أنهم أخشى لله من أبي بكر وعمر، قال: فرأيت ذلك كذلك^(٢).

- وقال قتادة بعد أن تلا قوله تعالى: ﴿نَقْشَعُرُهُمْ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقَلْبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]: "هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان"^(٣).

- وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذ قرئ عليهم القرآن؟ فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطاً رجله ثم يقرأ عليه

(١) انظر: البحر المحيط: (٩ / ١٩٦)، والجامع لأحكام القرآن: (١٥ / ٢٤٩)، وتفسير البغوي: (١١٦ / ٧).

(٢) زاد المسير: (١٢٢٨).

(٣) رواه عبد الرزاق في تفسيره: (٣ / ١٣٠) رقم (٢٦٢٦)، وانظر: تفسير البغوي: (٧ / ١١٦)، وفهم القرآن: (٢٧٩)، وتفسير القرآن العظيم: (١١٨٣).

القرآن من أوله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق^(١).
- وكان جَوَابُ يُرْعَدُ عند الذِّكْرِ، فقال له إبراهيم النخعي: إن كنت تملكه،
فما أبالي أن لا أعتدَّ بك، وإن كنت لا تملكه، فقد خالفت من كان
قبلك^(٢).

- وقال القرطبي: "الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوعَ الظاهر فلا
يملك صاحبه دفعه فتراه مطرقاً متأدباً متذلاً، وقد كان السلف
يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك. وأما المذموم فتكلفه والتباكي
ومطأطة الرأس كما يفعله الجهال ليروا بعين البر والإجلال وذلك
خدع من الشيطان وتسويل من نفس الإنسان"^(٣).

- وقال أيضاً: "فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا
كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النهاق
الذي يشبه نهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد
وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة
بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند
المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله. ولذلك وصف الله أحوال
أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى

(١) انظر: البحر المحيط: (٩ / ١٩٦)، والجامع لأحكام القرآن: (١٥ / ٢٤٩)، وتفسير البغوي:

(٧ / ١١٦)، والمححر الوجيز: (٤ / ٥٢٨).

(٢) زاد المسير: (١٢٢٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١ / ٣٧٥).

الرَّسُولِ تَرَىٰ أُعِينُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا
فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ [المائدة]، فهذا وصف حالهم وحكاية
مقالمهم. ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم، فمن
كان مستنأ فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من
أخسهم حالاً، والجنون فنون^(١).

- وقال ابن كثير في بيان وجوه مخالفة المؤمنين للفجار عند سماع القرآن: "أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة، رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلمون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدح المعلى في الدنيا والآخرة"^(٢).

هذا هو المنهج المعروف عن مجمل السلف الصالح رحمهم الله في تدبر القرآن الكريم، وقد وجدت استثناءات من بعضهم نبه عليها العلماء:
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمُهورُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ إِذَا كَانَ مَغْلُوبًا عَلَيْهِ لَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ حَالُ الثَّابِتِ أَكْمَلَ مِنْهُ؛ وَهَذَا لَمَّا سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ هَذَا، فَقَالَ: قُرِئَ الْقُرْآنُ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ

(١) السابق: (٧ / ٣٦٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (١١٨٣).

الْقَطَانِ فَعُشِيَ عَلَيْهِ وَلَوْ قَدَرُ أَحَدٍ أَنْ يَدْفَعَ هَذَا عَنْ نَفْسِهِ لَدَفَعَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ فَمَا رَأَيْتَ أَعْقَلَ مِنْهُ وَنَحْوَ هَذَا. وَقَدْ نُقِلَ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ أَصَابَهُ ذَلِكَ وَعَلِيُّ بْنُ الْفَضِيلِ بْنُ عِيَاضٍ قَصَّتُهُ مَشْهُورَةٌ. وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذَا كَثِيرٌ مِمَّنْ لَا يُسْتَرَابُ فِي صِدْقِهِ. لَكِنَّ الْأَحْوَالَ الَّتِي كَانَتْ فِي الصَّحَابَةِ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ وَهِيَ وَجَلُّ الْقُلُوبِ وَدُمُوعُ الْعَيْنِ وَافْشَعَارُ الْجُلُودِ...

وَقَدْ يَدُ حَالٍ هُوَ لَا مَنْ فِيهِ مِنْ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ وَالرَّيْنِ عَلَيْهَا وَالْجَفَاءِ عَنِ الدِّينِ مَا هُوَ مَذْمُومٌ وَقَدْ فَعَلُوا وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ حَالَهُمْ هَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ وَأَتَمُّهَا وَأَعْلَاهَا وَكِلَا طَرَفِي هَذِهِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ... وَلَكِنْ مَنْ لَمْ يَزَلْ عَقْلُهُ مَعَ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ مَا حَصَلَ لَهُمْ أَوْ مِثْلُهُ أَوْ أَكْمَلُ مِنْهُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ. وَهَذِهِ حَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَهُوَ حَالُ نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَأَرَاهُ اللَّهُ مَا أَرَاهُ وَأَصْبَحَ كَبَائِتٌ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَلَيْهِ... وَمَنْ خَافَ اللَّهَ خَوْفًا مُقْتَصِدًا يَدْعُوهُ إِلَى فِعْلِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَتَرْكِ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ فَحَالُهُ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ مِنْ حَالِ هَؤُلَاءِ وَهُوَ حَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ...

وَالصَّوَابُ: لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ وَأَنَّ أَفْضَلَ الطُّرُقِ وَالسُّبُلِ إِلَى اللَّهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَيَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِمْ وَوُسْعِهِمْ^(١).

(١) مجموع الفتاوى: (١١ / ٨ - ١٤).

■ الثمرة الثالثة: التدبر يورث العمل:

فإن تدبر القرآن لا يقفُ بالمؤمن عند مجرد السماع والتأثر، بل يتعدى ذلك إلى العمل والاستجابة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا أصلٌ عظيم من أصول التدبر، وإلا فقد ذمَّ الله اليهود الذين يزعمون أنهم آمنوا بالكتاب، والحال أنهم لا يعملون به، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ. وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة].

وقال الشيخ السعدي: "وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والالتقياد لكتب الله ورسوله، قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ وَرَيْقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة]" (١).

ولا شك أن العمل بالقرآن الكريم نتيجة الإيمان به وتدبر معانيه.

وختاماً فهذه الثمرات وما ذكر في هذا الموضوع، محاولة لضبط وتأصيل هذا الموضوع المهم، أسأل الله تعالى أن تكون محاولة في الطريق الصحيح، والموضوع لا يزال بحاجة إلى مزيد بحث وتأمل، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم...

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

(١) القواعد الحسان: (١٣٦).

ثبت المراجع والمصادر

١. إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بلا سنة طبع.
٢. أخلاق حملة القرآن، لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق: الدكتور عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، مكتبة الدار، ط ١، ١٤٠٨هـ.
٣. أمثال ونماذج بشرية من القرآن الكريم، لأحمد بن محمد طاحون، دار هجر، ط ١، ١٤١١هـ.
٤. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأنديسي، تحقيق: صدقي محمد جيل، دار الفكر، ط ١٤٢٠هـ.
٥. التأصيل،
٦. التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد الحجار، دار ابن حزم، ط ٣، ١٤١٤هـ.
٧. تحرير معنى التدبر عند المفسرين، فهد مبارك الوهبي، مخطوط.
٨. تدبر القرآن الكريم وقفات ولفقات، للدكتور عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، ط ١، ١٤٣١هـ.
٩. التعريفات، للشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٤٠٨هـ.
١٠. تفسير الإمام عبد الرزاق، تحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ.
١١. تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، لأبي محمد الحسين بن

- مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط ٤، ١٤١٧هـ.
١٢. تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الحلبي، ط ٣، ١٤١٩هـ.
١٣. تفسير القرآن العظيم، للإمام عماد الدين إبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار السلام، ط ١، ١٤٢١هـ.
١٤. تفسير القرآن العظيم، للإمام عماد الدين إبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي محمد السلامة، دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ.
١٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ.
١٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، دار هجر، ط ١، ١٤٢٢هـ.
١٧. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، راجعه وضبطه وعلق عليه: الدكتور محمد إبراهيم الحفناوي وخرج أحاديثه: الدكتور محمود حامد عثمان، دار الحديث القاهرة، ط ٢، ١٤١٦هـ.

١٨. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للإمام السيوطي، صححه وخرج أحاديثه: الشيخ نجدت نجيب، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٢١هـ.

١٩. زاد المسير في علم التفسير، للإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢٣هـ.

٢٠. السلسلة الصحيحة، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ط ١، ١٤١٥هـ.

٢١. سنن ابن ماجه، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط ٣، ١٤٢١هـ.

٢٢. سنن أبي داود، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط ٣، ١٤٢١هـ.

٢٣. سنن الترمذي، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط ٣، ١٤٢١هـ.

٢٤. سنن النسائي، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط ٣، ١٤٢١هـ.

٢٥. سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط ١١، ١٤٢٢هـ.
٢٦. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط ٣، ١٤٠٤هـ.
٢٧. صحيح البخاري، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط ٣، ١٤٢١هـ.
٢٨. صحيح مسلم، المطبوع ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة، بإشراف فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، ط ٣، ١٤٢١هـ.
٢٩. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للإمام الشوكاني، دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢١هـ.
٣٠. فهم القرآن، للحارث المحاسبي، قدم له وحقق نصوصه: د. حسين القوتلي، دار الفكر، ط ٣، ١٤٠٢هـ.
٣١. القاموس المحيط، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط ٨، ١٤٢٦هـ.
٣٢. القواعد الحسان لتفسير القرآن، للشيخ عبد الرحمن السعدي، مكتبة الرشد، ط ١، ١٤٢٠هـ.
٣٣. كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي

- المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال،
٣٤. مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١٤١٦هـ.
٣٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للإمام ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ.
٣٦. مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لأبي الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري، طبع إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية بنارس الهند، ط٣، ١٤٠١هـ.
٣٧. مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين، إشراف الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.
٣٨. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، اعتنى به: الدكتور محمد عوض مرعب والأنسة فاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ.
٣٩. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، ط١، ١٤١٥هـ.